د. الياس شوفاني

حروب الردة

(دراسة نقدية في المصادر)

دار الكنوز الأدبية

حروب الردّة

(دراسة نقدية في المصادر)

د.الياس شوفاني

حروب الردّة

(دراسة نقدية في المصادر)

حروب الردّة

(دراسة نقدية في المصادر)

الدكتور الياس شوفاني

الطبعة العربية الاولى ١٩٩٥

دار الكنوز الادبية

ص. ب/ ٧٢٢٦ - ١١ بيروت / لبنان

فهرست الموضوع

- تقديم ٧
- مقدمة / اشكالية الردة ١١
- الفصل الأول: نفوذ النبي محمد في الجزيرة العربية. ٢٣
- الفصل الثاني: خلافة أبي بكر الصديق. ٦٩
- الفصل الثالث: طبيعة الردة ومداها. ٩٩
- الفصل الرابع: الردَّة والفتوح العربية. ١٤٣
- الفصل الخامس: نجاح أبي بكر. ١٩٧
- ثبت المراجع
أ ـ المصادر العربية ٢١٧
ب ـ الدراسات بالعربية ٢٢٠
جـ ـ الدراسات باللغات الأجنبية. ٢٢٢

تقديم

هذا الكتاب هو تعريب لأطروحة الدكتوراة في التاريخ، قدمها المؤلف في جامعة برنستن، الولايات المتحدة، عام ١٩٦٨ . وبعد إدخال تعديلات طفيفة على المخطوطة تمَّ نشرها باللغة الإنجليزية، عام ١٩٧٢ . وقد ارتأى المؤلف مؤخراً تعريبها لوضعها في متناول القارئ العربي وطلاب تاريخ فجر الإسلام.

وفي حينه، بدا وكأن تبريراً لدراسة تقويمية لحركة "الردَّة"، والحروب التي ترتبت عليها هو لزوم مالايلزم، إذ على الرغم من الأعمال الكثيرة عن حياة الرسول محمد، ظلت جوانب متعددة من هذه الحركة غامضة وتستدعي التوضيح. والخلافات بالرأي حولها، لم تتوقف عند طبيعتها ومداها وعلاقتها بحركة الفتوح العربية فحسب، وإنما تعدت ذلك إلى صدقية المصادر الأولية التي تناولت هذا الموضوع. وعلى أرضية التضارب في الروايات

المختلفة، عمد المؤرخون، في الماضي، كما في العصر الحديث، إلى ترجيح صوابية بعضها على بعض، وبالتالي تزكية بعض الرواة على الآخرين، فنبذوا أخباراً وكرسوا غيرها، وأخذوا بأقوال محدث دون سواه. وعلى العموم، فالدراسات الحديثة، وبالمنهج الذي اتبعته في التعامل مع المصادر الأولية، لم توضح الصورة لأحداث الردة، بقدر مازادتها ضبابية.

وهذه الدراسة ليست سرداً لأحداث الردَّة، مع أن هذه الأحداث لاتغيب عنها طبعاً وإنما هي بالجوهر محاولة استقصاء لخلفياتها، وتدقيق لوقائعها. وهي لاتقوم على اكتشاف مصادر جديدة، وإنما على تمحيص دقيق للمعلومات المتوفرة في المصادر التقليدية، وهي كثيرة، كما يتضح من ثبت المراجع. وطلاب تاريخ فجر الإسلام يعون الإشكاليات التي تنطوي عليها دراسة تلك الفترة في المصادر العربية التي وصلت إلينا، كما يعرفون المناهج والمدارس النقدية لها. وبالنسبة إلى هؤلاء، لن يصعب تبين المنهج البنائي الذي اعتمده المؤلف، حيث صبَّ جهده على استخلاص أطروحة متماسكة حول القضايا التي عالجها، بالاستناد إلى الروايات المختلفة، بعد تمحيصها ومقارنتها بالروايات الأخرى. وبذلك، فقد قارب المؤلف تلك الروايات من منطلق أنها مجزوءَة، وليست مختلقة، كما يطرح بعض المؤرخين، كما أنها ليست كاملة ودقيقة، كما يراها آخرون.

ولما كان هذا البحث يرتكز إلى دراسة مقارنة للمصادر، فقد

وجبت الإحاطة بها، الأمر الذي تمخض عن عدد كبير من الحواشي، التي في غالبيتها ضمت عناوين متعددة. وعليه، كان لابد من اختصار هذه الأسماء بالترميز إليها، والاكتفاء بذكر الرئيسي منها، وحسب المسألة قيد البحث. وهي على كل حال ترد كاملة في ثبت المراجع.

وأخيراً، وإذ يعمد المؤلف إلى نشر هذا الكتاب، فإنه يأمل أن يشكل إضافة ذات مغزى في المكتبة العربية، سواءً لناحية الاستنتاجات التي توصل إليها في بحثه لحركة "الردة"، وما ترتب عليها، أو لناحية المنهج الذي اتبعه بالتعامل مع المادة في المصادر الأولية. وبهذه المناسبة، لايفوته أن يشكر كل من أسهم في نشر الكتاب.

١٩٩٥ د. الياس شوفاني

مقدمة

اشكالية الردَّة

في التاريخ الإسلامي يشير مصطلح "الردة" إلى انسلاخ القبائل في الجزيرة العربية عن الإسلام بعد وفاة النبي محمد؛ ومصطلح "حروب الردَّة" يشير إلى الحرب التي أشهرها أبو بكر الصديق ،الخليفة الأول، على تلك القبائل لإخضاعها لسلطة دولة الإسلام في المدينة. وإطلاق المؤرخين المسلمين هذا المصطلح على الحركات التي نشبت في الجزيرة العربية بعد وفاة الرسول يرتكز على القناعة بأن النبي محمداً قد نجح في هداية غالبية تلك القبائل العربية إلى الإسلام في حياته، ولكنها ارتدت عن الدين بعد موته، فلزم قتالها لإعادتها إلى الهداية. وقد طعن بعض طلاب التاريخ الإسلامي في العصر الحديث، وخاصة بالغرب، بمنظور المؤرخين المسلمين هذا.

ونظراً لتضارب الآراء فيما يتعلق بمدى سيطرة الرسول على

الجزيرة العربية والعلاقة المباشرة لهذه المسألة بفهم الردَّة، فقد حاولت في الفصل الأول من هذا الكتاب تفحص هذه القضية، وبالتالي تحديد مدى النجاح الذي حققه الرسول في سعيه لنشر الإسلام وسيادته في تلك الجزيرة، وذلك من خلال دراسة مقارنة للمصادر المتوفرة.

ومن الجوانب الإخرى لإشكالية الردَّة التي تطرق إليها الدارسون لتاريخ فجر الإسلام كانت مسألة طبيعة تلك الحركات ومداها، وبالتالي علاقتها بحركة الفتوح العربية. والافتراض الضمني في الروايات التقليدية بالنسبة إلى الردَّة هو أنها كانت حركة دينية، وبالتالي فحروب الردَّة كانت منفصلة عن الفتوح. وهذا الافتراض أيضاً تعرض للطعن من قبل مؤرخين في العصر الحديث. وفي الفصلين - الثالث والرابع - حاولت معالجة هاتين المسألتين سعياً لتوضيح القضايا ذات الصلة بالموضوع.

وأخيراً، فقد قيل الكثير عن نجاح حركة الفتوح العربية في اراضي الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية. وعليه، ارتأيت من المناسب تخصيص الفصل الثاني لتضافر القوى التي أوصلت أبا بكر الصديق إلى الخلافة، والفصل الخامس إلى العوامل التي أسهمت بنجاحه في فتح الجزيرة العربية.

الأحداث الرئيسية في خلافة أبي بكر [١]:

لقد أصبح من المسلم به عموماً أن النبي محمداً توفي في ١٣ ربيع أول من عام ١١ للهجرة (الموافق ٨ حزيران/يونيو ٦٣٢م)، في بيت زوجته عائشة، ابنة صاحبه الأقرب وخليفته الأول - أبي بكر

الصديق(٢). ومع أن المسألة ظلت نقطة خلافية بين الفرق الإسلامية، فالمسلَّم به عموماً بين طلاب التاريخ الإسلامي أن الرسول لم يخلف وراءه تعليمات لخلافته في منصبه السياسي داخل الجماعة الإسلامية في المدينة(٣). وهكذا، فإن موت القائد الروحي والسياسي جابه الجماعة المسلمة الناشئة بأزمة خطيرة: أزمة تسببت عن التنافس بين فئات مختلفة داخل الجماعة لخلافة الرسول في منصبه السياسي. فمن الأحداث المعروفة جيداً في تاريخ الإسلام أنه مالبث الرسول أن توفي حتى تحرك الأنصار ـ مسلمو المدينة ـ وعقدوا اجتماعاً للتداول بشأن الخلافة، وتقدموا بإعلان شخص منهم خليفة. إلا أن ذلك لم يكن مقبولاً على المهاجرين ـ مسلمي مكة ـ الذين رأوا أنهم أحقُّ بهذا المنصب. وبين المهاجرين أنفسهم، برزت مجموعة من ذوي الرسول وشيعتهم رأت بنفسها الوريث الشرعي لميراثه. والخلاف بين الفئات المتنافسة أوصل الجماعة إلى حافة الصراع بين الأخوة في الدين(٤).

والمنظور السائد بين مؤرخي فجر الإسلام أن الحؤول دون تفاقم هذه الأزمة قد تم بفعل حازم اتخذه ثلاثة من الصحابة البارزين الأولين ـ أبي بكر الصديق، أبي عبيدة بن الجراح، وعمر بن الخطاب. وقد سهَّلت الغيرة بين قبائل المدينة نجاح الموقف الحازم الذي اتخذه هؤلاء الثلاثة(٥).وهذا المنظور يرتكز على الرواية السنِّية التي بحسبها سارع الصحابة الثلاثة إلى مجلس الأنصار، وهدَّؤوا الهياج، وحملوا الجمع على انتخاب أبي بكر خليفة. وقد وقع ذلك في نفس اليوم الذي توفي به الرسول (٦). وفي اليوم التالي، جرى الإعلان عن الخليفة الجديد في المسجد، حيث ألقى خطبته الشهيرة(٧). أما علي بن أبي طالب، ابن عم الرسول وصهره، فقد امتنع عن البيعة للخليفة الجديد(٨).

وتؤكد الرواية التقليدية أن وفاة الرسول تمخضت عن فتنة عميقة خارج المدينة. ففي مكة، الحجاز، وسائر أنحاء الجزيرة، حسب الرواية، اهتاجت القبائل، وانفجرت أعمال الفوضى في أجزاء مختلفة منها، والعديد من تلك القبائل أعلن انفصاله عن المدينة عبر الانكفاء عن أداء الزكاة، أو اتباع أنبياء آخرين[٩]. وهذه الحركة من قطع العلاقة التي كانت قائمة بين القبائل والمدينة تعرف بالرواية الإسلامية باسم الردَّة[١٠]. وقمع هذه الحركة كان المهمة الرئيسية التي شغلت أبا بكر خلال الجزء الأكبر من خلافته التي امتدت حوالي عامين.

إلاَّ أن العمل الأول الذي قام به الخليفة المنتخب حديثاً، كان إنفاذ الغزوة التي أعدها الرسول قبل وفاته إلى غايتها. فلدى عودته من "حجة الوداع"، أمر الرسول أصحابه بالإعداد لغزوة إلى البلقاء ـ على الحدود السورية. إلا أن الرسول توفي قبل أن ينفذ الجيش، فتأجلت الغزوة. وبحسب الرواية، أمر أبو بكر بتسيير الجيش إلى سورية غداة إعلانه خليفة. وتنفيذاً لكلام الرسول، أودع الخليفة الأول قيادة الغزوة بيد أسامة بن زيد بن حارثة، وهو ابن ابن الرسول بالتبني. ويذكر أن أسامة غزا جنوب سوريا، وعاد بغنائم كثيرة[١١].

وبعد أن غادر أسامة وجيشه، أعلنت غالبية قبائل الجزيرة انفصالها عن المدينة. وفقط مكة والمدينة وجوارهما بقوا على ولائهم لدولة الإسلام. والعمال المسلمون لدى القبائل "المرتدة" اضطروا للهروب والعودة سريعاً إلى المدينة. الجزيرة ثارت على المدينة، وقبائل كثيرة تحولت واتبعت منافسين للرسول، ممن ادعوا النبوة[١٢]. وإزاء هذه الثورات، التي تفجرت في أنحاء مختلفة من الجزيرة، وقف أبو بكر

بحزم وصلابة في رفضه التفاوض على عهود جديدة مع "الثوار" ـ غير تلك التي كانوا عقدوها مع الرسول. والخليفة الأول، رغم مشورة بعض رفاقه بالعكس، قرر إجبار القبائل المرتدة على الرضوخ. ومن أجل ذلك، جهَّز الخليفة حملة ضد المرتدين قادها بداية بنفسه، ثم عهد بذلك لاحقاً إلى خالد بن الوليد[١٣].

وقد قام أبو بكر بالعمل العسكري الأول ضد القبائل المرتدة إلى الشمال الشرقي من المدينة. وهناك، كانت قبيلتا غطفان وطيِّئ قد تحالفتا مع أَسد بقيادة رئيسها، طلحة بن خويلد، في محاولة للدفاع عن أنفسهم ضد المدينة[١٤]. وكان معسكر القوات المتحالفة الرئيسي في البزاخة، وهي نبع ماء في أرض أسد ـ إلاَّ أنه كانت لهم معسكرات أخرى أصغر. وفي النصف الثاني من جمادى الآخرة عام ١١هـ (أيلول/سبتمبر عام ٦٣٢م)، اصطدم أبو بكر بأحد المعسكرات الصغيرة لهذا التحالف، وهزمه في ذي القَصَّة، إلى الشمال الشرقي من المدينة[١٥]. وبعد هذه المعركة هرب الثوار من قبيلة غطفان والتحقوا بالمعسكر الرئيسي في البزاخة، وسلم أبو بكر قيادة الجيش إلى خالد بن الوليد وأنفذه لمقاتلتهم هناك. وقبل الاشتباك في معركة مع هذا التحالف نجح خالد بإخراج طيِّئ منه واستمالتها إليه ضد البقية من أسد وغطفان[١٦]. وبحسب كايتاني، وقعت معركة البزاخة في رجب ـ شعبان من عام ١١هـ(تشرين الأول/اكتوبر ٦٣٢م)[١٧].

ومن البزاخة، تقدم خالد في أرض بني تميم، وهي قبيلة كبيرة ـ بعضها من النصارى والبعض الآخر من عبدة الأوثان ـ كانت تقطن

المنطقة الواقعة بين اليمامة ومصب الفرات[١٨]. وفي تميم كانت قد قامت فتنة أدت إلى حرب أهلية، وذلك إثر ظهور النبيَّة سجاح في القبيلة[١٩] .وعندما اقترب خالد من أرض تميم، سارع الجزء الأكبر من القبيلة بالاستسلام لجيش المدينة. إلا أن مالك بن نويرة، سيد بني يربوع، وهم بطن من تميم، تردد ووقف على الحياد.وعليه، باغت خالد معسكر يربوع في البُطاح. ووقع مالك بالأسر وأعدم، بناء على أوامر خالد، كما يبدو، على الرغم من معارضة بعض قادة الجيش المسلم[٢٠].

وفي اليمامة، إلى الشرق من المدينة، وبينما النبي محمد في ذروة قوته، ظهر الرجل المعروف في الرواية الإسلامية باسم مسيلمة (تصغير مسلمة، ازدراءً به)[٢١]، وساد قبيلة بني حنيفة ـ وهي فخذ من بكر بن وائل[٢٢].

وادَّعى مسيلمة النبوَّة، متحدياً بذلك محمَّداً نفسه. وبعد أن أخضع تميماً لسلطة المدينة تحرك خالد نحو اليمامة والتقى في سهل عقرباء مسيلمة وأنصاره الأشداء من بني حنيفة. وفاز المسلمون بنصر عظيم في المعركة، التي كانت مكلفة جدًّاً بالأرواح، والتي بحسب كايتاني، وقعت في ربيع أول عام ١٢هـ (أيار–حزيران/ مايو–يونيو ٦٣٣م)(٢٣). وبعد النصر عقد خالد معاهدة سلام مع الناجين من بني حنيفة بعد المذبحة فيما صار يعرف باسم "حديقة الموت". وبعد الهزيمة، أرسل بنو حنيفة وفداً منهم إلى المدينة لإعلان استسلامهم الكامل لسلطة خليفة المسلمين[٢٤].

ومن اليمامة، تقدم خالد ومعه جزء من جيشه فقط نحو البحرين،

على الشاطئ الشرقي للجزيرة العربية، وذلك لنجدة العلاء بن الحضرمي، الذي كان قد اشتبك هناك، بناءاً على أوامر الخليفة، في حرب مع الثائرين فيها على سلطة المدينة. وقد حمل ثوار البحرين السلاح بإمرة رجل يدعى الحُطم، وآخر من سلالة اللخميين في الحيرة، يدعى النعمان بن المنذر الغرور[٢٥]. و نشبت الثورة في البحرين بعد موت المنذر بن ساوى العبدي. والمنذر هذا كان عاملاً للفرس في البحرين سابقاً، ثمَّ أعلن ولاءَه للرسول واستقبل العلاء بن الحضرمي في بلاطه عاملاً لدولة الإسلام في المدينة[٢٦]. ومع أن الحطم هزم في هجوم مباغت شنه عليه العلاء، لكن الحرب في البحرين استمرت بضع سنين قبل أن تستسلم المنطقة بأسرها للمدينة[٢٧]. ودور خالد في الحرب بالبحرين غير واضح في المصادر، ولكنه بينما كان هناك، تلقى أمر الخليفة بالزحف والانضمام إلى قوات قبيلة بكر بن وائل في غزو الأراضي الفارسية بالعراق[٢٨].

وبينما كان خالد بن الوليد يتابع مسيرته الظافرة في وسط الجزيرة وشرقها، كان قادة مسلمون آخرون، أرسلهم أبو بكر، يقاتلون "أهل الردة" في نواح أخرى منها[٢٩]. فإلى اليمن، بعث الخليفة المهاجر بن أبي أميَّة لسحق الحركة المناهضة للإسلام هناك، والتي بدأت في حياة الرسول. وبقيادة الأسود العنسي، الذي ادَّعى النبوة أيضاً، جذبت هذه الحركة جيشاً كبيراً من الأتباع، مكنه من انتزاع الحكم في صنعاء من أيدي الأبناء- الطبقة الفارسية الحاكمة في اليمن[٣٠]. وسوء حكم الأسود بعد أن استولى على صنعاء أثار ضده كرهاً شديداً في أوساط السكان، كما شجع خصومه للتآمر عليه. وبمساعدة زوجته، نجح المتآمرون من دخول قصره وقتله، في ربيع

أول، عام ١١هـ (أيار–حزيران /مايو–يونيو ٦٣٢م)[٣١]. وبعد اغتيال الأسود، عاد الأبناء إلى صنعاء واستعادوا الحكم فيها. إلاَّ أن صراعاً جديداً نشب بين الأبناء ورؤساء القبائل العربية في اليمن. وتطور هذا الصراع إلى حرب أهلية، كانت نتيجتها طرد الفرس من صنعاء[٣٢]. وفي خضم الأحداث السياسية العاصفة في اليمن، أرسل أبو بكر المهاجر بن أمية في حملة إلى اليمن لفتحها. وقد نجح المهاجر في مهمته: قيس بن مكشوح المرادي، قائد الحركة العربية ضد الفرس هزم، أُسر، وأرسل إلى المدينة. وهدأت اليمن وأقرّت بسلطة الخليفة عليها[٣٣].

وفي جنوب شرقي الجزيرة، كان عكرمة بن أبي جهل، قائد الجيش الإسلامي الذي أرسل لقمع التمرد في عمان، قد هزم لقيط بن مالك ـ زعيم المرتدين ـ واحتل دَبًّا، عاصمة عمان، وتقدم نحو المَهرة. وفي المهرة، هزم عكرمة شخريت، رئيس المتمردين هناك، وأخضع المنطقة[٣٤]. ومن المهرة، تقدم عكرمة للحاق بالمهاجر، الذي بعد أن سيطر على اليمن تابع مسيرته لإخضاع الثائرين في حضرموت. وفي حضرموت، كان عمال الزكاة قد أثاروا الناس ضدهم. إلاأن حضرموت احتلت وأخضعت لسلطة المدينة[٣٥]. وبإخضاع حضرموت أصبحت الجزيرة العربية بأكملها تحت حكم الخليفة في المدينة.

وبينما الجيوش الإسلامية لاتزال تحارب في جنوب وجنوب شرقي الجزيرة، كان خالد بن الوليد، كما ذكر أعلاه، وبناء على دعوة قبيلة بكر بن وائل، وعليه، أمر الخليفة، يغزو العراق. وفي محيط الحيرة،

عاصمة اللخميين، قام خالد بعدد من الغارات الناجحة على التجمعات السكانية العربية وأجبر الحيرة ذاتها على عقد معاهدة معه. وبحسب المعاهدة، كان على الحيرة أن تدفع جزية سنوية إلى الدولة الإسلامية، وفي الحيرة، تسلم خالد أمر الخليفة بالسير إلى سوريا واللحاق بجيوش المسلمين هناك[٣٦].

ويرى كايتاني أن أبا بكر توصل إلى قرار غزو سوريا بعد عودته من العمرة، في رجب، عام ١٢هـ (أيلول/سبتمببر ٦٣٣م)(٣٧). فلدى عودته إلى المدينة، أرسل الخليفة ثلاثة جيوش إلى سوريا، كما أمر خالد بن الوليد بالزحف من العراق واللحاق بالمسلمين في سوريا[٣٨]. وبذلك بدأ فتح سوريا. أما كيف يختلف هذا المنظور عن الآراء الرائجة فهو ماستتم مناقشته بتوسع في سياق بحث العلاقة بين الردّة وحركة الفتوح.

حواشي المقدمة:

١) الترتيب الزمني لهذا العرض السريع يرتكز على: ليون كايتاني، الحوليات الإسلامية، باريس، ١٩١٢ (بالإيطالية). وفي هذه الحوليات يقدم كايتاني قائمة طويلة من المصادر لدعم استنتاجاته.

٢) ملاحظة: في الحواشي سيجري تعريب الأسماء والمراجع، وكذلك اختصار مايتكرر منها كثيراً، وهي على أية حال ستقدم بصيغتها الكاملة والأصلية في ثبت المراجع) كايتاني، حوليات، ١ ، ١٠٩؛ سير وليام ميور، الخلافة، صعودها، هبوطها، وسقوطها(بالإنجليزية)، الطبعة المنقحة، ت.هـ.فير، ادنبرة، ١٩٢٤ ، ١؛ بيرنارد لويس، العرب في التاريخ (بالإنجليزية، ١٩٥٨ (طبعة غري ارو) ٤٧ .

٣) كايتاني، حوليات، ١،١٠٩؛ لويس، المصدر السابق، ٥٠؛ ك.هـ.بيكر، التوسع الإسلامي، تاريخ كيمبردج للعصور الوسطى (بالإنجليزية)،٢، ٣٣٢ .

٤) كايتاني، حوليات، ١ ، ١١٠؛لويس، المصدر السابق، ٥٠ - ٥١؛ ميور، المصدرالسابق، ٢-٣ .

٥) ميور، المصدر السابق، ٢-٤؛ كايتاني، حوليات، ١ ، ١١٠؛ لويس، المصدر السابق، ٥١؛ وانظر أيضاً هـ. لامنس، الثلاثي أبو بكر، عمر، وأبو عبيدة، (بالفرنسية) مجلة جامعة القديس يوسف، ٤(١٩١٠)، ١١٣ - ١١٤ .

٦) كايتاني، حوليات، ١ ، ١١٠؛ لويس، ٥١ .

٧) كايتاني ١ ، ١١٠ .

٨) ميور،٥ .

٩) كايتاني، ١،١١٠ .

١٠) لقد راج مصطلح "ردة" وغلب على "ارتداد"؛ انظر لويس، ٥٠؛ هنري لاووست، الانشقاق في الإسلام (بالفرنسية)، باريس، ١٩٦٥ ، ٢ فما بعد.

١١) كايتاني، ١ ، ١٠٩و١١١؛ ميور، ٩؛ م.دي خريبي، تقرير عن فتح سوريا(بالفرنسية)

ليدن، ١٩٠٠ ، ١٧ .

١٢) كايتاني، ١،١١١؛ ميور،١١؛ ارنولد هونتغر، العرب (بالإنجليزية)، ١٩٦٣ ، ٣٤ .

١٣) كايتاني، ١ ، ١١١؛ ميور، ١٩ .

١٤) الموسوعة الإسلامية (بالإنجليزية)، المواد: "طليحة"، ف.فاتشا؛ "طيّئ"، هـ.هـ.براو؛ "أسد"، هـ.كندرمان؛ "غطفان"، ج،و،فيك.

١٥) كايتاني،١، ١١١ .

١٦) ميور، ١٩ - ٢٠؛ كايتاني،١، ١١١ .

١٧) كايتاني،١، ١١١ .

١٨) الموسوعة الإسلامية، مادة "تميم"، ج ليفي ديلافيدا؛ ميور، ٢٣ .

١٩) الموسوعة الإسلامية، مادة "سجاح"، ف.فاتشا؛ ميور، ٢٤؛ كايتاني،١، ١١١ .

٢٠) كايتاني، ١ ، ١١٢؛ ميور، ٢٤ - ٢٦ .

٢١) الموسوعة الإسلامية، مادة "مسيلمة"، ف،بوهل؛ ميور، ٢٧ - ٢٨ .

٢٢) الموسوعة الإسلامية: مادة "حنيفة بن لجيم"، مونتغومري وات.

٢٣) كايتاني، ١ ، ١٢١؛ ميور، ٢٨ - ٣٢ .

٢٤) كايتاني، ١ ، ١١٢ .

٢٥) كايتاني، ١ ، ١٢٢ .

٢٦) ميور، ٣٣ .

٢٧) كايتاني، ١ ، ١٢٢ .

٢٨) كايتاني، ١ ، ١٢٢ .

٢٩) ميور، ٣٣ .

٣٠) الموسوعة الإسلامية، مادة "الأسود العنسي"، مونتغومري وات؛ "الأبناء"، ك.ن.ايتنشتين.

٣١) كايتاني، ١ ، ١١٣ .

٣٢) كايتاني، ١ ، ١١٣ ، ١٢٣ .

٣٣) كايتاني، ١ ، ١١٣ ، ١٢٣ .

٣٤) كايتاني، ١ ، ١٢٢ .

٣٥) كايتاني، ١ ، ١٢٣ .

٣٦) كايتاني، ١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ .

٣٧) كايتاني، ١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ .

٣٨) كايتاني، ١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ .

الفصل الأول

نفوذ النبي محمد في الجزيرة العربية

"إذا جاء نصر الله والفتح
ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا
فسبِّح بحمد ربِّك واستغفره إنه كان توَّابا"
القرآن الكريم، سورة النصر.

وإذ تنبئ هذه السورة من القرآن الكريم أن "الناس يدخلون في دين الله أفواجاً"، فإنها لاتدعم الرواية التي تتبناها المصادر اللاحقة من أن كلَّ القبائل العربية في الجزيرة اعتنقت الإسلام خلال العامين الأخيرين من حياة الرسول. وبحسب الرواية التقليدية، فإن اعتناق القبائل للإسلام تكرَّس من خلال الوفود التي أمَّت المدينة نيابة عنها. والعام ٩ هـ يعرف عادة باسم "عام الوفود"، نظراً للعدد الكبير من مبعوثي القبائل الذين وفدوا على المدينة في ذلك العام لأداء الطاعة للنبي محمد، ولإعلان ولاء قبائلهم للإسلام ودولته.

وكتب سيرة الرسول تطالعنا بقوائم طويلة من أسماء القبائل التي أرسلت وفوداً إلى المدينة[١]. لكن هذه المصادر لاتوضح التزام القبائل تجاه المدينة، ويستقى من الروايات الكثيرة بأن وفداً، من هذه القبيلة أو

تلك، جاء إلى المدينة، فاستقبله الرسول وقدم له الهدايا، ثم عاد إلى دياره. ولكن، يبدو أن المؤرخين المسلمين اعتبروا قدوم مثل هذه الوفود إلى المدينة دلالة على اعتناق القبائل للإسلام، وبالتالي قبولها الالتزام بإقامة الصلاة وأداء الزكاة.

ومنظور المؤرخين المسلمين الأولين هذا تعرض للطعن من قبل طلاب التاريخ الإسلامي، خاصة في الغرب. أما في الشرق، فبعض المؤرخين المسلمين المحافظين قبل المنظور الكلاسيكي كما هو، بينما رأى آخرون بعض المبالغة فيه. وفيما يلي أمثلة من التقويمات المختلفة لإنجازات الرسول على هذا الصعيد ـ مأخوذة من أعمال تعتبر نموذجية في هذا الموضوع.

ففي بداية القرن الراهن، على سبيل المثال، طعن المؤرخ الألماني كارل هـ.بيكر، في مقالته المعروفة حول الفتوح الإسلامية في "تاريخ كيمبردج للعصور الوسطى"، بالمنظور التقليدي حول إنجازات الرسول، ولخّص آراءَه كما يلي:

"في الواقع، فإن محمداً، لدى وفاته، لم يوحد الجزيرة العربية بأي شكل، ناهيك عن تحويلها إلى اعتناق الإسلام. وليس كل مايشكل اليوم ولاية الحجاز التركية، أي الجزء الأوسط من ساحل الجزيرة الغربي ومايوازيه من الداخل، كان قد التحق بالمدينة ومكة سياسياً ليشكل قوة موحدة، وحتى هذا ارتبط بمصالح أكثر مما هو بأخوَّة دينية. وقبائل وسط الجزيرة، مثل، غطفان، باهلة، طيِّئ، أسد، الخ، كانت في حالة من التبعية الهشة لمحمد، وربما اعتنقت جزئياً العقيدة الإسلامية، بينما في اللواء المسيحي إلى الشمال وفي اليمامة، التي

كان لها نبيُّها الخاص، وكذلك في جنوب الجزيرة وشرقها، فإما أنه لم تكن لمحمد أية علاقة معها، أو أنه عقد معاهدات مع قبائل منفردة أو معزولة، أي، مع أقلية ضعيفة"[٢].

وبنهج مثيل عامة، قسَّم ليون كايتاني، في كتابه "دراسة في التاريخ الشرقي"، القبائل العربية إلى أربع مجموعات، بعد أن درس بدقة ومنهجية علاقات كل قبيلة مع محمد. فالقبائل في ضاحية مكة والمدينة، وهي المجموعة الأولى، خضعت لمحمد واعتنقت الإسلام. والمجموعة الثانية من القبائل خضعت سياسياً لمحمد، وحقق الإسلام بعض التقدم فيها؛ وكانت هذه قبائل هوازن، عامر، طيِّئ، سُلَيم، وربما خثعم. والمجموعة الثالثة تألفت من القبائل التي عاشت على أطراف دولة المدينة، فقد خضعت سياسياً للإسلام، وسميت مسلمة مجازاً. والمجموعة الرابعة كانت تتشكل من قبائل حافظت على استقلالها عن المدينة، وفيها قلة صغيرة فقط طلبت مساعدة الرسول ضد خصومها؛ ومن بينها بنو حنيفة، عبد القيس، أزد عمان، وحضرموت[٣].

وعلى العكس من الآراء السابقة، التي تشكك بالرواية التقليدية، فإن المؤرخ الباكستاني محمد حميد الله، في كتابه "نبي الإسلام"، يتبنى المنظور التقليدي بأن محمداً أسس دولة المدينة في منطقة صغيرة بداية، وراحت تتوسع باطراد حتى ضمَّت الجزيرة العربية بأكملها. فبعد غزوة تبوك، كانت الجزيرة كلها، وكذلك أجزاء من جنوب العراق وفلسطين تحت سيطرة الرسول. وبالنسبة إلى حميد الله، فقد اعتنق سكان هذه المناطق الإسلام أيضاً[٤]. هذا بينما يقرُّ

مؤرخون شرقيون آخرون بأن الرواية التقليدية ليست دقيقة في تقديرها لإنجازات الرسول في الجزيرة العربية. فعبد العزيز الدوري، مثلاً، يعترف بأن بعض القبائل انحازت إلى المدينة سياسياً، في حين اعتبر البعض الزكاة إذلالاً وخضع لسلطة المدينة على كره، وآخرون لم ينحازوا إلى المدينة، لاسياسياً ولادينياً[٥]. ومنظور الدوري هذا يتبناه مؤرخ عربي آخر لفجر الإسلام، هو عبد المنعم ماجد[٦].

وبالنسبة إلى مدى سيطرة محمد في الجزيرة العربية، فإن منظور الأستاذ مونتغمري وات، مؤلف الكتاب الأوسع والأحدث عن حياة الرسول، يكتسب أهمية خاصة، لأنه نتاج مقاربة تتقبل رواية المصادر ولكن بتقويم حصيف. وبكلمات وات، كانت إنجازات النبي محمد كالتالي:

"أخيراً، علينا طرح السؤال مامدى تحالف القبائل، على الأقل سياسياً، مع محمد. فتلك التي كانت في جوار المدينة ومكة توحدت معه بشكل راسخ. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الوسط وعلى طول الطريق إلى العراق، إلا أنه كانت هناك استثناءات. في اليمن وبقية جنوب غرب الجزيرة كانت هناك مجموعات عديدة متحالفة معه، ولكنها لاتزيد على نصف السكان بأي حال. وفي الجنوب الشرقي كانت النسبة ربما اقلّ. وعلى طول الطريق إلى سوريا تحقق القليل من النجاح في فصل القبائل عن الامبراطور البيزنطي.

"وهكذا لم ينجح محمد بشكل عام في توحيد الجزيرة، ولكنه فعل كثر مما يقرُّ به المتشككون من الأساتذة الأوروبيين. وفوق

ذلك، فإن تأثيره الشخصي لاشك أعطاه قوة وسلطة تتجاوز تلك التي منحته إياها المعاهدات الرسمية، وعلى سبيل المثال، في شؤون القبائل التي تحالفت معه على قدم المساواة. وبالتأكيد، كانت هناك فجوات، ولكن فيما عدا الشمال الغربي فهي ضئيلة. فإطار الوحدة قد بني. ونظام سياسي على أسس راسخة قد شُيِّد، حيث كان ضم القبائل إليه ممكناً. الكثير منها التحق، وغيرها أمكن إضافته بسهولة"(٧).

ولغرض مناقشة الموضوع، فمن العملي أكثر تقسيم الجزيرة العربية إلى مناطق جغرافية، وبالتالي فحص مدى سلطة الرسول في كل منها. وفي مجرى النقاش، ستولى أهمية للنواحي السياسية من العلاقات بين الرسول والقبائل، وسيكرس اهتمام خاص بتلك القبائل التي يفترض أنها "ارتدت" فور وفاته. وهذا يساعد على استكمال النقاش في خلافة أبي بكر، الذي في أيام حكمه تمَّ فتح الجزيرة. وستعالج المناطق في الجزيرة حسب الترتيب التالي: الحجاز، نجد، المناطق الساحلية، والشمال.

١ ـ الحجاز

مكة، المدينة، والطائف، كانت المدن الرئيسية الثلاث في الحجاز. والهجرة من مكة إلى المدينة عام ٦٢٢م، أعطت الرسول قاعدة جديدة، يتابع منها نضاله لنشر سيادة الإسلام في الجزيرة العربية. وعقد من النشاط التبشيري في مسقط رأسه بنجاح محدود، أوضح للرسول أن المعارضة الشديدة في مكة تحول دون توسيع حركته، وعليه، فلا بدَّ من تبني استراتيجية جديدة إذا كان لنجاح أكبر أن

يتحقق. فلقد أصبح واضحاً له بأنه لامفرَّ من قتال أهل مكة وهزيمتهم كي يذعنوا للإسلام. ومثل هذه الاستراتيجية النشطة كانت تستلزم من الرسول أن يوطد أركان قيادته دون منافس في قاعدة خارج مكة، ويعقد اتفاقات مع القبائل التي تقيم على طول طرق التجارة المكية. وبعد الهجرة، لم يضيع الرسول وقتاً في تجسيد هذه الاستراتيجية.

ولدى وصوله إلى المدينة، لم يصبح الرسول زعيم البلد بلا منازع. ودستور المدينة (عهد الأمة) حدَّد أن يكون محمد رئيس المهاجرين، الذين يعتبرون قبيلة، كاملة الحقوق والواجبات، أسوة بالقبائل الأخرى في المدينة. والامتياز الوحيد الذي تمتع به على سواه هو أن تحال الخلافات بين القبائل إليه للفصل فيها[٨]. أما بالنسبة إلى حريته في العمل ضد المكيين، فقد كانت محددة بحقيقة أن المدينيين قد تعهدوا بحمايته من أعدائه، لكنهم لم يأخذوا على عاتقهم أية التزامات بخوض معارك هجومية إلى جانبه[٩]. ولذلك، كان على الرسول أن يسلك ببراعة لإدخال سكان المدينة في حرب مفتوحة مع أهل مكة. وقد أثارت خطواته التكتيكية خلافاً حادّاً في المدينة، بين أنصاره المخلصين وخصومه، الذين يشار إليهم في الروايات باسم المنافقين[١٠]. ولكن الاختبار الأكثر اشكالية للرسول كان الصراع ضد المكيين -الذي في سياقه، ونتيجة له، تغلب على الصعاب الأخرى.

***

إن استسلام مكة للرسول، وبالتالي فتحها، قد تحقق على أربع مراحل واضحة المعالم. الأولى تميزت بعمليات إغارة خاطفة، شبيهة

بحرب العصابات، تقوم بها كمائن على قوافل التجارة المكية؛ والثانية انطوت على معارك ذات نطاق واسع؛ والثالثة كانت شكلاً من الهدنة، توجت باتفاق سلام؛ والرابعة، القصيرة، تميزت بمناورات دبلوماسية، أدت إلى استسلام المكيين(١١).

المرحلة الأولى:

كان الرسول وأصحابه الأولون جميعاً من المكيين الضالعين في مفاعيل المجتمع المكي التجاري. فحياة مكة كانت تتوقف على تجارتها، وكان الرسول يعي تماماً أنه بضرب هذا الشريان الحيوي يستطيع إخضاع المكيين. وهكذا يلاحظ أن مغازي الرسول الأولى، حتى وقعة بدر (عام٢هـ)، كانت موجهة ضد قوافل مكة التجارية. وهناك بعض الاختلاف في المصادر حول عدد،توالي، وتواريخ الغزوات الأولى، لكنها كلها على العموم تتفق بأن تلك الغزوات جميعاً استهدفت اعتراض قوافل مكية تجارية دون نجاح كبير(١٢). فالرسول وصحبه جنوا القليل من الغنائم والكثير من المشاكل عندما اعترضوا بعض المكيين في نخلة، وهم في طريقهم عودة من الطائف في الشهر الحرام(١٣).

والسمات البارزة لهذه المغازي المبكرة هي: قلة عدد المشاركين فيها نسبياً، غياب المدينيين الكامل عنها، فشل تلك الغزوات في تحقيق مكاسب مادية وفيرة. والإخفاق النسبي لهذه الغزوات ليس مفاجئاً، أخذاً بالاعتبار العدد القليل من المهاجرين الأولين الأوفياء للفكرة، طبيعة العهد الذي قطعه الأنصار للرسول، وإدارة المكيين البارعة لحركة القوافل. ففي حالة تلو أخرى، تذكر المصادر قوافل

مشحونة بالرجال، قادرة على الدفاع عن نفسها، وبقيادة بارعة، استطاعت أن تراوغ المسلمين وتمر بسلام[١٤]. إلاَّ أن بعض هذه الغزوات الصغيرة تمخض عن نتائج هامة، حيث استطاع الرسول من خلالها أن يعقد معاهدات عدم اعتداء (موادعة) مع عدد من القبائل على طريق التجارة، وضمن بذلك محيطاً أقلَّ عداءً لنشاطه على هذاالصعيد[١٥].

المرحلة الثانية:

لقد بدأت المرحلة الثانية من صراع الرسول مع المكيين في وقعة بدر، في شهر رمضان من عام ٢هـ (آذار/مارس ٦٢٤). فالرسول، وعدد كبير من أصحابه، بمن فيهم الأنصار، قد صعَّدوا من نشاطهم في محاولة لاعتراض قافلة مكية كبيرة في طريق عودتها من سوريا[١٦]. ومن جانبهم، أصبح المكيون قلقين على مستقبل تجارتهم، وقرروا وضع حد لوجود المسلمين المزعج. وبقيادة الداهية أبي سفيان، استطاعت القافلة أن تضلل كمين المسلمين، مرة أخرى. لكن المكيين جاؤوا يحملون سلاحهم لإنقاذ أموالهم، استجابة لطلب أبي سفيان النجدة. ولما رأوا قلة عدد المسلمين أيقنوا أن اللحظة مناسبة لتلقينهم درساً وبذلك يحافظون على هيبتهم بين قبائل العرب[١٧]. واصطف الجانبان للمعركة، وأصاب المسلمون نصراً حاسماً على المكيين، الذين تقول الروايات بأنهم كانوا ثلاثة أضعاف المسلمين عدداً.

وقد رأى المسلمون أن يد الله كانت وراء هذا النصر. وفي القرآن الكريم، كما في الحديث الشريف، ترد قصة جبريل، على رأس جيش

من الملائكة، يقاتل إلى جانب المسلمين[١٨]. وفي هذه الغزوة، شارك عدد قليل من المدينيين فقط. إلا أنه بدون هذه المشاركة ماكان التفكير بها وارداً، فمع قلتهم قياساً بأهل المدينة، كانوا الغالبية في جيش المسلمين. والعديد من اولئك الذين أصبحوا لاحقاً من أتباع الرسول المخلصين تخلفوا عن الغزوة وبقوا في المدينة[١٩]. وبحسب المصادر التقليدية، تذرع الذين لم يشاركوا بأنهم لم يتوقعوا نشوب قتال؛ لقد اعتقدوا أن المسألة لاتتجاوز كونها كميناً لقافلة[٢٠]. إلا أن هذه المصادر نفسها تؤكد شك الرسول قبل المعركة في رغبة الحاضرين من الأنصار الانضمام إليه في حربه ضد المكيين. وتفيد المصادر بأن الأنصار طمأنوا الرسول بأنهم لن يتخلوا عنه في هذه اللحظة. وإزاء إغراء المشاركة في هذه الغزوة الواعدة، بينما لايتوقع نشوب قتال يذكر[٢٢]، وجد الأنصار أنفسهم في موقف حرج من اتخاذ قرار خطير: فإما أن يحاربوا ويستجرّوا عداء المكيين، وإما أن ينسحبوا ويعرضوا كرامتهم للطعن. فعمدوا إلى الخيار الأول.

وبذلك، وجد الأنصار أنفسهم في قلب الصراع دون رجعة، وربما في غفلة منهم. فلقد قتل وأسر الكثير من المكيين، وقبيلتهم قريش كانت، كما هو العرف، ملزمة بالثأر لدمهم. وعند هذه النقطة، لم يعد باستطاعة المدينيين أن يغسلوا أيديهم من المسؤولية تجاه المكيين، الذين أصبح المدينيون في نظرهم طرفاً كاملاً في الصراع. وفوق ذلك، فبتعاونهم مع الرسول في نشاطه ضد مكة، أفرغ المدينيون عهدهم للرسول من مضمونه الدفاعي. وعمل القلة في وقعة بدر أصبح في العرف العربي مسؤولية جماعية لسكان المدينة كلهم.وبالمقابل، أصبحت المدينة بمجملها هدفاً للثأر المكي، ولم

يبق لها من خيار إلاَّ القتال دفاعاً عن النفس. وبالنسبة إلى الرسول، الذي استمد تشجيعاً من النصر في بدر، فقد التفت إلى تعزيز موقعه في المدينة إعداداً للجولة الثالثة من القتال مع مكة، التي كانت لابد آتية.

بعد هذه الهزيمة النكراء في بدر، ونظراً لأنهم لم يروا نهاية للخطر الذي يتربص بقوافلهم، بدأ المكيون فور عودتهم من المعركة بتحشيد طاقاتهم ومواردهم لردِّ الضيم الذي أحاق بهم واستعادة هيبتهم. وسريعاً مابدؤوا بتهيئة حملة عسكرية ضد المدينة، بتمويل من أرباح القافلة التي أنقذت في بدر[٢٣]. وفي آذار/ مارس من عام ٦٢٥م، بمرور سنة على النكسة في بدر، تحركت الحملة من مكة، وبعد عدة أيام وصلت إلى المدينة، وعسكرت بالقرب من جبل أُحُد. وفي أُحد، حقق المكيون فوزاً: إذ هُزم المسلمون، وقتل عدد من قادتهم، كما جرح الرسول نفسه. وبهذا ثأرت قريش لقتلاها في بدر، أثبتت بسالتها، وأنقذت سمعتها بين القبائل العربية.

وفي وقعة أُحد، قاتل بعض أهل المدينة إلى جانب المكيين[٢٤]. وثلث القادرين على حمل السلاح تقريباً التزموا ديارهم ورفضوا الدخول في المعركة مع الجيش الغازي[٢٥]. ولعل ذلك كان السبب وراء مشورة القيادة المكية بعدم غزو المدينة والإفراط في اختبار حظهم[٢٦]. ومع ذلك، وعلى الرغم من أنهم كسبوا هذه الجولة، فإن المكيين ظلوا أبعد مايكونون عن إطفاء جذوة نشاط الرسول، خاصة وأنهم لم يمسُّوا قاعدة عملياته. وعلى العكس، فبعد أُحد، صعد نشاطه لاجتذاب قبائل أخرى في محيط مكة والمدينة إلى جانبه.

وفي نفس الوقت، انهمك المكيون بنشاط في تشكيل ائتلاف - يضمهم مع عدد من القبائل القوية، وبعض القبائل اليهودية - وهذه المرة، إعداداً لغزو المدينة ذاتها. وتفيد المصادر بأن الائتلاف ضمَّ عشرة آلاف مقاتل(٢٧). وكان هدف الائتلاف المعلن التخلص من محمد وحركته، مرة وإلى الأبد. وقد وقع الغزو في آذار/مارس عام ٦٢٧م.

إلا أن الرسول في هذه المرة، وقد استخلص العبرة من وقعة أُحد، تبنى استراتيجية دفاعية. فقد استقر رأيه على البقاء في المدينة، على أن يحفر خندقاً حولها - ومن هنا جاء اسم وقعة الخندق. وفرض المؤتلفون الحصار على المدينة. لكن الخندق حال دون اجتياحها على يد القوة المتفوقة من الفرسان. وبالإضافة إلى هذه الخدعة، عمد الرسول إلى زرع الشقاق داخل الائتلاف المتعدد الانتماءات. فقدم لسيِّد قبيلة غطفان ثلث محصول المدينة من التمور رشوة له إن هو انسحب من الائتلاف، ففعل(٢٨). وكذلك دق اسفيناً من عدم الثقة بين قبيلة قريظة اليهودية وأطراف الائتلاف الأخرى(٢٩). واستمر الحصار أسبوعين، لكنه تفجر شقاقاً بين الحلفاء، وانتهت حملتهم المكلفة إلى إخفاق تام. وكان فشل المكيين في وقعة الخندق بداية لمرحلة جديدة من بروز نجم الرسول في الجزيرة. فمنذ تلك اللحظة، أصبح المكيون في موقع الدفاع والتراجع.

المرحلة الثالثة:

وقد دامت هذه المرحلة ثلاث سنين، وتميزت بالتعايش السلمي النسبي بين الأطراف المتحاربة في الحجاز، وخلالها مهدت الطريق أمام

خضوع المكيين للإسلام. ومن المعالم الرئيسية في هذه الفترة من التنافس الهادئ بين المكيين والمسلمين، كانت معاهدة السلام التي عقدت بين الطرفين في الحُدَيبية (صلح الحديبية)، في آذار/مارس ٦٢٨م، بمرور عام على وقعة الخندق.

وكان الرسول قد دعا أصحابه في المدينة، وبعض القبائل الصديقة في محيطها للزحف على مكة لأداء العُمرة. واستجاب الكثير من المدينيين، والقليل من القبائل، خشية تجدد الصراع مع المكيين[٣٠]. وعندما اقترب المسلمون من الحرم، أقسم المكيون على ألا يسمحوا لهم بدخول المدينة عنوة[٣١]. ومن جانبهم، طمأن المسلمون أهل مكة بأنهم قدموا سلماً لأداء الشعائر الدينية، والمغادرة كما جاؤوا. وإذ أحسَّ المكيون بأن حدثاً كهذا سيكون إذلالاً لهم وضاراً بهيبتهم بين العرب، فقد كانوا مستعدين لبذل كل مافي طاقتهم، بما في ذلك القتال، لمنع المسلمين من دخول المدينة. إلا أن مسار الأحداث اللاحقة من هذه الحملة يشير بوضوح إلى أن الطرفين كانا يرغبان في تحاشي القتال، إذا أمكن إيجاد حل يحفظ كرامة الطرفين. وسار سعاة السلام بين الجانبين، ونجحوا بالتوصل إلى معاهدة مقبولة عليهما، فأمضياها.

وبحسب المعاهدة المعروفة باسم "صلح الحديبية"، كان على المسلمين أن يؤجلوا أداء العمرة إلى السنة التالية، وعندها يخلي المكيون المدينة لثلاثة أيام إفساحاً في المجال أمام المسلمين لأداء شعائرهم الدينية بحرية. وبنود أخرى في المعاهدة اشترطت نبذ الأعمال العدائية لمدة عشر سنوات؛حرية الأفراد والمجموعات الأخرى

بالدخول في تحالف مع أي من الطرفين يريد؛ تسليم أي مكيٍّ يلتحق بالمسلمين دون موافقة مولاه(٣٢).

وفي ضوء سياسة الرسول البعيدة المدى، كانت المعاهدة نصراً دبلوماسياً. فقد كانت تخدم استراتيجيته بأخذ مكة دون إراقة دماء، وبالتالي جعلها محور الدعوة إلى الإسلام. وبتوقيعه المعاهدة، كرس الرسول حق المسلمين بالحج إلى الحرم على قدم المساواة مع غيرهم. وكذلك، فعلى الصعيد السياسي، فقد أصبح، وباعتراف المكيين أنفسهم، ندّاً لهم في الحجاز. وفوق ذلك، فقد عززت المعاهدة موقعه بين أتباعه. وبينما شروط المعاهدة، التي بدت للكثيرين من أصحابه مجحفة بالمسلمين، وبالتالي، تسببت بخيبة أمل واسعة الانتشار، ولو مؤقتاً، في أوساطهم، فقد تمكن الرسول من تحويل هذه الموجة العاطفية إلى ميزة. ففي هذه اللحظة الحرجة، وضع الرسول أتباعه في الاختبار، وأخذ منهم قسم الولاء- "بيعة الرضوان"(٣٣).

المرحلة الرابعة:

في هذه المرحلة الأخيرة من نضال الرسول ضد المكيين، توجت جهوده بخضوعهم له. لقد انتهكوا المعاهدة بمساعدة حلفائهم من بني بكر، ضد بني خزاعة حلفاء الرسول. وكانت القبيلتان في عداء دامٍ بينهما، قبل ظهور الإسلام بفترة طويلة. وقد انتهزت كل منهما فرصة صلح الحديبية للتحالف مع أحد الطرفين المتنافسين(٣٤). واستشعر المكيون إشكالاً مع الرسول، فأوفدوا أبا سفيان إليه لتجديد المعاهدة(٣٥). إلا أنه كانت لدى الرسول خطة أخرى. فحينئذ، بعد سنتين على المعاهدة، كانت قوة الرسول قد تعاظمت إلى حد لم يكن

المكيون معه يشكلون نداً له. لقد آن أوان الزحف على مكة وفتحها. وكانت اللحظة ملائمة؛ فقد طلب منه حلفاؤه النجدة، ففعل. واستسلمت مكة دون مقاومة تقريباً.

بعد ثماني سنوات من المقاومة، اقتنعت الأرستقراطية المكية بعبثية صراعها مع الرسول، واستسلمت مكة للإسلام ونبيه. لقد فشلت القيادة المكية في تنظيم نفسها وتوحيد صفوفها ضد مااعتبرته العدو في المدينة. فالتركيبة الاجتماعية في مكة، سياستها الداخلية، والتنافس بين المتطلعين البارزين إلى السيادة فيها، جعلت من المستحيل على أيٍّ من تلك المجموعة أن يتولى زمام القيادة على بطون مكة المختلفة[٣٦]. وعلى هذا الصعيد، كان الوضع في مكة، في هذا الفصل من تاريخها، يشبه إلى حد بعيد الوضع في المدينة عشية مناشدتها الرسول القدوم إليها وتولي القيادة فيها. وخلال ثماني سنوات من الصراع مع الرسول، لم يستطع المكيون إنتاج ذلك النمط من القيادة اللازمة للتعامل بنجاح مع التهديد المتعاظم لتجارتهم، ديانتهم، تركيبتهم الأجتماعية، وحتى موقعهم بين العرب. لم يمتلك أحد من المكيين القوة، الهيبة، أو الحنكة السياسية، ليضاهي الرسول كقائد سياسي، ناهيك عن النبوة. وفي الحجاز، كان الرسول فقط يمتلك من القوة والتأثير مايؤهله للسيادة في المنطقة. وفي مسار تحقيق هدفه، قاتل الرسول أهل مكة بنجاح وتغلب عليهم، مثبتاً بذلك آهليته لتلك السيادة. بالمقابل، فالإحباط في معسكر المكيين، من جهة، والأداء المتميز لأصحاب الرسول، من جهة أخرى، أوصلا عدداً من قادة مكة البارزين إلى القناعة بأن من مصلحتهم الالتحاق بالمسلمين.

والخلاف بالرأي فيما يتعلق بالموقف من الرسول قد برز مبكراً،

منذ وقعة بدر، بين البطون المتنافسة في مكة. ففي بدر، أشار بعض القادة بتحاشي المواجهة مع المسلمين مادامت القافلة قد مرَّت بسلام. وبعض القبائل عادت إلى ديارها عندما علمت أن القافلة قد ضلَّلت المسلمين، وأنها سالمة في طريقها إلى مكة(٣٧). ومرة أخرى في أُحد، عَدَل المكيون عن متابعة حملتهم إلى نهاية مظفرة: بالقضاء على خصومهم في المدينة. وكذلك الأمر في وقعة الخندق، حيث الخلاف بالرأي بين المكيين وخداع حلفائهم أضاعا عليهم ثمار حملة مكلفة، وبالحقيقة، ألحقا ضرراً بالغاً بقضيتهم. واشمئزازاً من حلفائه، وحنقاً من غياب اللحمة في المعسكر المكي، قرَّر أبو سفيان، سيد بني أمية البارز، وقائد التحالف الذي حاصر المدينة، حسب الرواية، الانسحاب والعودة إلى مكة. ولعله في هذه اللحظة بالذات ـ بعد إخفاق التحالف وفشله التام في تحقيق هدفه المعلن من تدمير قاعدة الرسول والقضاء على دعوته ـ أدرك أبو سفيان عبثية استمرار الصراع مع المسلمين، وبالتالي فكر بالتفاوض مع الرسول على عقد سلمي، وباشر باتصالات سرِّية معه في محاولة لتسليم مكة إلى الرسول سلماً.

وبدون افتراض وجود اتفاق سرِّي بين الرسول ومجموعة أبي سفيان، فإن الأحداث التي أعقبت وقعة الخندق لاتجد لها تفسيراً منطقياً. وبداية، يصعب تخيل مبادرة المسلمين للقيام بالحج إلى قلب ديار عدوهم، خلال فترة قصيرة بعد الخندق، دون أن يضمنوا مسبقاً موقفاً متعاطفاً من قبل قطاع واسع نسبياً من سكان مكة.

والمصادر التقليدية تميل للتقليل من دور اولئك المكيين الذين

ساعدوا في تحقيق خضوع مكة سلماً للرسول ـ وخاصة دور أبي سفيان، سيّد عشيرة أمية النافذة. وفي نفس الوقت، تعظم المصادر دور العباس، جدُّ السلالة الحاكمة التي في أيامها كتبت. وعلى الرغم من الروايات المنحازة في المصادر، فإنها لاتعتِّم تماماً على دور أبي سفيان الحاسم في فتح مكة.

وإذا لم يكن هناك نوع ما من الاتفاق بين الرسول وأبي سفيان، فكيف يمكن تفسير غياب هذا الأخير عن المفاوضات في صلح الحديبية؟ أو زواج الرسول اللاحق من ابنته؟ أو حقيقة أنه كان صانع السلام عندما انتهكت المعاهدة بعد عامين تقريباً؟ فأبو سفيان كان في مكة أثناء المفاوضات على صلح الحديبية، لكنه لم يشارك بها؛ وعثمان بن عفان، الذي أوفده الرسول للتفاوض مع المكيين على دخول المسلمين سلماً إلى الحرم، كان مقيماً في دار أبي سفيان[٣٨]. وعثمان، الأموي، اختير كمفاوض مع المكيين بسبب انتمائه إلى هذه العشيرة النافذة. وقد وفرت له عشيرته الحماية وامتنعت عن القيام بأي عمل عدائي ضد المسلمين[٣٩]. وفوق ذلك، فالرسول تزوج ابنة أبي سفيان، أم حبيبة، خلال فترة قصيرة بعد صلح الحديبية[٤٠]. وعندما انتهكت المعاهدة، كان أبو سفيان الوسيط بين المكيين والمسلمين[٤١]. ويذكر أنه ذهب إلى المدينة للتفاوض عل تجديد معاهدة السلم، وأنه التقى الرسول في مرِّ الظهران، وأسلم قبل دخول جيش المسلمين مكة. وقد أكرم الرسول عدوه القديم بإعلان داره جواراً آمناً[٤٢]. ودخل أبو سفيان بصحبة الرسول وجيش المسلمين إلى مكة كحليف يحظى بتقدير عالٍ، وليس كعدو مهزوم وضيع. وبذلك، انقذ المدينة من النهب وسفك الدماء[٤٣]، وحوَّل سلاح

المسلمين ضدَّ هوازن، القبيلة القوية والمعادية للمسلمين وقريش، على حد سواء، والتي تقيم في محيط الطائف[٤٤]. ويستبعد جدّاً وقوع كل هذه الأحداث المتعلقة بأبي سفيان صدفة.

ولقد قدَّر الرسول خدمات أبي سفيان وجماعته. وبعد استسلام مكة، عامل الرسول هذا الزعيم القرشي البارز باحترام كبير. وأكرم المسلمون جوار أبي سفيان، ولم يتعرضوا بأذى لأهالي مكة. وبعد أن ضم المكيين إلى صفوف الإسلام، كان الرسول يتوق لإرضائهم بحيث أثار غضب المهاجرين الأوليين والأنصار[٤٥]. وقد أعطى قادة قريش هدايا نفيسة من غنائم معركة حنين ضد هوازن[٤٦]. وفي السنوات الأخيرة من حياة الرسول، كانت غالبية عماله من الأرستقراطية المكية[٤٧].

ومكة "البيت الحرام" وقريش "اللقاح"، كانتا ذخراً كبيراً للرسول ودعوته، كما كان هو ودعوته بالنسبة إليهما. ففتح مكة عزز موقع المسلمين في الجزيرة[٤٨]، كما أثبت فائدته للمكيين أيضاً. فبالتحاقهم بمعسكر المسلمين، هيمن القرشيون البارعون على شؤون الجماعة المسلمة سريعاً. لقد عرف الرسول كيف يوظف مهارات المكيين ومواهبهم في خدمة دعوته؛ ومن جانبهم، بالمقابل، تعلموا سريعاً الإفادة من حركته. فالرسول كصاحب دعوة دينية أولاً وقبل كل شيء، وهم، كمجتمع تجاري في المقام الأول، جمعتهما المصلحة المشتركة بالتوسع خارج حدود الجزيرة، فحشدا طاقاتهما لتحقيق ذلك الهدف.

فمباشرة بعد استسلام مكة، وربما بمبادرة من قادتها[٤٩]، هاجم

الرسول مركز القوة الثالث والأخير في الحجاز(٥٠). والمكيون الذين اعتنقوا الأسلام لتوهم، شاركوا في الحملة ضد الطائف وجوارها، وأسهموا كثيراً في نجاحها، كما أفادوا من النصر على هوازن(٥١).ومعركة حنين، ضد هوازن القوية، كانت الإنجاز الأول، المشترك والناجح، للرسول وحلفائه الجدد من المكيين؛ وكانت المؤشر لبداية الفتوح العربية.

وبانضواء المدن الرئيسية الثلاث في الحجاز تحت لواء الإسلام ورسوله فقدت القبائل البدوية في جوار هذه المراكز حرِّيتهاوقدرتها على المناورة. لقد كانت تكمن بانتظار مايسفر عنه الصراع بين الرسول ومكة، ولما استسلمت الأخيرة، فقد اقتفت القبائل أثرها(٥٢). "وروى الزبير بن بكار، عن طريق اسحق بن يحيى، عن أبي الهيثم، عمن أخبره أنه سمع أبا سفيان بن حرب يمازح رسول الله في بيت بنته أم حبيبة ويقول: والله إن هو إلا تركتك فتركتك العرب، إن انتطحت فيك جمَّاء ولاذات قرن، ورسول الله يضحك ويقول، أنت تقول ذلك ياأبا حنظلة"(٥٣). لقد التحقت قبائل الحجاز البدوية بدولة الإسلام، وحدَّدت مصالحها مع تلك الدولة إلى حدٍّ أنه لم يسجل لتلك القبائل تاريخ خاص بمعزل عن دولة المدينة(٥٤). وقد بقيت هذه القبائل على ولائها للخليفة أبي بكر، ووفرت للجيش المسلم كتائب من المقاتلين، أسهمت كثيراً في فتح ماتبقى من الجزيرة(٥٥).

وكسيد على الحجاز، تمتع الرسول بقوة لايضاهيه بها أحد في الجزيرة العربية في حينه. وهذه القوة، كما الهيبة، حفزتا العديد من زعماء القبائل لطلب العون منه في صراعاتهم مع منافسين محليين، أو

مجاورين[٥٦]. ولكن كسب المكيين إلى جانبه، وبالتالي استسلام الحجاز كان الإنجاز السياسي الأهم للرسول في حياته. وفتح بقية الجزيرة، وكذلك الهلال الخصيب، كان بالأساس من صنع المكيين. لقد قادوا العرب إلى النصر على البيزنطيين، كما على الفرس.

٢ ـ نجد:

في المنطقة الممتدة إلى الشرق من المدينة، كانت عدة مجموعات من القبائل أهمها بنو حنيفة. وإلى الشمال الشرقي كانت تجمعات غطفان، طيّئ وأسد. وفيما وراء ذلك كانت تميم.

أ) بنو حنيفة:

في حياته، لم يبسط الرسول سلطته على بني حنيفة. وهذه القبيلة، التي كان مركزها في اليمامة، كانت الأقوى والأهم بما لايقاس في المنطقة. وحوالي أيام الرسول، كان هوذة بن علي سيد القبيلة، وعامل الفرس المحلي في اليمامة. وهوذة، أسوة بكثيرين آخرين من زعماء القبائل العربية، حمل لقب "ملك"[٥٧]، وهو، كما يبدو، اللقب الذي استعمله العرب للإشارة إلى الزعماء الذين عينهم الفرس أو البيزنطيون في الإمارات الحدودية على أطراف امبراطوريتيهم. وبحسب قصيدة للأعشى، عرف هوذة بكنية "ذي التاج"[٥٨]، وكان يقوم على القافلة الملكية السنوية ـ اللطيمة ـ بين فارس واليمن[٥٩].

وتتحدث المصادر عن مفاوضات بين الرسول وهوذة.. كما يرد ذكر هذا الأخير بين أسماء "الملوك" الستة الذين بعث إليهم الرسول

كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام[٦٠]. ولكن تلك المصادر لاتتفق على تاريخ هذه المراسلة. فبعضها يضعها في عام ٦هـ، والآخر في عام ٧هـ، وبعضها يمتنع عن ذكر تاريخ محدد. والعام ٦هـ كتاريخ لإرسال هذه الكتب، يبدو أن أصله عند الواقدي. بينما ابن اسحق يضعه بين الحديبية - عام٦هـ - ووفاة الرسول - عام١١هـ. وأولئك الذين يضعونه في العام ٧هـ، يبدو أنهم حسبوا أن المراسلة حصلت بعد الحديبية وقبل وفاة هوذة في العام ٨هـ. إلا أنه ليس بين المصادر من يضعها قبل الحديبية، ويمكن الافتراض أنها حصلت خلال فترة قصيرة بعد معاهدة السلام مع المكيين. وهذا الافتراض معقول تماماً وينسجم مع سياسة الرسول. فبعد أن اطمأن إلى التعايش السلمي مع المكيين، توجه إلى نواح أخرى من الجزيرة، وحاول أن يضمها إلى مناطق نفوذه.

ولم يكن ردُّ هوذة على جسِّ النبض الذي قام به الرسول مرضياً قط، والروايات حول شروط هوذة ووعوده تختلف من مصدر إلى آخر، لكنها تتفق جميعاًعلى أن الرسول رفض ماتقدم به هوذة. وفي إحدى الروايات، اشترط هوذة أن يشارك الرسول الحكم في الجزيرة،[٦٢] بينما في أخرى، طلب منه أن يعينه خلفاً له[٦٣]. والرواية الأولى هي الأكثر إمكانية بسبب تقدم هوذة في السن.

والفقرة الثانية في جواب هوذة تثير الاهتمام، ولعلها تلقي ضوءاً على فحوى كتاب الرسول إليه. فالمصادر يكتنفها الغموض حول مضمون الكتاب. وغالبيتها لاتقول كثيراً وتكتفي بالتصريح العام أن الرسول دعا بني حنيفة إلى الإسلام[٦٤]. وبالمقارنة مع كتب أخرى

واردة في المصادر، حيث الرسول يتوخى التحديد في التزامات المعني[٦٥]، يبدو أن الكتاب إلى هوذة لقي بعض التحريف، ربما عن قصد، لتشويه سمعة بني حنيفة. ومهما يكن، فهناك صيغتان مختلفتان للفقرة الثانية من جواب هوذة في المصادر. وتلك التي أساسها في أعمال الواقدي تقدم الصيغة البسيطة: إذا استجاب الرسول لمطالب هوذة، تبعه[٦٦]. لكن البلاذري يورد مايلي: إذا أوصى الرسول بالخلافة إلى هوذة من بعده، سار إليه هذا الأخير و"نصره"[٦٧]. ويتفق ابن الأثير مع البلاذري ويضيف: وإلا فإن هوذة "قصد حربه"[٦٨]. وإذا قبلنا صيغة ابن الأثير، واجهتنا إجابة من نمط "فأما....وإلا". وهذا يشير إلى أن هوذة قد أصبح قلقاً من الوضع في الحجاز، ولعله شعر بالتهديد جرّاء تصاعد قوة الرسول. وبالمقابل، إذا قبلنا صيغة البلاذري، يمكننا الافتراض أن الرسول سعى إلى تحالف "مناصرة"[٦٩] مع هوذة، وتقدم هذا الأخير بشروطه لمثل هكذا تحالف. وهذا يدعم النتائج التي توصل إليها أحد كتاب سيرة الرسول حديثاً حول علاقاته مع القبائل القوية والبعيدة في الجزيرة[٧٠]. أما صيغة الواقدي فيبدو أنها متأثرة بدوافع دينية.

ورواية البلاذري توفر إجابة على مسألة أخرى، قضية وفد بني حنيفة إلى المدينة. فهناك من يرى أن الوفد قدم على الرسول بمحض إرادته، وفقط بعد موت هوذة[٧١]. وبحسب البلاذري، قدم الوفد فور تسلمه كتاب الرسول[٧٢]، وهذا يعني أن هوذة كان لايزال حيّاً. وابن الأثير أكثر تحديداً؛ حيث يؤكد أن هوذة هو الذي أرسل الوفد[٧٣].

وغالبية المصادر التقليدية تذكر مسيلمة كعضو في وفد بني حنيفة[٧٤]، إلا أن ابن الأثير لايفعل ذلك[٧٥]. أما البلاذري فيضمه وينسب إليه مطالب هوذة إياها[٧٦]. وفي ظل الظروف القائمة، يصعب قبول الافتراض بأن مسيلمة لم يكن عضواً في الوفد[٧٧]. وبنفس الدرجة من الصعوبة، قبول الرأي القائل بأن القصة كلها ملفقة وترمي إلى الانتقاص من سمعة بني حنيفة وقادتهم[٧٨]. فبالإمكان إهمال بعض التفاصيل التي من الواضح أنها تعليقات أضافها القصّاص بهدف التقليل من شأن مسيلمة. إلا أن رواية البلاذري على العموم، تمكن من الافتراض بأن الرسول أرسل كتاباً إلى هوذة، يقترح عليه تحالفاً من نمط "المناصرة". وعليه، أرسل هوذة وفداً من وجوه بني حنيفة البارزين للتفاوض مع الرسول. إلا أن مطالبهم لم تكن مقبولة عليه، وبالتالي لم يتوصل الطرفان إلى اتفاق.

ولما مات هوذة بعد فترة قصيرة من المكاتبة مع الرسول، خلفه في منصبه مسيلمة، الذي كما يبدو لم يكن يحظى بهيبة سلفه ودعم الفرس له. وبطن صغير من بني حنيفة، لعله بدوي، ناصبه العداء ومال نحو الرسول[٧٩]. وهذا البطن، بقيادة ثمامة بن أثال، لعب دوراً مفيداً إلى جانب المسلمين أثناء الردّة.

والروايات تتحدث عن اتصالات أخرى بين الرسول ومسيلمة. وهناك من الأدلة مايكفي للتشكيك في القصص الواردة في المصادر عن مسيلمة؛ ولكن، حتى لو قبلت تلك الروايات كما هي، فإنها لاتذكر أيَّ اتفاق معقود بن الجانبين. بل على العكس، جميع الدلائل تشير إلى أن مسيلمة، تدعمه الغالبية العظمى من بني حنيفة، أعلن

معارضته للرسول قبل وفاته. وليس هناك من أدلة إلى أن جزءاً من بني حنيفة أدّى، أو وافق على أداء الزكاة إلى المدينة. وكذلك، فلا يرد قط ذكر لرجل من بني حنيفة يشارك في مغازي الرسول؛ ولم يكن له نفوذ في هذه القبيلة.

ب -القبائل إلى الشمال الشرقي من المدينة:

في حينه، كانت المنطقة الواقعة مباشرة إلى الشمال الشرقي من المدينة مأهولة بخليط من القبائل البدوية - أسد، طيِّئ،وغطفان - التي لم يكرس الرسول نفوذه عليها في حياته(٨٠).

والسمة الأكثر بروزاً للوضع في تلك المنطقة كانت تفتت القبائل إلى بطون صغيرة، والتحالفات المعقدة فيما بينها(٨١). وحوالي أيام الرسول، لانجد بين هذه القبائل سيِّداً بمنزلة هوذة. وقد كانت خارج مناطق النفوذ البيزنطية أو الفارسية، كما استشرت بينها العداوات، بسبب المعارك الدامية التي دارت رحاها بين القبائل المختلفة(٨٢). وهذه العداوات كانت عاملاً رئيسياً في سلوكها إزاء الرسول ودعوته(٨٣).

والقبيلة التي يرد ذكرها أكثر من سواها في هذه المجموعة، وذلك بالنسبة إلى علاقتها بالرسول، هي فزارةـفرع من غطفان. ويبدو أنها كانت الأكبر والأقوى في محيطها. وسيدها، عُيينة بن حصن، حارب إلى جانب الرسول وضده. ففي حصار المدينة، كان متحالفاً مع المكيين(٨٤). وفي فتح مكة ووقعة حنين كان تحالفه مع المسلمين. وعيينة هو أحد أولئك الذين يتردد اسمه كثيراً بين "المؤلفة قلوبهم"(٨٥). وليس هناك ثبت لاعتناقه الإسلام في حياة الرسول، إلا

عند ابن عبد البر، الذي يقول أن عيينة اعتنق الإسلام بعد فتح مكة[٨٦]. وعلاقته مع الرسول تشير إلى استعداده، وقبيلته، للمشاركة في أية معركة واعدة بالغنائم. وسلوكه في وقعة الخندق، حنين، وكذلك خيبر،[٨٧] يناسب سيِّداً مستقلاً، حيث تطغى عليه المصلحة الذاتية. وكان يساوم حلفاءه على نصيبه مسبقاً، وبعد المعركة يعود مع محاربيه إلى دياره، محتفظاً بحريته في العمل، وهو الأمر النموذج في "المناصرة". وبعد حنين، لايرد ذكر عيينة إلا بعد وفاة الرسول. ولعل مكانته تضعضعت كثيراً خلال العامين الأخيرين من حياة الرسول. ووفد فزارة إلى المدينة، وصل بدون عيينة[٨٨]. ويبدو أن الرسول نجح في استمالة بعض سادة تلك القبيلة إلى جانبه، مما أضعف موقف عيينة وحيَّده؛ ولكنه لم يكسبه.

لقد اقتربت قبيلة طيِّئ من الرسول بسبب صراعاتها مع جارتيها، فزارة وأسد[٨٩]. وكتب الرسول إلى بطون طيِّئ المختلفة تحمل نبرة كهذه، حيث يعرض دعمه لهم ضد جيرانهم، وخاصة من أسد[٩٠]. أما في أسد، فأقلية صغيرة، معادية لطلحة، زعيم هذه القبيلة الأبرز، مالت نحو الرسول[٩١]. وكان ضرار ابن الأزور الذي اعتنق الإسلام مبكراً، يقود هذه الأقلية. ومع ذلك، فعندما وصل خبر وفاة الرسول، تحولت أسد كلها إلى جانب طلحة؛ وكذلك فعلت غالبية طيِّئ[٩٢].

وفيما يتعلق بنفوذ الرسول في هذه المنطقة، يبدو أن الرسول توفي قبل استكمال السيطرة عليها. وخلال العامين ٨و٩ للهجرة، انخرط بدرجة أعلى في الصراعات بين قادة القبائل هناك. وبذلك، انحازت إليه بطون، لعلها كبيرة، طالبة التحالف معه، إلا أن هذه العلاقة لم

تصل إلى درجة الاستقرار. والأكيد أن قوة الرسول المتصاعدة في الحجاز لم تترك خيارات كثيرة أمام القبائل الضعيفة إلى الشمال الشرقي من المدينة دون الانحياز إليه. لقد كانت تندفع تدريجياً نحو المدينة، ولكن على مضض، كما يبدو. ولذلك، انتهزت فرصة وفاة الرسول لإعادة العجلة إلى الوراء.

جـ - تميم:

لقد انتشرت قبيلة تميم في المنطقة الواقعة بين اليمامة والحيرة(٩٣). وفي هذه المرحلة من تاريخها، كانت القبيلة منقسمة على نفسها إلى بطون صغيرة، بزعامة قادة متنافسين ومتناحرين(٩٤). ويبدو أن هذه المشاحنات بين اولئك القادة، وليس الغارة التأديبية التي قام بها عيينة بن حصن على بطن صغير من القبيلة، هي التي دفعت تميم لإرسال وفد إلى المدينة عام ٩ هـ، والنظر في الفوائد التي تجنيها من التحالف مع الرسول. وكان طبيعياً، في ظل الظروف التي تعيشها القبيلة، أنه عندما أرسل بطن معين وفداً إلى المدينة، تبعته البطون الأخرى، قطعاً للطريق عليه من اكتساب ميزات عبر التحالف مع الرسول. وكذلك، فإن نشاط المدينة العسكري شكل إغراءً لبعض قادة تميم. وبالمحصلة، فإن انحياز بعض بطون تميم إلى المدينة شجع البطون الأخرى على سلوك نفس السبيل. إلا أن القبيلة لم تعلن اعتناقها الإسلام فعلاً في حياة الرسول(٩٦).

****

وبناءاً على ماتقدم، يمكن الاستخلاص أنه في نجد - المنطقة الواقع إلى الشرق والشمال الشرقي من المدينة- لم يكن نفوذ الرسول قد

تكرس تماماً قبل وفاته. فالقبائل الصغيرة المتشاحنة لم تجد مناصاً من الانحياز إلى المدينة. لقد كانت تندفع نحو الرسول دون استخدام القوة معها. وإذ كانت الصراعات بينها عاملاً هاماً في سلوكها تجاه المدينة، فإن بعدها النسبي عن مقر السلطة الجديدة في الجزيرة، أتاح لها درجة أعلى من القدرة على المناورة مقارنة بالقبائل في الحجاز.وكذلك، فإن الدوافع وراء انحياز بعض تلك القبائل إلى المدينة تفسر ولاءها المتأرجح للرسول. لم تكن للمدينة سيطرة مباشرة على تلك القبائل، وظل زعماؤها يديرون شؤونها. وجاءت وفاة الرسول، وماترتب عليها من خلافات داخل الجماعة الإسلامية حول الخلافة، ليشجعا تلك القبائل على الانكفاء عما توصلت إليه من علاقات مع المدينة.

٣ ـ المناطق الساحلية:

المناطق الساحلية من الجزيرة العربية ـ البحرين،عمان،واليمن ـ كانت منذ فترة طويلة تحت حكم الفرس[٩٧]. ففي البحرين وعمان، حكم القبائل العربية سادة محليون، باسم ملك فارس[٩٨]. أما في اليمن، فإن "الأبناء" الفرس، الذين ولدوا في اليمن لآباء فارسيين وأمهات عربيات، شكلوا الطبقة الحاكمة[٩٩]. وطالما ظلت الإمبراطورية الفارسية قوية وتدعم عمالها في هذه المناطق، لم تجرؤ القبائل على تحدِّي سلطتهم؛ لكن الحروب بين البيزنطيين والفرس، وهزيمة الفرس فيها، أصابت هيبة هؤلاء "الملوك"، وحرمتهم من مصدر قوتهم. وعليه، ثارت القبائل عليهم، سعياً للاستقلال عنهم. وقد تكون الضرائب الجديدة التي فرضها الفرس على القبائل جرَّاء

تكاليف الحرب مع بيزنطة هي الحافز لثورتها على اولئك "الملوك".

وفي حينه، كانت في البحرين ثلاث قبائل عربية: عبد القيس، بكر بن وائل، وجزء من تميم. وبالإضافة إلى هؤلاء، عاش في البحرين بعض الفرس واليهود(١٠٠). وكان يحكم العرب هناك المنذر بن ساوى، الذي ينتمي في الغالب إلى تميم(١٠١). وفي المصادر، يرد اسمه عادة بين "الملوك" الستة الذين كتب إليهم الرسول بعد الحديبية. وتضيف المصادر أنه، وكل العرب في البحرين، اعتنقوا الإسلام، وأن العلاء بن الحضرمي كان عامل الرسول في البحرين لجمع الزكاة(١٠٢).

وفي عمان، سادت قبيلة الأزد، وعليها "ملك" منها. وفي أيام الرسول، حكم عمان ابنا الجُلَندى من بني المُستَكِر(١٠٣). وبحسب المصادر التقليدية، أوفد الرسول عمرو بن العاص، في عام ٨هـ، ليدعو الأزد إلى الإسلام، فاستجابوا، وبقي عمرو هناك ليجمع الزكاة(١٠٤).

في هذه الأثناء، كان حكم "الأبناء" في اليمن محصوراً في صنعاء. وبين العدد الكبير من القبائل في اليمن وحضرموت، لانجد قائداً بارزاً، حتى بمنزلة عيينة في فزارة(١٠٥). والمصادر تورد قائمة طويلة من الوفود التي قدمت من اليمن إلى المدينة؛ أعلنت إسلامها، وأوفد الرسول إليها مبعوثين يعلمونها القرآن ويجبون منها الزكاة(١٠٦). كما تفيد تلك المصادر أن رأس الأبناء كان أول من اعتنق الإسلام، فثبته الرسول في ولايته(١٠٧).

المنذر بن ساوى في البحرين، جيفر وعبّاد، ابنا الجلندى، في عمان، والأبناء في اليمن، جميعهم واجهوا نفس المشكلة. لقد فقدوا

القوة والهيبة، نتيجة لغياب الدعم الذي يتلقونه من السيد القديم المرتبك، فارس. وقام سادة محليون منافسون، لعلهم امتلكوا قوة أكبر - مثل، الحُطم في البحرين، لقيط في عمان، والأسود في اليمن - يتحدون سلطان عمال الفرس. وهؤلاء العمال، الذين وجدوا أنفسهم في ورطة، توجهوا نحو المدينة، لعلهم يجدون في التحالف معها مخرجاً بديلاً لفارس. لقد كانوا يبحثون عن سند خارجي للحفاظ على مواقعهم، والغالب أنهم بادروا من تلقاء أنفسهم للاتصال بالرسول(١٠٨). ولأن فارس لم تستطع تقديم الدعم الحيوي لهؤلاء العمال، فقد رأوا بالعلاقة مع المدينة سنداً لهم. وفي حياته، لم يبعث الرسول جيوشاً إلى تلك المناطق؛ واكتفى بإيفاد عدد قليل من العمال، رمزاً لدعمه وتأييده لمناصريه.

ولايستبعد أن يكون هؤلاء "الملوك" قد وجدوا من الأفضل لهم تحويل "الأتاوة" التي كانوا يدفعونها للشاه الفارسي إلى المدينة(١٠٩). إلا أنه يشك فيما إذا كانت أيٌّ من هذه المناطق، عدا نجران المسيحية، دفعت ضريبة ما للمدينة في حياة الرسول. والسرعة التي غادر بها عمال المدينة هذه المناطق فور ورود نبأ وفاة الرسول، واندلاع الثورة ضد حلفائهم، تشير إلى ضعف هؤلاء، وبالتالي عجزهم عن الصمود في وجه انتفاضة القبائل. فعندما عقد هؤلاء "الملوك" اتفاقات مع الرسول، كانوا قد فقدوا السيطرة على مناطقهم ، كما تبرهن على ذلك الأحداث خلال ما أُسمي "حروب الردّة" في تلك المناطق. وفي الواقع، فإنه في كل واحدة من هذه المناطق، كان الطرف المتحالف مع المدينة في موقع الدفاع، بينما كانت غالبية القبائل الساحقة إلى جانب "المتمردين". وفي ظل هذه الأوضاع، يصعب التأكيد بأن

تلك المناطق كانت تحت نفوذ المدينة في حياة الرسول.

٤ - الشمال:

بعد فتح مكة واستسلام الحجاز، استحوذ الشمال[١١١] والطريق المؤدية إلى الصحراء السورية على اهتمام الرسول[١١٢]. والجزيرة، خارج الحجاز، لم تكن تشغل باله كثيراً. ولعله كان على ثقة من أنها ستخضع لسلطة المدينة دون قتال، إذا استمر الصراع بين القبائل وبينما لم يرسل جيشاً إلى اليمن أو اليمامة (حتى بعد أن وصلته أخبار "تمرد" الأسود ومسيلمة في كل من هاتين المنطقتين على التوالي)، فقد سار الرسول بنفسه على رأس أكبر غزوة جهزها في حياته إلى تبوك.

فمنذ الحديبية، ركز الرسول نشاطه العسكري الرئيسي في الشمال، على الطريق إلى سوريا. ففي عام ٧هـ (٦٢٨م)، غزا خيبر وفتحها. وعلى الفور بعد سقوط خيبر، استسلمت الواحات اليهودية الأخرى - فَدَك، ووادي القرى، وتيماء - على نفس الشروط التي منحت لخيبر[١١٣]. وفي العام ٨هـ، سيَّر الرسول غزوة إلى مؤتا بقيادة زيد بن حارثة. وهذه الغزوة لم تحقق نجاحاً يذكر. وفيها قتل زيد واثنين آخرين من المسلمين البارزين، وعاد الجيش إلى المدينة[١١٤]. كما أنفذ الرسول غزوة أخرى إلى ذات السلاسل، بقيادة عمرو بن العاص، ثم أمدَّه بسرية ضمَّت أبرز الصحابة الأولين - أبي بكر، عمر، وأبي عبيدة[١١٥]. وفي العام ٩هـ، قاد الرسول نفسه الحملة إلى تبوك[١١٦]. وقبل وفاته، كان أعد غزوة إلى سوريا، بقيادة أسامة بن زيد، وهي التي سيَّرها الخليفة أبو بكر[١١٧]. بالإضافة إلى هذه

المغازي الكبيرة نسبياً، كانت هناك أخرى أصغر منها، كالتي قادها خالد بن الوليد إلى دومة الجندل(١١٨).

بعد أشهر قليلة فقط على فتح مكة، قاد الرسول أكبر الغزوات التي يرد ذكرها في حياته: إلى تبوك. والمصادر التقليدية تتحدث بإسهاب عن الصعوبات التي لقيها الرسول في تجنيد جيش لهذه الحملة، وتزويدها بالحد الأدنى من العُدة(١١٩). وقد عرف هذا الجيش باسم "جيش العسرة"، نظراً للمصاعب التي لقيها الرسول في إعداده. وتتحدث المصادر عن معارضة للرسول، وخلاف بين المسلمين(١٢٠). إلا أنها صامتة أوغامضة حول الهدف من هذه الحملة القاسية والمكلفة، وكذلك فيما يتعلق بالأسباب التي دعت الرسول للعودة إلى المدينة، دون تحقيق أهدافها.

لاتتفق المصادر، على غموضها، حول الدوافع لهذه الحملة على حدود سوريا. فبحسب بعضها، كانت الأنباء التي وردت إلى المدينة عن غزو وشيك، يقوم به هيركليوس للجزيرة العربية، هي التي حركت هذا الرد(١٢١). إلا أن البعض الآخر، يلتزم الصمت حول نية الرسول، أو يعزوها إلى الوحي؛ وهذه الروايات مردُّها إلى الزهري، الذي لم تصلنا أعماله(١٢٢). وفي رواية مثيرة للاهتمام، نقلاً عن ابن عباس، جاء مايلي: إن الرسول قضى ستة أشهر في المدينة بعد عودته من الطائف. ثمَّ جاءَه أمر الله بغزو تبوك. وهذه هي الغزوة التي أسماها الله "ساعة العُسرة". فلقد تمّت في حرٍّ شديد، عندما انتشر "النفاق" في المدينة، وكثر "أصحاب الصُّفة"(١٢٣). والمصطلحان ـ "نفاق" و"منافقون" ـ يستعملان في المصادر للإشارة إلى "المعارضة"

و"المعارضين" للرسول في المدينة[١٢٤]. أما فيما يتعلق بـ "أصحاب الصفة" فهناك ملاحظة في النص تفيد بأنهم كانوا من فقراء المسلمين، ممن عاشوا على صدقة الرسول والمسلمين، الذين كانوا يقدمون لهم الزاد، ويحملونهم معهم في الغزوات حسنة في سبيل الله[١٢٥].

وقصة أن الحملة إلى تبوك جاءت ردّاً على نية هيركليوس غزو الجزيرة، لايمكن قبولها. فلو كانت صحيحة، لماذا إذن لم ينفذ الرسول خطته كما كانت في الاصل؟ وإذا كان المسلمون مهيَّئين في حينه لمواجهة مع الجيش البيزنطي، الأكثر عدداً وأوفر عدة، أما كان من الأجدر بالرسول أن يجرّه إلى قلب الصحراء، ويقاتله في ظروف غير مواتية له أبداً؟ والأكيد أن الرسول كان يعلم بالنصر الذي حققه هيركليوس لتوه على الفرس، وكان بالتأكيد يعي تفوق الجيش البيزنطي على مقاتليه من "جيش العسرة"[١٢٦]. ولعل الأقرب إلى المصداقية هو أن وجود هيركليوس في حمص آنئذ، هو الذي ردع المسلمين عن المغامرة والتوغل في سوريا.

أما رواية ابن عباس، التي توحي بوجود عدد كبير من الفقراء بين المسلمين، وبأن الرسول لم يملك الموارد لإعالتهم، فتكتسب مصداقية أعلى. ففي البداية كان المهاجرون قلة فأعالهم الأنصار. أما الآن، فقد انقضت ٩ سنوات؛ وعدد المسلمين الذين لايملكون شيئاً قد تضاعف كثيراً، والأنصار لم يكونوا سعداء بما آلت إليه الأوضاع في مدينتهم. وهناك الكثير من الإشارات عن تململ الأنصار من هذه الأوضاع في ديوان حسَّان بن ثابت، شاعر

الرسول[١٢٧]. وأصحاب الصفة يذكرون بالصعاليك في الجزيرة. وبحسب الأغاني، فالصعاليك مجموعات من اللصوص، التفت حول قائد من صفوفها، وعاشت على النهب[١٢٨]. وفي الواقع، فبين أتباع الرسول الأولين نجد بعض النماذج القريبة من الصعاليك، مثل عمرو بن أمية الضمري[١٢٩]. ويبدو أن هؤلاء هم الذين يسميهم ابن عباس أصحاب الصُّفة.

ورواية ابن عباس ذاتها تفيد بانتشار النفاق في المدينة. وقد برزت الظاهرة بعد فتح مكة، وماتلاه من معركة حنين. فلقد اغتاظ الأنصار من سلوك الرسول في فتح مكة. ويبدو أنهم تطلعوا إلى تصفية حسابات قديمة مع سكانها. إلا أن الرسول، ومن خلال وساطة أبي سفيان، قد أحبط آمال الأنصار[١٣٠]. والمصادر التقليدية تتحدث باستفاضة عن خيبة أمل الأنصار من معاملة الرسول المميزة تجاه المسلمين الجدد من المكيين في معركة حنين[١٣١]. لقد عاد الأنصار خالي الوفاض من حملة واعدة بالمغانم الكثيرة إلى مكة والطائف. وبالتأكيد، استغل "المنافقون" هذا الحدث ومحاباة الرسول للمكيين من أجل انتقاص أصحابه المخلصين.

إزاء هذه المشاكل المتفاقمة، قرر الرسول غزو القبائل العربية في الصحراء السورية، التي كانت، كما يبدو، الهدف الرئيسي من حملة تبوك. ولو نجحت هذه الحركة البارعة، لكانت غزوة تبوك وفرت لأصحاب الصفة حاجتهم، وعوضت الأنصار عن خيبة أملهم من فتح مكة ووقعة حنين، وأرضت قريش التي خسرت تجارتها في سنوات العداء مع المسلمين.

وقد واجه الرسول صعوبات جمة في إعداد غزوة تبوك. فموارده المالية لم تكن كافية لمساعدة أولئك الذين رغبوا بالمشاركة فيها، ولكن لاقدرة لهم على تحمل نفقاتها، وعليه حثَّ الرسول المسلمين أن يتبرعوا بسخاء إسهاماً في تمويل الحملة. والأحاديث تمجد الصحابة الميسورين، الذين استجابوا لدعوة الرسول. ويذكر أن عثمان بن عفان جهّز ثلث الجيش، الذي يقال أن عدده قارب الثلاثين ألفاً[١٣٢]. والمشاركون فيه كانوا من المدينة، مكة، والقبائل المحيطة بهما[١٣٣].

وفي تبوك تحقق الرسول من أنه بجيش قليل العدة كهذا بعيداً عن دياره، لايستطيع المجازفة بمواجهة مع البيزنطيين أو حلفائهم من العرب. وذكرى مؤتا، حيث فقد ابنه بالتبني، زيد، وابن عمه، جعفر، كانت لاتزال حيَّة في مخيلته، لم يسع الرسول تحمل كارثة أخرى. والحملة إلى تبوك، كانت، على مايدو، محاولة سابقة لأوانها لغزو سوريا. لكنها تركت أثراً ملفتاً من استعراض القوة، الأمر الذي حدا ببعض التجمعات القبلية على الحدود السورية لعقد معاهدات مع الرسول ودفع الجزية له[١٣٤]. وهذا إضافة إلى بعض التحالفات مع قبائل عربية صغيرة على الحدود، كان المدى الذي وصله نفوذ الرسول في الشمال[١٣٥]. والقبائل الكبيرة في سوريا، مثل غسَّان، بهراء، ولخم، ظلت معادية للمدينة[١٣٦].

***

ولدى عودته إلى المدينة، بدأ الرسول الإعداد لحملة أكبر وأفضل تجهيزاً.وبعد تبوك مباشرة، نلاحظ تغيراً جذرياً في سياسة الرسول تجاه

حلفائه. ففي العام نفسه، ٩ هـ، نزل عليه الوحي بفرض "الصدقة" على من طلب منه الدعم[١٣٧]، وقد تغير اسمها إلى "الزكاة" لاحقاً. ولهذا أهمية كبيرة في هذه المرحلة بالذات، في طبيعة الزكاةوأبعادها بالنسبة إلى العلاقة بين الرسول وحلفائه المحتملين.

كان ذلك في العام ٩ هـ، أي بعد سنة على فتح مكة، وفي عام فشل غزوة تبوك، وكذلك "عام الوفود". وعند هذا الحدّ كان الرسول يملك من القوة مايمكنه من فرض إرادته في الجزيرة العربية، ولكنه لايؤهله لمحاربة البيزنطيين في سوريا؛ وعليه، وعندما لاحت الفرصة الملائمة لإملاء شروطه على من سعى إلى التحالف معه، فقد التقطها لفرض الزكاة. والزكاة، كما تدل الأحداث خلال الردَّة، كان من المفترض أن تكون التزاماً سنوياً. والقبائل القريبة من المدينة، التي لم تكن لها خيارات كثيرة إزاء قوة الرسول المتصاعدة، استجابت لمطالبه، وانتظرت اللحظة المناسبة للفكاك من هذا الاتفاق.

ويورد ابن سعد قائمة بأسماء عمال الزكاة والقبائل التي أوفدوا إليها[١٣٨]. وهي تدل على أن قبائل الحجاز وشمال شرقي المدينة فحسب، كانت مطالبة بأداء الزكاة في عام ٩ هـ. إلا أنه لايرد ذكر حالة واحدة من أداء الزكاة في حياة الرسول. والتفسير الأكثر قبولاً لهذه المسألة هو أنه مع نزول الوحي بفرض الزكاة في عام ٩ هـ، فإنه لم يعمَّم على القبائل حتى نهاية ذلك العام، أثناء موسم الحج، ولدى احتشاد القبائل في الحرم بمكة. وإذا صحَّ ذلك، فإن عمال الزكاة توجهوا إلى مواقع عملهم خلال عام ١٠هـ. وقبل أن يعود هؤلاء إلى المدينة، ومعهم زكاة القبائل، توفي الرسول في بداية عام ١١هـ. وهذا

التفسير يدعمه تسلسل الأحداث في العام الأخير من حياة الرسول وبداية خلافة أبي بكر.

ففي نهاية العام ٩ هـ، قاد أبو بكر المسلمين إلى الحج[١٣٩]. وبحسب الرواية، أنزلت "سورة البراءة" على الرسول بعد أن غادر أبو بكر المدينة. فأوفد الرسول علي بن أبي طالب ليبلغ الرسالة إلى جميع من أمَّ الحرم بمكة ذلك العام، مسلماً كان أم غير ذلك[١٤٠].

وجاء في "سورة البراءة"، المعروفة أيضاً باسم "سورة التوبة"، مايلي:-

"براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين[٢] فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين[٣] وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين[٤] ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشِّر الذين كفروا بعذاب أليم[٥] إلا الذين عاهدتم من المشركين ثمَّ لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فاتمُّوا إليهم عهدهم إلى مدَّتهم إن الله يحب المتقين[٦] فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلوة وآتوا الزكوة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم"[١٤١].

وسورة البراءة، كما هو واضح، تشير إلى انعطاف حاد في سياسة الرسول تجاه غير المسلمين من العرب. فالاتفاقات القديمة التي لم تكن ملزمة ستنتهي، ولن يقبل بعدها إلا التسليم التام بسلطة الرسول. ولن يسمح بعدئذ لغير المسلمين بدخول الحرم، وسيقتلون حيثما وجدوا.

وهذا يدل أيضاً أن الرسول أصبح يشعر بأن لديه مايكفي من القوة لمواجهة القبائل بهذه المطالب. وحقيقة أنه عهد إلى أبرز أصحابه، أبي بكر، وإلى ابن عمه، على بن أبي طالب، بإبلاغ هذا الإنذار إلى القبائل، هي دليل على خطورة الأمر.

وهذا الانعطاف في سياسة الرسول، والضغط الذي مارسه على القبائل، تركاها أمام أحد خيارين: فإما الاستسلام التام لسلطته، وإما حمل السلاح ضده. وهذا مايبدو أنه وقع خلال العام التالي. فالقبائل الأضعف، التي لم تكن مؤهلة للصمود أمام الضغط، رضخت وقبلت بأداء الزكاة على مضض؛ أما القبائل الأقوى، فقد تحدَّت الإنذار واتخذت موقفاً عدائياً صريحاً من الرسول ودعوته. وفيما استمر سيل الوفود على المدينة خلال العام ١٠هـ؛ فإن الأسود في اليمن، مسيلمة في اليمامة، وطلحة في أسد، أعلنوا العداء للرسول وحلفائه ودعوته في حياته[١٤٢].

وفي عام ١٠هـ، قاد الرسول بنفسه الحج، ليؤكد كما يبدو على ماأعلنه أبو بكر في العام الفائت. وكان ذلك في "حجَّة الوداع" الشهيرة، والتي توفي الرسول بعدها ببضعة أشهر. وقبل وفاته بفترة قصيرة، أعد الرسول غزوة إلى سورية، بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة[١٤٣]. وكان في جيش أسامة، حسب الرواية، أبرز الصحابة الأولين -أبو بكر، عمر، وأبوعبيدة، وغيرهم- وكلهم بإمرة قائد لايتجاوز الثامنة عشرة من العمر[١٤٤]. وانتشر التذمر بين المسلمين على تعيين أسامة قائداً لهذه الغزوة. لكن الرسول توفي قبل مغادرة جيش أسامة المدينة[١٤٥]. وكانت لوفاته انعكاسات سلبية على

الأحداث اللاحقة في الجزيرة. وقد ظهر أثرها، ليس فقط على حملة أسامة، وأنما أيضاً على الزكاة، التي حرص الرسول على أن يراها وقد تكرست ، وأصبحت نافذة بين القبائل. ولأنه توفي قبل أن يعود عماله إلى المدينة بزكاة السنة الأولى، فقد انتهزت قبائل هذه الفرصة وامتنعت عن أدائها؛ وعليه، فقد كانت تلك هي زكاة السنة الأولى، المنتظمة والإلزامية، التي أصرَّ أبو بكر على جبايتها، وحتى بالقوة، من القبائل. وهذا ماسيجري بحثه بمزيد من التفصيل في الفصل التالي.

حواشي الفصل الأول:

١) (ملاحظة: المصادر التي يتكرر ذكرها سيجري اختصارها، وهي ترد كاملة في ثبت المراجع). ابن اسحق، ٤ ، ٢٢١ ، فما بعد؛ اليعقوبي، ٢ ، ٧٩؛ ابن سعد، ٢/١ ، ٣٨ - ٨٦؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٣٥٠ . وهناك قائمة كاملة بالوفود في حوليات كايتاني (السنتين ٩، ١٠)وكذلك في كتابه "تاريخ" للسنتين ذاتهما.

٢) بيكر، مصدر سابق، ٣٣٤ .

٣) ليون كايتاني، دراسات في تاريخ الشرق، (بالإيطالية)، ميلانو ١٩١١ - ١٩١٤ ، ٣ ، ٣٤٦ - ٣٤٩ . وانظر فيليب حتى، "تاريخ العرب" (بالإنجليزية)، لندن، ١٩٦٤ ، ١٤١؛ لويس، مصدر سابق،٤٧ .

٤) محمد حميد الله، "نبي الإسلام" (بالفرنسية)، باريس ١٩٥٩ ، ١ ، ٤٣٣ - ٤٣٤ . وانظر محمد حسين هيكل، حياة محمد، ٤٤٨٠؛ شكري فيصل، حركات الفتح الإسلامي، ١؛ محمد الخضري، تاريخ الأمم الإسلامية، ١٤٣ .

٥) عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، بيروت، ١٩٦٠ ، ٤٢ - ٤٣ .

٦) عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، القاهرة١٩٥٦ - ١٩٦٧ ، ١٤٤ - ١٤٥ .

٧) مونتعمري وات، "محمد في المدينة" (بالإنجليزية)، لندن ١٩٥٦ ، ١٤٩ . (من الآن فصاعداً يشار إليه اختصاراً وات).

٨) وات، ٢٢٨ - ٢٢٩ .

٩) وات، ٢٣١ .

١٠) حول السياسة الداخلية في المدينة، انظر وات، الفصل الخامس.

١١) حول الصراع بين الرسول والمكيين، انظر وات، الفصول: ١ ، ٢ ، ٣ .

١٢) ابن اسحق، ١ ، ٥٩١ - ٦٠١؛ الواقدي، ١ ، ٩ - ١٣؛ البلاذري، أنساب، ١ ، ٢٨٧ .

١٣) التطابق في الروايات حول نخلة يسترعي الانتباه؛ انظر ابن اسحق، ١ ، ٦٠١ - ٦٠٥؛ الواقدي، ١ ، ١٣ - ١٨ .
١٤) ابن اسحق، ١ ، ٥٩١ - ٥٩٥؛ الواقدي، ١ ، ٩ - ١٣؛ البلاذري، أنساب، ١ ، ٢٨٧ .
١٥) ابن اسحق، ١ ، ٥٩١ و٥٩٥ و٥٩٩؛ الواقدي، ١ ، ٩ و١١؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٢٨٧ .
١٦) ابن اسحق، ١ ، ٦١٥؛ الواقدي، ١ ، ٤٩؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٢٩٠ .
١٧) ابن اسحق، ١ ، ٦١٩؛ الواقدي، ١ ، ٤٤؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٢٩١ .
١٨) انظر الواقدس، ١ ، ٥٦ - ٥٧ .
١٩) ابن اسحق، ١ ، ٦٠٧؛ الواقدي، ١ ، ٢١؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٢٨٨ .
٢٠) نفس المصادر السابقة.
٢١) ابن اسحق، ١ ، ٦١٥؛ الواقدي، ١ ، ٤٩ .
٢٢) الطبري، ١ ، ١٢٨٥ .
٢٣) ابن اسحق، ٢ ، ٦٠؛ الواقدي، ١ ، ١٩٩ - ٢٠٠؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٣١٢ .
٢٤) الواقدي، ١ ، ٢٠٥؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٣١٣ .
٢٥) ان اسحق، ٢ ، ٦٤؛ الواقدي، ١ ، ٢١٩؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٣١٤ .
٢٦) الواقدي، ١ ، ٢٩٩ .
٢٧) ابن اسحق، ٢ ، ٢١٩ .
٢٨) ابن اسحق، ١ ، ٢٢٣؛ الواقدي، ٢ ، ٤٧٧؛ أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأموال، القاهرة، ١٩٣٤ ، ١٥٧ .
٢٩) الواقدي، ٢ ، ٤٨٠ فما بعد؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٣٤٥؛ الشيباني، سِيَر، ١ ، ١٢٢ .
٣٠) ابن اسحق، ٢ ، ٣٠٨؛ الواقدي، ٢ ، ٥٧٤ .
٣١) ابن اسحق، ٢ ، ٣٠٩؛ الواقدي، ٢ ، ٥٩٧؛ الطبري، ١ ، ١٥٣١؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٣٤٩ .
٣٢) ابن اسحق، ٢ ، ٣١٧ - ٣١٨؛ الواقدي، ٢ ، ٦١١ - ٦١٢ .
٣٣) ابن اسحق، ٢ ، ٣١٥؛ الواقدي، ٢ ، ٦٠٢- ٦٠٣؛ أبو عبيد، أموال، ١٥٧ .
٣٤) ابن اسحق، ٢ ، ٣٨٩؛ الواقدي، ١١ ، ٧٨٠؛ الطبري، ١ ، ١٦١٩؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٣٥٣؛ البيهقي، سنن، ٩ ، ١٢٠ .
٣٥) ابن اسحق، ٢ ، ٣٩٥ - ٣٩٧؛ الواقدي، ٢ ، ٧٩١؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٣٥٥ .
٣٦) راجع وات، ٥٥ - ٦٥ .

٣٧) ابن اسحق، ١ ، ٦١٩ و٦٢٢ - ٦٢٤؛ الواقدي، ١ ، ٣٤ - ٣٧ و٦٣ - ٦٥ و٢٠٠ .

٣٨) الواقدي، ٢ ، ٦٠٠ - ٦٠١؛ ابن سعد، ٢/١ ، ٧٠؛ ابن الأثير، ٢ ، ٢٠٣؛ النويري، ١٧ ، ٢٢٦ .

٣٩) الواقدي، ٢ ، ٦٠٠ - ٦٠١ .

٤٠) البلاذري، انساب، ١ ، ٤٣٨؛ الطبري، ١ ، ١٧٧٢؛ الذهبي، العِبَر، ١ ، ٨ .

٤١) الواقدي، ٢ ، ٧٩٢؛ ابن سعد، ٢/١ ، ٩٧؛ الطبري، ١ ، ١٦٢٣؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٢٥٥؛ البيهقي، سنن، ٩ ، ١٢٠؛ الحلبي، ٣ ، ٨ .

٤٢) الواقدي، ٨١٨؛ ابن سعد، ٢/١ ، ٩٨؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٣٣٥؛ البيهقي، سنن، ٩ ، ١١٨؛ النويري، ١٧ ، ٣٠٢؛ الحلبي، ٣ ، ٢٥؛ وانظر أيضاً الموسوعة الإسلامية، مادة "جوار"، جي ليسيرف.

٤٣) الواقدي، ٨٢٢ فما بعد؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٣٥٥؛ البيهقي، سنن، ٩ ، ١٢١؛ الحلبي، ٣ ، ٢٥ .

٤٤) الواقدي، ٨١٦؛ الحلبي، ٣ ، ١٩ .

٤٥) الواقدي، ٩٥٦ فما بعد؛ ابن سعد، ٢/١ ، ١١١؛ ابن قتيبة، معارف، ١٦٣؛ النويري، ١٧ ، ٣٤٧ .

٤٦) الواقدي، ٩٤٤ - ٩٤٧؛ السهيلي، الروض الأُنف، ٢ ، ٣٠٨؛ الرازي، تفسير، ١٦ ، ١١١؛ الحلبي، ٣ ، ٨٥ .

٤٧) ابن حبيب، ١٢٦؛ بلاذري، انساب، ١ ، ٥٢٩ - ٥٣٠؛ المقريزي، اسباب، ٣٢ - ٣٤؛ الموسوعة الإسلامية، مادة "عامل"، عبد العزيز الدوري.

٤٨) المسعودي، تنبيه، ٣٢٩؛ وات، ٦٥ .

٤٩) الواقدي، ٨١٦؛ الحلبي، ٣ ، ١٩ .

٥٠) وات، ٧٠ - ٧٣ .

٥١) الواقدي، ٨٩٠ ، ٩١٠، ٩٢٩ ، ٩٤٤ فما بعد؛ ابن سعد ٢/١ ، ١١١؛ المسعودي، تنبيه، ٢٣٤؛ الرازي، تفسير، ١٦ ، ١١١ .

٥٢) ابن اسحق، ٩٨٥؛ المسعودي، تنبيه، ٢٣٩؛ ابن الأثير، ٢ ، ٢٢٦؛ الديار بكري، ٢ ، ١٩٢؛ فيلهاوزن، تاريخ، ٢٠؛ ديمومبين، "محمد" (بالفرنسية)، باريس، ١٩٦٧ ، ٢٠٨ .

٥٣) السهيلي، ٢ ، ٢٧٦؛ ابن حجر، إصابة، ٢ ، ١٧٢ .

٥٤) بيكر، ٣٣٤؛ لويس، ٥١؛ وات، ٨٧ ، ماجد، ١ ، ١٤٤ - ١٤٥ .

٥٥) وات، ٨٧ .

٥٦) فيلهاوزن "تلخيصات"، ٦ ، ٧ .
٥٧) المبرّد، ٣ ، ٢٣؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٥٣١؛ ابن الأثير، ٢ ، ٢١٥؛ ابن عبد ربه، عقد، ٢٠ ، ٢٤٣ - ٢٤٤؛ الديار بكري، ٢ ، ٢٤٠ .
٥٨) المبرّد، ٣ ، ٢٣؛ ابن عبد ربه، ٢ ، ٢٤٤؛ الديار بكري، ٢ ، ٢٤٠ .
٥٩) ابن عبد ربه، ٢ ، ٢٤٣ .
٦٠) ابن حبيب، ٧٦؛ ابن سعد، ٢/١ ، ١٨؛ الطبري، ،١ ١٥٥٩ ، ١٥٦١؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٥٣١؛ البلاذري، فتوح، ١٠٥؛ الديار بكري، ٢ ، ٣٩ ، ١٨٢؛ وحول هذه الكتب، راجع محمد حميد الله مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي، (عربي-افرنسي).
٦١) ابن سعد، ٢/١ ، ١٥، ١٨؛ البلاذري، فتوح، ١ ، ١٠٥، وأنساب، ١ ، ٥٣١؛ الطبري، ،١ ١٥٥٩، ١٥٦٠؛ ابن الأثير، ٢، ٢١٥؛ الديار بكري، ٢، ١٨٢، ١٨٣
٦٢) ابن سعد، ٢/١ ، ١٨؛ ابن سيّد الناس، ٢ ، ٢٦٩؛ الديار بكري، ٢ ، ٤٠ ، ١٨٣

٦٣) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٠٥؛ ابن الأثير، ٢ ، ٢١٥ .
٦٤) ابن سعد، ١/ ٢ ، ١٨؛ ابن سيّد الناس، ٢ ، ٢٦٩ .
٦٥) انظر مثلاً الكتب في ابن سعد، ٢/١ ، ١٩ فما بعد.
٦٦) ابن سعد، ٢/١ ، ١٨؛ ابن سيّد الناس، ٢ ، ٢٦٩ .
٦٧) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٠٥ .
٦٨) ابن الأثير، ٢ ، ٢١٥ .
٦٩) راجع اميل تيان، "مؤسسات القانون الإسلامي العام" (بالفرنسية)، ١ ، ٤٠ - ٤٢ .
٧٠) وات، ١٤٤ .
٧١) كايتاني، حوليات، ١ ، ١٢٠؛ وات، ١٣٤ .
٧٢) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٠٥ .
٧٣) ابن الأثير، ٢ ، ٢١٥ .
٧٤) ابن اسحق، ٩٩٨؛ ابن سعد، ٢/١ ، ٥٥؛ البلاذري، فتوح، ١ ، ١٠٥؛ الطبري، ١ ، ١٧٣٨؛ وانظر أيضاً الموسوعة الإسلامية، مادة "مسيلمة"، ف.بوهل.
٧٥) ابن الأثير، ٢ ، ٢١٥ .
٧٦) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٠٥ .
٧٧) وات، ١٣٤ .
٧٨) كايتاني، تاريخ، ١/٢ ، ٣٣٦ (الحاشيتان ١ ، ٣).
٧٩) وات، ١٣٣ .
٨٠) وات، ٨١ ، ٨٧ - ٩٥ .

٨١) وات، ٧٨ ، ٨١؛ ابن سعد، ١/٢ ، ٢٣؛ كحالة، معجم القبائل، ٦٨٩ .

٨٢) اليعقوبي، ١ ، ٢٣٠؛ كحّالة، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٤٠٢ ، ٩١٨ - ٩١٩ ، ٦٩٠؛ وات، ٨٨ ، ٩١ .

٨٣) الطبري، ١ ، ١٨٩٣؛ وات، ٨٨ .

٨٤) ابن اسحق، ٧٠١؛ الواقدي، ٤٧٧؛ ابن سعد، ٢ /١ ، ٤٧؛ أبو عبيد، ١٦١؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٣٤٣؛ ابن الأثير، ٢ ، ١٧٨ .

٨٥) الواقدي، ٩٤٦؛ الرازي، تفسير، ١٦ ، ١١١؛ النويري، ١٧ ، ٣٤٠؛ الحلبي، ٣ ، ٨٥ .

٨٦) وات، ٩٤؛ ابن عبد البر، استيعاب، ١٢٤٩ .

٨٧) وات، ٩٢ - ٩٤ .

٨٨) وات، ٩٤؛ الديار بكري، ٢ ، ١٩٧ .

٨٩) وات، ٨٨ ، ٨٩ .

٩٠) ابن سعد، ١/٢ ، ٢٣ .

٩١) وات، ٨٨ .

٩٢) الطبري، ١ ، ١٨٩٢ .

٩٣) النقائض، ١ ، ٦٦؛ ابن عبد ربه، ٢ ، ١٠و٢٠؛ وات، ١٣٧ .

٩٤) الطبري، ١ ، ١٩٠٩؛ فيلهاوزن، تلخيصات، ٦ ، ١٢ .

٩٥) وات، ١٣٧ .

٩٦) الموسوعة الإسلامية، مادة"الأحنف بن قيس"، تشارل يلا؛ وات، ١٣٩ - ١٤٠ .

٩٧) كايتاني، تاريخ، ١/٢ ، ١٩٣ - ٢٠٣ ، ٢٠٨ - ٢١٠ ، ٤٥٦ - ٤٥٨ ، ٦٦١ - ٦٧٢؛ وات، ١١٧ - ١٣٢ .

٩٨) ابن حبيب، ٢٦٣؛ البلاذري، فتوح، ١ ، ٩٥؛ ابن الأثير، ٢ ، ٢١٥ .

٩٩) فيلهاوزن، " "، ٦ ، ٢٧؛ كايتاني، تاريخ، ١/٢ ، ٦٦٢ - ٦٦٣؛ وات، ١١٨ .

١٠٠) البلاذري، فتوح، ١ ، ٩٥؛ فيلهاوزن، تلخيصات، ٦ ، ٢٠؛ وات، ١٣١ .

١٠١) ابن حبيب، ٢٦٥؛ البلاذري، فتوح، ١ ، ٩٥؛ الطبري، ١ ، ١٥٦١؛ كايتاني، تاريخ، ١/٢ ، ١٩٤ .

١٠٢) ابن حبيب، ٧٧ ، ١٢٦؛ ابن سعد ١/٢ ، ١٩؛ البلاذري، فتوح، ١ ، ٩٥؛ الطبري، ١ ، ١٥٦١؛ ابن الأثير، ٢ ، ٢١٥؛ الديار بكري، ٢ ، ١٨٣ .

١٠٣) ابن حبيب، ٢٦٥؛ ابن سعد، ١/٢ ، ١٨؛ البلاذري، فتوح، ١ ، ٩٢؛ ابن الأثير، ٢ ، ٢٧٢؛ كايتاني، تاريخ، ١/٢ ، ٢٠٦؛ وات، ١٣١ .

١٠٤) ابن حبيب، ٧٧؛ ابن سعد، ١/٢ ، ١٨؛ البلاذري، فتوح، ١ ، ٩٢؛ الطبري، ١ ،

١٥٦١؛ كايتاني، تاريخ، ٢٠٦ - ٢١٠ .

١٠٥) فيلهاوزن، تلخيصات، ٦ ، ٢٦ - ٢٧؛ كايتاني، تاريخ، ١/٢ ، ٦٦١ - ٦٦٧؛ وات، ١١٧ - ١١٨ .

١٠٦) ابن اسحق، ١٠٠٢ - ١٠١٠؛ ابن سعد، ٣ ، ٥٩ - ٨٦؛ البلاذري، فتوح، ١ ، ٨٢؛ الطبري، ١ ، ١٧١٧؛ الديار بكري، ٢ ، ١٩٤ - ١٩٨ .

١٠٧) الطبري، ١ ، ١٥٧٥ ، ١٨٥١ ، ١٨٥٢؛ ابن سيّد الناس، ٢ ، ٢٦٣ - ٢٦٤ .

١٠٨) الطبري، ١ ، ١٥٧٤ - ١٥٧٥؛ ابن سيّد الناس، ٢ ، ٢٦٣ - ٢٦٤ .

١٠٩) ر.بلاشير، "مسألة محمد" (بالفرنسية)، ١٢٠ .

١١١) م.جي.دي خويي، "فتح سوريا" (بالفرنسية)، ١ - ٢٠؛ كايتاني، تاريخ، ١/٢ ، ٨٠ - ٨٨؛ وات، ١٠٥ - ١٠٧ .

١١٢) وات، ١٠٥ .

١١٣) البلاذري، انساب، ١ ، ٣٥٢؛ وات، ٢١٨ .

١١٤) وات، ٥٣ - ٥٥ .

١١٥) البلاذري، انساب، ١ ، ٣٥٢؛ وات، ٢١٨ .

١١٦) البلاذري، انساب، ١ ، ٣٦٨؛ وات، ١٠٥ - ١٠٦ .

١١٧) البلاذري، انساب، ١ ، ٣٨٤ .

١١٨) البلاذري، انساب، ١ ، ٣٨٢؛ ابن الأثير، ٢ ، ٢٨١ .

١١٩) ابن اسحق، ٩٤٣ فما بعد؛ الواقدي، ٩٩٠ فما بعد؛ ابن سعد، ١/٢ ، ١٢٠؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٣٦٨؛ الطبري، ١ ، ١٦٩٣؛ ابن الأثير، ٢ ، ٢٧٦ - ٢٧٨ .

١٢٠) ابن اسحق، ٩٤٦ فما بعد؛ الواقدي، ١٠٠٣ فما بعد، ١٠٤٢ فما بعد؛ الطبري، ١ ، ١٦٩٩ - ١٧٠١؛ ابن الأثير، ٢ ، ٢٧٨ .

١٢١) ابن سعد، ١/٢ ، ١١٩؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٣٦٨؛ ابن الأثير، ٢ ، ٢٧٧؛ ابن عساكر، ١ ، ٤١٣ .

١٢٢) ابن اسحق، ٩٤٣؛ الطبري، ١ ، ١٦٩٣؛ ابن عساكر، ١ ، ٤١٢؛ وفيما يتعلق بالزهري وأعماله، اانظر عبد العزيز الدوري، نشأة علم التاريخ عند العرب، ٢٣ - ٢٥ .

١٢٣) ابن عساكر، ١ ، ٤٠٨ .

١٢٤) راجع وات، ١٨٠ .

١٢٥) ابن عساكر، ١ ، ٤٠٨ .

١٢٦) ابن عساكر، ١ ، ٤١٣ .

١٢٧) حسان بن ثابت الأنصاري، شرح الديوان، البرقوقي، ١٠٤ .

١٢٨) الأغاني، ٣ ، ٧٠ - ٨٣ (سيرة عروة بن الورد).

١٢٩) ابن الأثير، ٢ ، ١٦٩؛ ابن سيد الناس، ٢ ، ١١٢؛ وانظر أيضاً اليعقوبي، ٢ ، ٧٨ .
١٣٠) ابن اسحق، ٨٦٥؛ الواقدي، ٨٢٢؛ ابن سعد، ١/٢ ، ٩٨؛ ابن قتيبة، معارف، ١٦٣؛ البيهقي، سنن، ٩ ، ١١٧ .
١٣١) ابن اسحق، ٩٣٤ - ٩٣٥؛ ابن سعد، ١/٢ ، ١١١؛ الطبري، ١ ، ١٦٨٣ - ١٦٨٤؛ ابن الأثير، ٢ ، ٢٧١؛ ابن أبي الحديد، ٦ ، ٢٢ - ٢٦؛ وات، ١٨٠ - ١٩٠ .
١٣٢) ابن اسحق، ٩٤٥؛ الواقدي، ٩٩٦؛ ابن سعد، ١/٢ ، ١١٩؛ الطبري، ٢ ، ١٦٩٤؛ ابن الأثير، ٢ ، ٢٧٧؛ ابن عساكر، ١ ، ٤١٤ .
١٣٣) كايتاني، تاريخ، ٢/ ١ ، ٢٤ .
١٣٤) ابن سعد، ١/٢ ، ١١١؛ البلاذري، فتوح، ١ ، ٧١-٧٥؛ ابن الأثير، ٢ ، ٢٨٠ - ٢٨١ .
١٣٥) وات، ١٠٩ - ١١٠ .
١٣٦) راجع أيضاً شكري فيصل، حركات..، ٢٦ - ٢٧ .
١٣٧) القرآن الكريم، سورة التوبة آية ١٠٤؛ ابن سعد، ١/٢ ، ١١٥؛ الطبري، ١ ، ١٧٢٢؛ المسعودي، تنبيه، ٢٣٧ .
١٣٨) ابن سعد، ١/٢ ، ١١٥ .
١٣٩) ابن اسحق، ٩٧٠؛ الواقدي، ١٠٧٦؛ الطبري، ١ ، ١٧٢٠؛ المسعودي، تنبيه، ٢٣٧؛ ابن الأثير، ٢ ، ٢٩١ .
١٤٠) ابن اسحق، ٩٧٢؛ الواقدي، ١٠٧٧؛ الطبري، ١ ، ١٧٢٠؛ ابن الأثير، ٢ ، ٢٩١ .
١٤١) القرآن الكريم، سورة التوبة، آية ١ ـ ٦ .
١٤٢) ابن اسحق، ١٠١٨؛ اليعقوبي، ٢ ، ١١٣؛ ابن سعد، ١/٢ ، ١٣٦؛ البلاذري، انساب، ٣٨٤؛ الطبري، ١ ، ١٧٩٤ - ١٧٩٥؛ المسعودي، تنبيه، ٢٤١؛ ابن عساكر، ١ ، ٤٢٣ - ٤٢٧ .
١٤٣) ابن اسحق، ١٠٥٦؛ ابن سعد، ٢/١ ، ١٣٦؛ الطبري، ١ ، ١٧٩٤؛ المسعودي، تنبيه، ٢٤١؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣١٧؛ ابن عساكر، ١ ، ٤٢٦ .
١٤٤) ابن اسحق، ١٠٥٦؛ اليعقوبي، ٢ ، ١١٣؛ ابن سعد، ١/٢ ، ١٣٦؛ البلاذري، انساب، ٣٨٤؛ الطبري، ١ ، ١٧٩٤ - ١٧٩٥؛ المسعودي، تنبيه، ٢٤١؛ ابن عساكر، ١ ، ٤٢٣ - ٤٢٧ .
١٤٥) انظر المراجع في حاشية ١٤٠ .

الفصل الثاني

خلافة أبي بكر الصديق

في دراسة عن "الردّة"، تكمن أهمية تقصي الأحداث في المدينة فور وفاة الرسول، وبالتالي تخصيص فصل من هذا الكتاب لاختيار أبي بكر خليفة، في أن ميزان القوى والمصالح الذي أوصل أبا بكر الى موقع القوة الأول في الجزيرة عندئذ، هو نفسه الذي كان القرة المحركة للحملات العسكرية المعروفة باسم "حروب الردة". وفي هذا الفصل، سيجري لفت الانتباه الى أنه، على الرغم من أن عدة مجموعات في المدينة طرحت أسماء مرشحين مختلفين، لم تكن أي منها منظمة الى حدٍّ يمكن تسميتها حزباً. والمرشح الوحيد الذي امتلك برنامجاً معيناً هو أبوبكر، الذي كان في موضع الثقة بأنه سيتابع سياسة الرسول. ومن بين المجموعات المتنافسة في المدينة، كان هناك بالطبع من لم يشأ السير في تلك السياسة، خاصة مايتعلق منها بالمحاباة التي حظي بها المكيون لدى اعتناقهم الاسلام، وذلك على حساب الأنصار والمهاجرين الأولين، على حد سواء، كما رأى هؤلاء. إن انتخاب أبي بكر خليفة، لم يوفر حلاً لتلك الخلافات في وجهات النظر فقط، كما أنه لم يكن حدثاً سبق "الردة" فحسب، وإنما هو الذي ضمن خوض تلك الحروب.

* * *

إن مسألة ماإذا كان الرسول أوصى بالخلافة من بعده، ولمن، كانت لاتزال موضع خلاف، ليس بين الباحثين فحسب، وإنما بين المسلمين أنفسهم أيضاً. ومهما كان الأمر، فالمنظور السائد بين المؤرخين اليوم هو أنه لادلالة قاطعة بأن الرسول أعدَّ قبل وفاته حكومة تدير شؤون دولة الإسلام التي أنشأها في المدينة[١]. والأكيد أنه، إثر وفاة الرسول، تعرضت الجماعة الإسلامية في المدينة الى هزَّة خطيرة، فقد انقسمت الجماعة الى فئات تتنافس على خلافة الرسول سياسياً، وكل واحدة من تلك الفئات المتنافسة ادَّعت أن أحد أفرادها هو صاحب الحق في وراثة هذا الموقع الذي أصبح خالياً بعد وفاة الرسول.

ومن الأحداث المعروفة جيداً في تاريخ فجر الإسلام، هو أنه مالبث أن شاع خبر وفاة الرسول، حتى عقد الأنصار اجتماعاً للتداول في شأن الخلافة، وانتهوا الى إعلان أحدهم خليفة. وهذا، بالطبع، لم يكن مقبولاً على المهاجرين، الذين، بمجموعهم، رأوا أنهم الأحقُّ بهذا الموقع. وتفيد الروايات، أن من بين المهاجرين كانت فئة من أقارب الرسول ومناصريهم رأت نفسها الوريث الشرعي للسلطة التي أسسها صاحبهم. وكاد التشاحن بين هذه الفئات المتنافسة أن يوصل الجماعة الاسلامية الى حافة الصراع بين الأخوة في الدين[٢]. والرأي السائد بين مؤرخي هذه الفترة المبكرة من دولة الإسلام هو أن تخطي هذه الأزمة تمَّ بفعل حازم، اتخذه ثلاثة من أبرز الصحابة الأولين ـ أبوبكر، عمر، وأبو عبيدة ـ وقد مهدت المشاحنات بين الأنصار السبيل أمام نجاحهم في المهمة الصعبة[٣]. وهذا الرأي يستند الى الرواية السنيَّة، والتي بحسبها، اندفع الصحابة الثلاثة الى مكان اجتماع الأنصار، هدَّأوا الهياج هناك، وحملوا الحاضرين على

"بيعة" أبي بكر خليفة. وقد حصل ذلك في يوم وفاة الرسول نفسه[٤].
وفي اليوم التالي، أُعلنت خلافة أبي بكر في المسجد، حيث ألقى على الناس خطبته الشهيرة[٥]. أما علي، ابن عم الرسول وصهره، فقد امتنع عن مبايعة الخليفة الجديد.

وعلى العموم، فإن المصادر التقليدية ترسم صورة قاتمة للمسرح السياسي في المدينة بعد وفاة الرسول. ويمكن تلخيص مايرد فيها باختصار كالتالي: بعد بيعة[٦] أبي بكر، جمع الأنصار حوله، وأصرَّ على إنفاذ غزوة أسامة. وعندها كانت القبائل قد ارتدت، بعضها بالكامل والبعض جزئياً، وانتشر النفاق، ورفع اليهود والنصارى رؤوسهم، وكان المسلمون كالقطيع في ليلة عاصفة ماطرة، بعد أن فقدوا رسول الله، ونظراً لقلة عددهم وكثرة أعدائهم، وقال الناس لأبي بكر أن جيش أسامة هو جسم المسلمين، وأن العرب قد ثاروا علينا، ويجب أن لا يغيب هذا الجيش عنا، وأجاب أبو بكر: والذي نفس أبي بكر بيده، لو مزقتني وحوش البر، لأنفذت غزوة أسامة، كما أمر رسول الله، ولو بقيت وحدي في هذه الديار، لأنفذتها الى غايتها أيضاً[٧].

١ ـ الأنصار

خلال السنوات القليلة الأخيرة من حياة الرسول، كان الأنصار يمتعضون من المعاملة المتميزة التي أبداها الرسول تجاه قريش، التي التحقت بالإسلام حديثاً. وفي سلسلة من الأحداث، بدأت قبل وفاة الرسول بفترة غير قصيرة، كرَّر الأنصار اعتراضهم على تصاعد تأثير المكيين على سياسة الدولة الإسلامية في المدينة. إلا أنهم، وبدون استثناء تقريباً، كلما حاولوا التصدي لهذا المسار، فشلوا في تحقيق

السيطرة التي سعوا إليها. وخلال الحملة على مكة، وبالتالي فتحها، أصيب الأنصار بالإحباط من الترتيبات التي حققها الرسول بفتح المدينة سلماً. لقد رأوا أنهم بذلك أضاعوا فرصة لتصفية حسابات قديمة مع المكيين، كما حرموا من معركة واعدة بالغنائم الكثيرة ضد خصومهم الأثرياء. وفوق ذلك، أحسَّ الأنصار بالضيق من محاباة الرسول للمسلمين حديثاً من مواطنيه السابقين. وبعد النصر في حنين، أصاب الأنصار الكرب لما رأوا آخرين، ممن كانوا حتى الأمس القريب أعداء الإسلام الألداء، يجنون ثمار ماإعتبروه جهدهم، هدايا كثيرة من مغانم حنين ذهبت الى المكيين، ولم ينل وجوه الأنصار شيئاً منها. لقد أشاح الأنصار بوجههم عن معاملة الرسول هذه، وعبروا عن عواطفهم بمرارة، لكنهم استسلموا لإرادته في نهاية الأمر[٨].

وبعد وفاة الرسول، ولما يكتنفهم من تذمر، عارض الأنصار بشدة انتخاب أبي بكر خليفة؛ وفي هذا السياق، فقد كان من شأنهم الاعتراض بنفس الشدة على أي مكيٍّ آخر، يقع عليه الاختيار. ومن هنا، وبينما الرسول مُسجَّى في بيت عائشة، اجتمع الأنصار في "سقيفة" بني ساعدة[٩]، وهم من الخزرج في المدينة، ومضوا في تعيين أحدهم خليفة[١٠]. وبينما المصادر تتحدث باستفاضة عن الجدل والمساومة بين الأنصار والمهاجرين، فإنها في الوقت نفسه تتحدث عن المشاحنات بين الأنصار ذاتهم، الأمر الذي أضعف دعواهم. ومؤتمر الأنصار في السقيفة، وماتخلله، يعرف في المصادر بـ"أمر السقيفة"[١١]. وهناك، في نهاية المطاف، تلقى أبو بكر البيعة. لكن الأنصار لم يتجاوزا سريعاً مرارتهم من المكيين، الذين اعتبروهم الآن مسؤولين عن انتخاب أبي بكر أيضاً. وبعد البيعة، قبلوا بسلطته

السياسية، إلا أنهم ظلوا يكنون له، ولمن حوله من المكيين، الشحناء. ويبرز هذا في شعر حسان بن ثابت الأنصاري الناطق باسم قومه والمدافع عن قضيتهم، فهجاؤه لوجوه مكة يشهد على تلك العداوة المتأصلة: أبو سفيان، سهيل بن عمرو، الحارث بن أبي سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، كانوا من بين قادة مكة البارزين، الذين تناولهم حسان بهجائه(١٢).

وخلال خلافة أبي بكر، ظل الانصار على معارضتهم سياسته. فقد تذمروا من غزوة أسامة، وأسهموا كثيراًفي إفشالها(١٣). وخلال الحرب في الجزيرة، كان الأنصار على العموم مترددين بالمشاركة في القتال(١٤). ومع ذلك، وفي جميع الحالات تقريباً، اضطر الأنصار للتخلي عن مواقفهم والانصياع لإرادة المكيين، الذين، مبكراً بعد انحيازهم الى الإسلام، نجحوا بالتغلب على المعارضة لهم. ومن جانبهم، ونظراً لإحباطهم، فقد تعاطف الأنصار مع مجموعة معارضة أخرى، هي شيعة علي بن أبي طالب؛ وهاتان المجموعتان كتمتا غيظهما الى أيام الخليفة الثالث ـ عثمان بن عفان.

٢ ـ المهاجرون

غداة وفاة الرسول، يمكن تمييز ثلاث فئات بين المهاجرين.

فمن الصحابة البارزين، وأقرباء الرسول، علي بن أبي طالب، العباس بن عبد المطلب، الزبير بن العوام، وطلحة بن عبد الله، مالوا لبيعة علي، وامتنعوا عن مبايعة أبي بكر. وهؤلاء الذين عرفوا لاحقاً بـ"شيعة علي"، قالوا بأن الرسول، قبل وفاته، أعلن عن رغبته في تعيين علي خليفة له(١٥). إلا أنه ليس هناك مايدل على أن هذه المجموعة نشطت في ترويج

قضيتها؛ وشأنها شأن غيرها، خضعت لسلطة الخليفة الجديد. أما دعوى علي بالحق الشرعي في الخلافة فقد أصبحت مسألة دينية، والروايات التي تدعمها تبناها الشيعة كقضية إيمان.

ومجموعة أخرى، قادها عمر بن الخطاب، عدو الارستقراطية المكية اللدود. وقد وقع اختيار عمر الأول على أبي عبيدة ابن الجراح. لكنه، كما يبدو، لم يستطع أن يوفر له الدعم الكافي. ولأن عمر في الواقع قام بجهد كبير للحؤول دون اختيار أبي بكر للخلافة، ولأن قوة أبي بكر كانت كافية لإحباط جهود عمر على هذا الصعيد، فإن دراسة أدق لهذا الأمر ستتبع أدناه.

والمجموعة الثالثة من المهاجرين أيّدت أبابكر. فاعتناق أبي بكر المبكر للإسلام، دعمه الحازم للرسول، وقرابته إليه عبر ابنته عائشة، تقدمه بالسن وخبرته الطويلة، ومعرفته الواسعة بأنساب العرب، كما حقيقة أن الرسول عهد إليه بقيادة الحج في عام ٩هـ، وإمامة الصلاة أثناء مرض الرسول، كلها عوامل يجري الاستشهاد بها في تفسير انتصار أبي بكر على منافسيه للخلافة[١٦]. لكن هذه الخصال، كلياً أو جزئيّاً، توفرت في العديد من الصحابة الأولين، فلماذا إذاً انتخب أبو بكر دون سواه؟ إن تحليلاً للأحداث في المدينة، غداة وفاة الرسول، يشير بوضوح الى أن دعم الارستقراطية لأبي بكر هو الذي رجّح الكفة لصالحه.

إنه من الخطأ النظر الى الفئات المختلفة في المدينة وكأنها أحزاب سياسية، لكل منها برنامجه للعمل ومرشحه للخلافة. وفي الواقع، فكانت مناورات كل فئة تركز على إحباط أهداف الأخرى أكثر مما

تروِّج لقضيتها. وهذه كانت حال الأنصار الذين كانوا متفقين على منع القرشيين من الوصول الى الخلافة، لكنهم اختلفوا فيما بينهم حول من يدعمون من صفوفهم. وشيعة علي اكتفتْ بطرح دعواها لحقه في وراثة موقع الرسول السياسي، ولكنها لم تنشط في متابعة قضيتها. وليس هناك مايشير الى أن عمر دفع ترشيحه لأبي عبيدة الى الحد الأقصى، لكنه كان أكثر فعلاً في إحباط تطلعات الفئات الأخرى.

٣ ـ دور عمر في انتخاب أبي بكر

كما هي الحال في معارضة الأنصار، هكذا كانت بداية التيار الذي قاده عمر، في الأعوام الأخيرة من حياة الرسول. والمصادر التقليدية لاتبرز النشاط السياسي لهذه المجموعة، ولامعارضتها لسياسات أبي بكر. والرواة المسلمون، في محاولتهم إظهار الجماعة الإسلامية الأولى كنموذج يجب أن يحتذى، كتمت الكثير من المعلومات عن هذا النشاط، ولكن بقي مايكفي، مبعثراً صدفة في المصادر، ليشير الى وجود هذه المعارضة.

فابن أبي الحديد، مثلاً، يقدم سلسلة من الحوادث، حيث وقف عمر في تعارض مع قرارات الرسول. وفيما خلا عدد من الحوادث الصغيرة، فإن الوقائع التالية تشير الى خط سياسي محدد تبناه عمر:

١) بعد النصر في بدر، أصرَّ عمر على قتل الأسرى من المكيين. إلا أن الرسول، يؤيده أبو بكر، سعى الى اتفاق، يطلق بموجبه سراح الأسرى لقاء فدية[١٧].

٢) وفي الحديبية، اعترض عمر على شروط المعاهدة، لكن

الرسول أمضاها على أية حال[١٨].

٣)أثناء الحملة على مكة ـ وعندما وصل أبو سفيان الى معسكر المسلمين للتفاوض مع الرسول حول استسلام مكة صلحاً ـ اعترض عمر على منح الزعيم الأموي الحماية وطالب بقتله[١٩].

٤)عندما مات عبد الله بن أبيّ، رأس "المنافقين" في المدينة، جادل عمر الرسول في الصلاة على روحه[٢٠]، ولكن الرسول فعل. وهذه الوقائع تشير الى موقف عمر الذي لايلين في سياسته الحازمة تجاه الزعماء البارزين من أعداء الإسلام، والارستقراطية المكية بشكل خاص.

وخلال خلافة أبي بكر، عارض عمر وجماعته الحرب ضد القبائل العربية، وظلَّ يحث الخليفة على تسريح خالد بن الوليد من قيادة جيش المسلمين[٢١]. وعارض عمر كذلك تعيين الأموي، خالد بن الوليد، قائداً لجيش أرسل الى سوريا، ونجح في إبعاده عن هذا الموقع[٢٢]. وفور توليه الخلافة، أبعد عمر خالد بن الوليد عن قيادة جيش المسلمين في سوريا، وعين مكانه رفيق دربه، الصحابي الأقدم، أبا عبيدة بن الجراح[٢٣]. وكذلك أحكم عمر قبضته على عمرو بن العاص في مصر، وصادر نصف أملاكه[٢٤]. وفي خلافته ميز عمر ضد المكيين في "العطاء". وباختصار، فإن عمر حاول وسعه لكبح الارستقراطية المكية التي أسلمت حديثاً[٢٥].

وعلى الرغم من هذه الأحداث التي تظهر عمر على خلاف مع الرسول وخليفته الأول، فإن الرواية التقليدية عامة تظهر أبابكر وعمر وأبا عبيدة على وفاق تام. وغالبية المصادر تتفق أن الثلاثة وصلوا معاً

الى سقيفة بني ساعدة، وأعلنوا خلافة أبي بكر دون صخب كبير[٢٦]. إلا أن البلاذري يورد الخبر التالي:

"حدثنا وهب بن بقية، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا العوام بن حوشب، عن ابراهيم التيمي، قال: لما قبض رسول الله، أتى عمر بن الخطاب أبا عبيدة بن الجراح فقال له: ابسط يدك نبايعك فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله. فقال: ياعمر، مارأيت لك تهمة منذ أسلمتَ قبلها، أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين"[٢٧].

والتدقيق في رواية أخرى يوردها الطبري نقلاً عن ابن عباس يكشف أن عمر لم يكن مع انتخاب أبي بكر حتى اللحظة الأخيرة. ويقول ابن عباس أنه سمع الرواية من عمر نفسه، وكان يقصُّ أحداث يوم انتخاب أبي بكر في مسجد المدينة، فقال: "إنه بلغني أن قائلاً منكم يقول: لو مات أمير المؤمنين بايعت فلاناً، فلا يغرنَّ امرأً أن يقول: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة [وفي رواية فتنة]، فقد كانت كذلك، ولكن الله وقى شرَّها، وليس منكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر، وإنه كان خيرنا حين توفي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإن علياً والزبير ومن معهما تخلفوا عنا في بيت فاطمة وتخلفت عنا الأنصار، واجتمع المهاجرون الى أبي بكر". ومضى عمر يقصُّ كيف وصل هو وأبو بكر وأبو عبيدة الى السقيفة، حيث كان الأنصار يجتمعون استعداداً لإعلان واحد منهم خليفة. وذكر المجادلات التي دارت بينهم وبين الأنصار. وقال أن أبا بكر عرض البيعة على من يقبل منهما تحمل المسؤولية، ولكنه رفض، وكذلك فعل أبو عبيدة.

والفقرة الأخيرة من هذه الرواية ذات أهمية خاصة، وهي كالتالي:

"فلما قضى أبو بكر كلامه قام منهم رجل فقال: أنا جُذيلها المحكَّك وعُذيقها المرجَّب، منا أمير ومنكم أمير. وارتفعت الأصوات واللّغط، فلما خفت الاختلاف قلت لأبي بكر: ابسط يدك أبايعك؛ فبسط يده فبايعته وبايعه الناس، ثم نزونا على سعد بن عُبادة، فقال قائلهم: قتلتم سعداً. فقلت: قتل الله سعداً، وإنا والله ماوجدنا أمراً هو أقوى من بيعة أبي بكر، خشيت إن فارقت القوم ولم تكن بيعة أن يُحدثوا بعدنا بيعة، فإما أن نتابعهم على مالانرضى به، وإما أن نخالفهم فيكون فساداً"(٢٩)

وهذه الإشارات المتفرقة الى تردد عمر في دعم خلافة أبي بكر، تبدو للولهة الأولى ضئيلة إذا ماقورنت بالعدد الكبير من الروايات التي تؤكد الانسجام بين الرجلين اللذين أصبحا خليفتين على التوالي. ولكنها إذا أخذت في سياق واحد مع الوقائع التي تمَّ جمعها أعلاه، والتي تعدد اعتراضات عمر على سياسة الرسول وخليفته الأول، فإنها تكتسب مصداقية، ربما أكثر من الروايات المتعددة والمتطابقة، ولعلها تكون منقولة بعضها عن بعض، حيث الخلافات في وجهات النظر بين الصحابة الأولين جرى التعتيم عليها. وفي الغالب، فإن مادفع عمر للقبول باختيار أبي بكر هو الخشية من الشقاق والصراع الداخلي. والواضح أنه مرَّ وقت طويل قبل أن تكرست البيعة للخليفة الأول واستتب له الأمر في شؤون الدولة الفتية.

٤ ـ الدعم المكي لأبي بكر

إذا كان علي ومناصروه من أقارب الرسول قد امتنعوا عن بيعة أبي

بكر وادعوا الحق الشرعي في الخلافة لعلي، وعمر وجماعته مالوا لانتخاب أبي عبيدة خليفة، والأنصار سعوا لملء الفراغ بواحد منهم؛ فمن إذاً، كان الداعمون لأبي بكر؟ إن غالبية المصادر التقليدية تفيد بأن أبا سفيان كان يعارض في اختيار أبي بكر خليفة[٣٠]. وكذلك، كان خالد بن سعيد، وهو أمويٌّ بارز، ومن صحابة الرسول الأولين، يعارض في بيعة أبي بكر، كما تورد المصادر[٣١]. وهذه الروايات عن موقف اثنين من أبرز وجوه بني أمية، أساسها في أعمال مؤلفين معروفين بعدائهم للأمويين[٣٢]؛ ومع ذلك يصعب الطعن في تلك الروايات، خاصة في غياب مصادر مؤيدة للأمويين بين الكتابات التاريخية التي وصلت إلينا. ولكن، حتى على افتراض صحة هذه الروايات، من أن الأمويين وقفوا ضد انتخاب أبي بكر ومع خلافة علي ـ فماذا بشأن بقية الارستقراطية المكية؟

وواحد منها، خالد بن الوليد، ساند أبا بكر. ففي فقرة من "كتاب الموفقيات" للزبير بن بكار، محفوظة في "شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد، ورد عن خالد بن الوليد مايلي:

"قال الزبير: وكان خالد بن الوليد شيعة لأبي بكر، ومن المنحرفين عن علي. فقام خطيباً، فقال: أيها الناس، إنا رمينا في بدء هذا الدين بأمر، ثقل علينا والله محمله، وصعب علينا مرتقاه؛ وكنا كأنا فيه على أوتار، ثم والله مالبثنا أن خفَّ علينا ثقله وذلَّ لنا صعبه. وعجبنا ممن شكَّ فيه بعد عُجبنا ممن آمن به؛ حتى أُمرنا بما كنا ننهى عنه، ونهينا عما كنا نؤمر به؛ ولا والله ماسبقنا إليه بالعقول؛ ولكنه التوفيق. ألا وإن الوحي لم ينقطع حتى أُحكم؛ ولم يذهب النبي فنستبدل

بعده نبياً؛ ولابعد الوحي وحياً؛ ونحن اليوم أكثر منا أمس؛ ونحن أمس خير منا اليوم؛ من دخل في هذا الدين كان ثوابه على حسب عمله، ومن تركه رددناه إليه، وإنه والله ماصاحب الأمر- يعني أبا بكر- بالمسؤول عنه، ولا المختلف فيه، ولاالخفي الشخص ولا المغموز القناة. فعجب الناس من كلامه"(٣٣)

والمصدر نفسه، وبالسند ذاته، يورد فقرة طويلة عن موقف عمرو بن العاص من "أمر السقيفة". وهو الذي أمَّره الخليفة على أحد جيوش الفتح. وفيها قول عمرو بأن الأنصار ليسوا كالمهاجرين، وسعد بن عبادة ليس كمثل أبي بكر، والمدينة لاتوازي مكة. وذكر عمرو أن الأنصار حاربونا [أهل مكة] وانتصروا علينا، ولكننا لو حاربناهم اليوم لتغلبنا عليهم. وقد بلغ الكلام الأنصار، وردَّ خطيبهم عليه. وكذلك بلغ كلام عمرو علياً، فشتمه، وقال أنه أساء الى الله ورسوله. ثم ذهب الى المسجد وقام خطيباً فيمن حضر من قريش، فأثنى على الأنصار، وقال: "من أحبَّ الله ورسوله، فقد أحبَّ الأنصار". ودعا عمروا بأن يكف لسانه عن الإساءة إليهم وإليه(٣٤). كما يورد المصدر موقف الوليد بن عقبة، وهو من الأمويين البارزين، والذي كان يكره الأنصار لأنهم أسروا أباه في معركة بدر وقتلوه، فتكلم في الحضور وأساء الى الأنصار، وقد لامه على ذلك ضرار بن الخطاب، وزيد بن الخطاب، ويزيد بن أبي سفيان(٣٥).

وفي فقرة أخرى من المصدر نفسه، يرد مايلي:

"قال الزبير: وحدَّثنا محمد بن موسى الأنصاري، المعروف بابن مخرمة، قال: حدثني ابراهيم بن سعد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن

عوف الزهري، قال: لما بويع أبو بكر واستقر أمره، ندم قوم كثير من الأنصار على بيعته ولام بعضهم بعضاً، وذكروا علياً وهتفوا باسمه، وإنه في داره لم يخرج إليهم، وجزع لذلك المهاجرون، وكثر في ذلك الكلام. وكان أشدَّ قريش على الأنصار نفر فيهم؛ وهم سهيل بن عمر، أحد بني عامر بن لؤي، والحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل المخزوميان، وهؤلاء أشراف قريش الذين حاربوا النبي، ثم دخلوا في الإسلام وكلهم موتور قد وتره الأنصار.

"أما سهيل بن عمرو فأسره مالك بن الدخشم يوم بدر، وأما الحارث بن هشام فضربه عروة بن عمرو، فجرحه يوم بدر وهو فارٌّ عن أخيه. وأما عكرمة بن أبي جهل فقتل أباه ابنا عفراء وسلبه درعه يوم بدر زياد بن لبيد، وفي أنفسهم ذلك.

"فلما اعتزلت الأنصار تجمع هؤلاء، فقام سهيل بن عمر، فقال: يامعشر قريش؛ إن هؤلاء قد سماهم الله الأنصار، وأثنى عليهم القرآن؛ فلهم بذلك حظ عظيم، وشأن غالب، وقد دعوا الى أنفسهم والى علي بن أبي طالب؛ وعلي في بيته لو شاء لردَّهم؛ فادعوهم الى صاحبكم والى تجديد بيعته، فإن أجابوكم وإلا قاتلوهم؛ فوالله إني لأرجو أن ينصركم عليهم كما نصرتم بهم.

"ثم قام الحارث بن هشام، فقال: إن يكن الأنصار تبوأت الدار والإيمان من قبل ونقلوا رسول الله الى دورهم من دورنا، فآووا ونصروا ثم مارضوا حتى قاسمونا الأموال وكفونا العمل؛ فإنهم قد لهجوا بأمر إن ثبتوا عليه، فإنهم قد خرجوا مما وُسموا به؛ وليس بيننا وبينهم معاتبة إلا السيف، وإن نزعوا عنه فعلوا الأولى بهم والمظنون معهم.

"ثم قام عكرمة بن أبي جهل، فقال: والله لولا قول رسول الله الأئمة من قريش ماأنكرنا أمرة الأنصار، ولكانوا أهلاً لها، ولكنه قول لاشكَّ فيه ولاخيار. وقد عجَّلت الأنصار علينا، والله ماقبضنا الأمر عليهم ولا أخرجناهم من الشورى، وإن الذي هم فيه من فلتات الأمور ونزعات الشيطان، ومالايبلغه المنى، ولايحمله الأمل. اعذروا الى القوم، فإن أبوا فقاتلوهم، فوالله لو لم يبق من قريش كلها إلا رجل واحد لصيَّر الله هذا الأمر فيه.

"قال: وحضر أبو سفيان بن حرب، فقال: يامعشر قريش، إنه ليس للأنصار أن يتفضلوا على الناس حتى يقرُّوا بفضلنا عليهم، فإن تفضلوا فحسبنا حيث انتهى بها، وإلا فحسبهم حيث انتهى بهم، وأيم الله لئن بطروا المعيشة وكفروا النعمة لنضربنهم على الإسلام كما ضربوا عليه. فأما علي بن أبي طالب فأهل والله أن يسَوَّد على قريش وتطيعه الأنصار.

"فلما بلغ الأنصار قول هؤلاء الرهط، قام خطيبهم ثابت بن قيس بن شماس، فقال: يامعشر الأنصار، إنما يكبر عليكم هذا القول لو قاله أهل الدين من قريش، فأما إن كان من أهل الدنيا، لاسيما من أقوام كلهم موتور؛ فلا يكبرن عليكم؛ إنما الرأي والقول مع الأخيار من المهاجرين؛ فإن تكلمت رجال قريش؛ الذين هم أهل الآخرة مثل كلام هؤلاء؛ فعند ذلك قولوا ماأحببتم وإلا فأمسكوا(٣٦)".

والمقتطفات السابقة تشير بوضوح الى أن الأرستقراطية المكية، التي اعتنقت الاسلام حديثاً كانت العمود الفقري في المجموعة التي دعمت أبا بكر، وهذا القول تدعمه دلائل مادية، تظهر من تمحيص

خلفية أولئك الذين تعاونوا مع أبي بكر في تنفيذ سياسته. وتفحص أسماء القادة، الذين أودعم أبو بكر قيادة جيوش الإسلام التي فتحت الجزيرة العربية، يظهر مدى اعتماد الخليفة الأول على أشراف مكة في تنفيذ خططه. وبين هؤلاء نجد:

١) خالد بن الوليد، من بطن مخزوم من قريش؛ وهو من قادة مكة البارزين قبل الإسلام. وكان على فرسان قريش في جميع المعارك بين المكيين والمسلمين قبل الحديبية. وقد أسلم في عام ٧هـ فقط[٣٧].

٢) عمرو بن العاص، من بطن سهم من قريش. وقد أسلم مع خالد قبل فتح مكة بفترة وجيزة[٣٨].

٣) عكرمة بن أبي جهل، من بطن مخزوم من قريش. وكان ابن أبي جهل، سيد مخزوم، الذي قتل في بدر. وكان عكرمة معادياً للإسلام ورسوله كما كان والده، وأسلم فقط بعد فتح مكة[٣٩].

٤) العلاء بن الحضرمي، وهو مولى بني أمية من قريش[٤٠].

٥) المهاجر بن أبي أمية، من بطن مخزوم من قريش، وكان أخا أمِّ سلمة، زوج الرسول، وقد أسلم بعد بدر[٤١].

٦) خالد بن سعيد بن العاص، وهو قائد بارز من بني أمية من قريش، وكان بين القلة الأولى ممن اعتنق الإسلام[٤٢].

٧) يزيد بن أبي سفيان، ابن أبي سفيان المعروف، سيد بني أمية من قريش. وقد أسلم بعد فتح مكة، مع والده وأخيه المشهور معاوية[٤٣].

بالمقابل، وخلال الحرب كلها في الجزيرة أيام أبي بكر، فإن أسماء

أشخاص لعبوا دوراً عسكرياً قيادياً في أيام الرسول، وتولوا قيادة جيوش المسلمين في الفتوحات أيام عمر، لايرد لها ذكر في الحروب أيام أبي بكر. وهذه المجموعة من المهاجرين الأولين، اعترضت على سياسة أبي بكر في شنّ الحرب على القبائل في الجزيرة، كما رأت في الارستقراطية المكية تهديداً لموقعها المتميز في الجماعة الإسلامية، وكان فيها:

١) أبو عبيدة بن الجراح، من بطن فهر من قريش. وكان أحد المسلمين العشرة الأولين وفي حياة الرسول، قاد المدد الى عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل(٤٤). وفي أيام عمر بن الخطاب حلَّ محلّ خالد بن الوليد قائداً لجيوش المسلمين في سوريا(٤٥).

٢) سعد بن أبي وقاص، من بطن زهرة من قريش. وكان أحد المسلمين العشرة الأولين، ولاحقاً أحد الستة من "الشورى" التي عينها عمر لاختيار واحد منهم خليفة من بعده(٤٦) وقد أرسله الرسول في غزوة الى رابغ (في الحجاز)(٤٧). وفي أيام عمر، قاد سعد جيش المسلمين الذي فتح العراق(٤٨).

٣) أبو عبيدة الثقفي، الذي عينه عمر قائداً للجيش الذي أرسل لينضم الى بني شيبان في غزو العراق(٤٩).

٤) الزبير بن العوام، من بطن عبد العزى من قريش. وكان أيضاً أحد المسلمين العشرة الأولين، وعضواً في الشورى. وقد عينه الرسول قائداً لجزء من الجيش في فتح مكة(٥٠). وفي أيام عمر بن الخطاب، أرسل الزبير الى مصر مدداً لعمرو بن العاص(٥١).

٥) وآخرون، مثل علي بن أبي طالب، طلحة بن عبد الله، وعبد

الرحمن بن عوف، وكلهم من المهاجرين الأولين البارزين، وأعضاء في الشورى، لم يلعبوا أيَّ دور في الحرب أيام أبي بكر.

إن عدم مشاركة مهاجرين أولين بارزين في الحرب أيام أبي بكر، بينما كانوا قد قاتلوا وتولوا قيادة في أيام الرسول، وكذلك في أيام عمر، لايبدو أنه وقع صدفة. وكذلك فإن اختيار أبي بكر غالبية قادة جيوشه من الارستقراطية المكية لايبدو نتيجة عفوية للصدفة. فالمهاجرون والأنصار، على حد سواء، رأوا أنفسهم أحقَّ بإدارة سياسة الدولة الجديدة من المسلمين اللاحقين، وكانوا يناصبون المكيين العداء، بينما تجمعهم قضية واحدة هي الحؤول دون الارستقراطية القرشية من السيطرة على الدولة في المدينة. ومع ذلك ولأن كل مجموعة إدَّعت الحق في الخلافة لنفسها بناء على ماقدمته للإسلام في بدايته، فقد ساورت بعضها الشكوك في نوايا الأخرى، ولم تستطع أن تتوصل الى اتفاق بينها ضد المكيين. بالمقابل، وبعد أن قاتلت الاسلام بكل ماتملك من قوة، وخسرت المعركة واستسلمت للرسول فإن الارستقراطية المكية لم تستطع، خلال هذه الفترة القصيرة من وجودها داخل الجماعة الإسلامية، انتزاع الخلافة لواحد منها. وفي الظروف القائمة آنئذ، سعى المكيون لتحقيق مافي وسعهم من تأمين مصالحهم. ومن بين المرشحين المقبولين للخلافة، كان أبو بكر هو الأكثر ملاءمة لهم. فأبو بكر كان دائماً قريباً من الرسول، وقد وعد أن يتابع دون هوادة مالم يستكمله الرسول في حياته، سياسياً وعسكرياً، ولما أبدى استعداده للسير في السبيل الذي اتبعه الرسول من المعاملة المميزة تجاههم، فقد حاز أبو بكر على ثقة المكيين، وبالتالي دعمهم لخلافته، وبالمقابل، كافأهم الخليفة على

مساندتهم بأن عينهم في مواقع القيادة.

* * *

إذا كان من الخطأ النظر الى الفئات المتنافسة في المدينة على أنها أحزاب سياسية لها برامجها ومرشحوها للخلافة، فإنه من الخطأ بنفس الدرجة اعتبار بيعة أبي بكر نتيجة لدعم المكيين فحسب. فالشيخ الموقَّر كان يتمتع بموقع مرموق داخل الجماعة الإسلامية قلَّ نظيره. فقربه من الرسول ورفقته الطويلة له، إضافة الى شخصيته السمحة، وتفانيه في الدعوة الإسلامية، هي خصال جعلته بالنسبة الى كل واحدة من الفئات المتنافسة الخيار المفضل بعد مرشحها الخاص لتولي الخلافة. وعندما اتضح مأزق هذه الفئات، ولم تستطع أي منها انتزاع الخلافة لمرشحها المفضل دون صراع قد يؤدي الى إراقة الدماء، كان أبو بكر الخيار البديل المقبول لديها جميعاً، فحصل على البيعة. لقد كان مقبولاً على المهاجرين، حيث كان منهم ، وفي موقع متقدم؛ وكذلك الأمر بالنسبة الى المكيين نظراً لسياسته تجاههم، والتي تطابقت مع سياسة الرسول؛ كما كان مقبولاً على الأنصار لقربه من الرسول وتفانيه في الإسلام. إلا أن بيعة أبي بكر خليفة تبقى، ومن جوانب عدة، انتصاراً للمكيين. لقد اتقوا بها عداء الأنصار ويد عمر الشديدة عليهم. كما ضمنوا بفضل الخليفة الجديد مكاسب كثيرة لأنفسهم. وتقديراً لهذا الدعم، أودع أبو بكر بأيديهم قيادة جيوش المسلمين في حركة الفتوح.

ومع أن هيبة أبي بكر قد أسهمت كثيراً في توليه الخلافة، إلا

أنها بحد ذاتها لم تكن بالتأكيد كافية لتمكينه من شنِّ الحرب على كل أولئك الذي لم ينصاعوا لسلطته في جميع أنحاء الجزيرة العربية، كما فعل. وتجار مكة لم يشتهروا بميزاتهم القتالية، وبدون حليف محارب ماكان باستطاعهم أن يديروا حرباً ناجعة. وعليه، فإن قبائل الحجاز، التي اعتمدت على قريش في معاشها، والقبائل المقيمة على طرق التجارة، التي أقامت قريش معها علاقات تحالف متنوعة، قد سدَّت هذه الثغرة. فقبل الرسول بفترة طويلة، نسجت قريش شبكة من العلاقات والأحلاف التجارية مع هذه القبائل، عرفت باسم "الأيلاف". ومن صفوف هذه القبائل، كما سيوضح أدناه، جند القادة المسلمون الجيوش التي حاربت معهم في الجزيرة وسواها. والأكيد أن قبائل الحجاز شكلت قوة ضغط كبيرة على السياسة في دولة المدينة، ولاشك أن المكيين اعتمدوا على دعم تلك القبائل في تحدِّيهم للأنصار. وقبل استسلام مكة للرسول، أرسلت قبائل الحجاز كتائب من المقاتلين لمساعدة المكيين في حربهم مع المسلمين، كما في أحد والخندق؛[٥٣] وعندما خضعت مكة للرسول، اقتفت هذه القبائل أثرها. والأكيد أن تأثير المكيين كان فاعلاً في الحؤول دون انقلاب تلك القبائل على المدينة بعد وفاة الرسول. وهذا الدعم القبلي عزز موقع المكيين في دولة المدينة وشجعهم على محاربة القبائل الأخرى في الجزيرة. لقد اعتمد أبو بكر على قوة المكيين وحلفائهم لتحقيق إرادة الرسول. وفوق ذلك، فإن التزام أبي بكر بـ"حروب الردَّة" هو التزام بتوجهات القوى التي أوصلته الى خلافة الرسول.

النتائج المباشرة لمبايعة أبي بكر

بداية، لابد من طرح السؤال: هل امتلك أبو بكر فعلاً سياسة، وبالتالي سعى الى تحقيقها؟

إن سياسة الرسول بالتوسع شمالاً، والمشاكل التي انطوى عليها تنفيذها، وكذلك المعوقات التي حالت دون تحقيق أغراضها، قد مرَّ ذكرها أعلاه. وقد جرى التلميح الى إمكان أن يكون المبادرون الى هذه السياسة هم المكيُّون، وقبلها الرسول. إلا أن وجود مثل هذه السياسة الطموحة قد أصبح واضحاً تماماً في خلافة أبي بكر. فما لبث الخليفة الجديد أن كرس سلطته في المدينة، حتى بدأ يرسل الجيوش الى جميع أنحاء الجزيرة. والقبائل العربية في الصحراء السورية لم تكن خارج خطة المدينة في بسط سيطرتها على العرب جميعاً، بغض النظر عن مناطق النفوذ التي أقاموا فيها. فقد سار جيشان مسلمان الى سوريا، في نفس الوقت الذي تحركت به جيوش أخرى الى مختلف نواحي الجزيرة.(٥٤)

وفي العصر الحديث، قام عدد من المؤرخين بدراسة أسباب الفتوح العربية وطبيعتها، وطرحت نظريات متعددة لتفسير هذه الظاهرة(٥٥). وليس في النية هنا تقديم نظرية جديدة؛ وإنما فقط الرأي بأن الرسول وخليفته تبنيا سياسة التوسع شمالاً، ووضعا خطة لتجسيد هذه السياسة. وفتح الجزيرة كان جزءاً من هذه الخطة، والحرب في الجزيرة وماتلاها من غزو سوريا، لم يكونا احداثاً صدفية في التاريخ الإسلامي. لقد حاول الرسول غزو سوريا، لكنه فشل في مسعاه. وفشله في غزوة تبوك، حمله على تغيير سياسته تجاه القبائل في

الجزيرة. ويبدو أن توصله الى القناعة باستحالة نجاح غزو سوريا مادامت الجزيرة خارج إطار سيطرته، هو الذي دفع الرسول الى تعديل سياسته. وأبو بكر، اقتفاءً لخطوات الرسول، أخذ على عاتقه مستلزمات تجسيد تلك السياسة.

وإذا كان غزو سوريا أمراً يتجاوز بكثير طاقات الرسول العسكرية، وهو في ذروة قوته، فإن الأمر كان أصعب من ذلك بكثير على أبي بكر عندما تولى الخلافة. وعندما قام الرسول بغزوة تبوك عام ٩هـ، جند كل القوات المتوفرة لديه؛ ومع ذلك، فقد تحقق في تبوك أن غزو سوريا سيكون بمثابة انتحار، كما كان الأمر في مؤتا قبله. وعليه، عاد الى المدينة، وقرر أن يخضع الجزيرة بأكملها لسلطته قبل الإقدام على المغامرة في سوريا. وفتح الجزيرة،كخطوة أولى على طريق غزو سوريا، أصبح أكثر إلحاحاً على أبي بكر، إذا رغب هو أيضاً في متابعة سياسة الرسول. وعليه، كان على أبي بكر أن يختار بين التخلي عن سياسته الشمالية، على الأقل مرحلياً، وبين اتخاذ إجراءات حاسمة لتجسيدها. ومن جانبه- والأكيد، بمباركة مناصريه- حزم أمره على الخيار الثاني.

ومهما كانت دوافع التوسع شمالاً، فالواضح أن هدف أبي بكر الأخير كان غزو سوريا. وفيما إذا توقع مواجهة مع الإمبراطوريتين- البيزنطية والفارسية- أم لا، فالمسألة تبقى في إطار التخمين؛ أما أن العرب في الصحراء السورية لم يكونوا خارج خطته السياسية، فالأمر واضح تماماً. ففي ظل ظروف غير مواتية في المدينة ومحيطها،سارع الخليفة الى إرسال أسامة في حملة الى الحدود السورية. وبينما لايزال

مشتبكاً بالحرب في الجزيرة ذاتها، لم يهمل الخليفة الأول الجبهة السورية: فقد أرسل إليها قائدين بارزين– عمرو بن العاص وخالد بن سعيد. ومالبثت الجزيرة أن خضعت، حتى جندت القبائل ووجهت الى الجبهة السورية. وأهمية الجبهة السورية للمسلمين،تبرز من حقيقة أن خالد بن الوليد تلقى أمراً من الخليفة بمغادرة العراق والتوجه سريعاً لإمداد المسلمين في سوريا، وليس على العكس.(٥٦)

إن المحاولات التي قام بها كل من الرسول وأبي بكر من بعده، للحفاظ على موطئ قدم على الحدود السورية، بينما نشاطهما العسكري الرئيسي تحوَّل الى الجزيرة نفسها بعد غزوة تبوك، تشير الى أن هدف سياستهما الأبعد كان فتح سوريا. وفتح الجزيرة كان الخطوة الأولى الضرورية في هذا الاتجاه، وهي بالأصل ترمي الى تجنيد الجيوش اللازمة لغزو سوريا.

ويبدو أن الترويج لسياسة التوسع شمالاً، سواء في حياة الرسول أو في خلافة أبي بكر، تعهده المكيون بالدرجة الأولى. وتجدر الملاحظة الى أن التوكيد على هذا الخط السياسي لم يتأتَّ إلا بعد التحاق المكيين بدولة الإسلام. ولعل المكاسب المادية الكبيرة، المتوقعة من نجاح هذه السياسة، كانت حافزاً قوياً لالتحاقهم هذا.(٥٧) وإذا كان الأمر كذلك، فليس من سبب يدعوهم الى التخلي عن هذه المصلحة بعد وفاة الرسول؛ بل على العكس، لعل تلك الأسباب تعززت، بما يدفعهم لتحقيقها. وداخل الجماعة الإسلامية، عومل المكيون بالمحاباة من قبل الرسول، فوجدوا لديه الميل للإصغاء إليهم. كما وجدوا بالقبائل البدوية حليفاً مثلهم، شكلت المصالح المادية حافزاً قوياً له

للالتحاق بدولة الإسلام، وعليه، كان متحمساًفي رغبته التعاون معهم. فالقبائل البدوية والمكيون، كانوا العنصرين الرئيسيين بالانتصارات الأولى التي حققتها دولة المدينة[٥٨]. فكلاهما، كما يقول الأستاذ المعروف جيب، كانت له مصلحة بالتوسع؛ البدو بغريزتهم في البحث عن الغنائم والأراضي لرعاية مواشيهم، وتجار مكة لاستغلال تلك الأراضي في التجارة.[٥٩]

وبينما اهتمام القبائل بالأرض كمراع، بغض النظر عن موقعها، لايدعوهم الى تفضيل سوريا على سواها؛ فإن اهتمام المكيين بالتجارة يجعل منها هدفاً محدداً، نظراً لطرق القوافل التي تتقاطع فيها. وخلال القرن السادس، برزت مكة كمركز حضري في غربي الجزيرة بفضل تحولها الى نقطة تقاطع لثلاث طرق تجارية. الأولى ربطتها بشرقي أفريقيا، والثانية بالبحرين عبر اليمامة، والثالثة باليمن. وخلال هذا القرن أيضاً، وبسبب الضرائب الثقيلة التي فرضها الفرس والبيزنطيون على التجارة التي تمر عبر الطريق الشرقي (من الخليج العربي فالعراق الى الصحراء السورية وبلاد الشام)، تحول الجزء الأكبر من تجارة الشرق الى الطرق الغربية، في الجزيرة، ووقعت في أيدي المكيين.[٦٠] وهؤلاء حملوا البضائع الى سوريا وفلسطين عبر طريق التوابل القديم. ومع ذلك، ظل الطريق الشرقي في العراق، الذي يمر في مناطق مأهولة بالقبائل العربية في الصحراء السورية، ويخضع لمراقبة دقيقة من قبل الامبراطوريتين، يلعب دور المنافس القوي لطريق التوابل المكي. ويبدو أن المكيين كانوا حريصين أن يضعوا أيديهم على هذا الطريق ويسيطروا على تجارته أيضاً.

وفوق ذلك، فإن ثماني سنين من الصراع بين الرسول والمكيين، كان هدف الأول فيها تجارة الأخير، قد تركت بالتأكيد أثراً كارثياً على تجارة مكة. وهجمات المسلمين على قوافل المكيين قبل الحديبية (كما الهجمات التي شنتها قبائل أسلمت لاحقاً)(٦١) ألحقت بالتأكيد ضررا بالغاً بتجارة مكة على طريق التوابل. وتجارة مكة على الطريق الآتي من الشرق (من البحرين) قطعت، أولاً عبر هجمات المسلمين على القوافل(٦٢)، ولاحقاً عبر اعتراضها على أيدي القبائل المتحالفة مع المدينة. والطريق الذي يبدأ في البحرين وعمان وينتهي في مكة، كان من السهل قطعه على أيدي بني حنيفة في اليمامة. وتذكر المصادر أن ثمامة بن أثال- أحد قادة بني حنيفة- الذي أسلم قبل فتح مكة، كان يعترض تجارتها في اليمامة(٦٣). وبعد الفتح، وبدء الصراع مع بني حنيفة بقيادة مسيلمة، لم تكن تجارة مكة تجوز أرضهم. وإذا انقطعت التجارة على هذا الطريق، فهناك طريق بديل واحد له، هو الذي يمر عبر العراق. وإذا كان المكيون قد فقدوا التجارة، وقد حصل ذلك فعلاً(٦٤)، فإنها لابدَّ وقعت في أيدي القبائل العربية في الصحراء السورية، فكانوا المستفيدين من خسارة المكيين. وفي هذه الحالة من وقوع التجارة في أيدي القبائل العربية التي كانت تقيم على الطريق التجاري الشرقي، الذي يمر عبر العراق، يمكن فهم الأسباب الكامنة وراء ترويج المكيين لخط سياسي يدعو الى التوسع شمالاً باتجاه سوريا، وكذلك تفسير دعمهم لأبي بكر الذي كان يتبنى ذلك الخط.

حواشي الفصل الثاني

١) ارنولد، "الخلافة" (بالانجليزية)، ١٩؛ لويس، ٥٠؛ وات، "الفكر السياسي الإسلامي" (بالانجليزية)، ادنبره، ١٩٦٨ ، ٣١ .

٢)كايتاني، حوليات، ١ ، ١١٠؛ لويس، ٥٠- ٥١؛ ميور،١ .

٣) ميور، ٢ - ٤؛ كايتاني، حوليات ، ١ ، ١١٠ ، لويس، ٥١؛ وانظر أيضاً لامنس "الثلاثي"، ١١٣ - ١١٤ .

٤) كايتاني، حوليات، ١ ، ١١٠؛ لويس، ٥٠ .

٥) كايتاني، حوليات، ١ ، ١١٠ .

٦) الموسوعة الإسلامية، مادة "بيعة"، اميل تيان؛ وانظر أيضاً له: "مؤسسات القانون العام الإسلامي" (بالفرنسية)، ١ ، ٣١٥ - ٣٢١ .

٧) البلاذري، فتوح، ١ ، ١١٤؛ الطبري، ١ ، ١٨٤٨؛ ولوصف شبيه، انظر أيضاً، المسعودي، ٢٤٧ ، ابن الأثير، ٢ ، ٣٣٤ .

٨) ابن اسحق، ٤٩٨-٤٩٩؛ الواقدي، ٩٥٦ فما بعد؛ ابن سعد ،١/٢ ، ١١١؛ ابن قتبة، معارف، ١٦٣؛ النويري، ١٧ ، ٣٤٧ .

٩) السقيفة كما يبدو فناء مسقوف، يستعمل لعقد الاجتماعات الكبيرة.

١٠) الموسوعة الإسلامية، مادة "أنصار" و" أبو بكر"، واث، وكذلك مادة "علي"، فالييري.

١١) انظر قصة السقيفة في ابن اسحق، ١٠٧١ - ١٠٧٥؛ المسعودي، ٢٤٧؛ البلاذري، أنساب، ١ ، ٥٨٠ - ٥٨٢؛ الطبري، ١ ، ١٨٣٧ - ١٨٤٥؛ المسعودي، ٢٤٧؛ ابن الأثير، ٢

، ٣٢٥ ـ ٣٣٢؛ ارنولد، ١٩؛ كايتاني، تاريخ، ٢/١ ، ٥١٠ ـ ٥١٨ .

١٢) ابن أبي الحديد، ٦ ، ٢٢ ـ ٢٥ ، والقصيدة في صفحة ٢٥ ليست متضمنة في ديوان حسان.

١٣) انظر أدناه الفصل الرابع فيما يتعلق بغزوة أسامة.

١٤) انظر الفصل الرابع فيما يتعلق بالبزاخة، البُطاح، وعقرباء.

١٥) انظر د.م.دونالدسون، "الديانة الشيعية" (بالانجليزية)، لندن، ١٩٣٣ ، ١ .

١٦) راجع مثلا وات، "الفكر السياسي الاسلامي"، ٣٢ .

١٧) ابن أبي الحديد، ١٢ ، ٦٠ . والوقائع التي يجمعها الكاتب يؤكدها آخرون من الرواة المعروفين.

١٨) ابن أبي الحديد، ١٢ ، ٥٩ .

١٩) الطبري، ١ ، ١٦٣٢ .

٢٠) ابن أبي الحديد، ١٢ ، ٥٥ .

٢١) الطبري، ١ ، ١٩٠٠ ، ١٩٢٦ ، ١٩٢٨؛ البلاذري، فتوح، ١ ، ١١٦؛ وثيمة، ١٢؛ الأغاني، ١٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤؛ البغدادي، خزانة، ١ ، ٢٣٨؛ الديار بكري، ٢ ، ٢٠٩ .

٢٢) ابن عساكر، ١ ، ٤٤٨ ، ٤٥٤ .

٢٣) دي خويي، ٦٤ ـ ٧٠ .

٢٤) ابن أبي الحديد، ١٢ ، ٥٥ .

٢٥) راجع طه حسين، "الفتنة الكبرى"، ١ ، ٧٩ ـ ٨٣ .

٢٦) اليعقوبي، ٢ ، ١٢٣ ـ ١٢٦؛ البلاذري، أنساب، ١ ، ٥٨٠ ـ ٥٨٢؛ الطبري، ١ ، ١٨١٧ ـ ١٨٣٠؛ ابن قتيبة، "الإمامة والسياسة"، ٤-٨؛ ابن أبي الحديد، ٦ ، ١١ ـ ٢٦ .

٢٧) البلاذري، انساب، ١ ، ٥٧٩ .

٢٨) الطبري، ١ ، ١٨٢٠ ـ ١٨٢٣؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٢٦ ـ ٣٢٨ .

٢٩) يبدو أن هناك خطأ في الصيغة التي يوردها الطبري، حيث يسقط حرف "لا". بينما يوجد عند ابن الأثير.. انظر ابن الأثير، ٢ ، ٣٢٨ . وهذه الرواية ترد بتغيير طفيف عند البلاذري، انساب، ١ ، ٥٨٣ ـ ٥٨٤ .

٣٠) اليعقوبي، ٢ ، ١٢٦؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٥٨٨ ـ ٥٨٩؛ الطبري، ١ ، ١٨٢٧؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٢٥ ـ ٣٢٦ .

٣١) اليعقوبي، ٢ ، ١٢٦؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٥٨٨؛ الطبري، ١ ، ٢٠٧٩ ـ ٢٠٨٠ .

٣٢) ابن اسحق، المدائني، والواقدي.

٣٣) ابن أبي الحديد، ٦ ، ٢٢ .

٣٤) ابن أبي الحديد، ٦ ، ٢٩ - ٣٤ .
٣٥) ابن أبي الحديد، ٦ ، ٣٦ - ٣٧ .
٣٦) ابن أبي الحديد، ٦ ، ٢٣ - ٢٤ .
٣٧) ابن حجر، إصابة، ١ ، ٤١٢ - ٤١٣ .
٣٨) ابن حجر، إصابة، ٣ ، ٢ .
٣٩) ابن حجر، ٢ ، ٤٨٩ .
٤٠) ابن حجر، ٢ ، ٤٩١ .
٤١) ابن حجر، ٣ ، ٤٤٥ .
٤٢) ابن حجر، ١ ، ٤٠٦ .
٤٣) ابن حجر، ٣ ، ٦١٩ .
٤٤) الذهبي، سير، ١ ، ٥ .
٤٥) الذهبي، ١ ، ١٣ .
٤٦) الذهبي، ١ ، ٦٢ .
٤٧) الذهبي، ١ ، ٦٧ .
٤٨) الذهبي، ١ ، ٧٧ .
٤٩) الدينوري (ابو حنيفة)، الأخبار الطوال، ١١٣ .
٥٠) الذهبي، سير، ١ ، ٣٣ .
٥١) الذهبي، ١ ، ٣٥ .
٥٢) حول الأيلاف، انظر محمد حميد الله، "الأيلاف، معاهدات مكة الاقتصادية-الدبلوماسية قبل الإسلام" (بالفرنسية)، مجلد ذكرى ماسينيون، ٢ ، ٢٩٣ - ٣١١؛ م. جي. كستر، "مكة وتميم" (بالانجليزية) مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق، ٨ ، ٢ ، نوفمبر ١٩٦٥ ، ١١٣ - ١٦٣ .
٥٣) وات، ٣٠ ، ٣٦ .
٥٤) انظر الفصل الرابع.
٥٥) انظر بوسكيه "ملاحظات نقدية..." دراسات في ذكرى ديلافيدا (بالفرنسية)، ١ ، ٥٢ - ٦٠؛ وكذلك "ملاحظات حول طبيعة وأسباب الفتوحات العربية"، دراسات إسلامية، ٦ (١٩٥٦)، ٣٧ - ٥٢ .
٥٦) دي خويي، ١ .
٥٧) هـ. ا. ر. جيب، "تفسير للتاريخ الإسلامي"، دراسات في الحضارة الاسلامية (بالانجليزية)، ٥ .
٥٨) جيب، ٦ .

٥٩) جيب، ٦ .
٦٠) عرفان قعوار (شهيد)، "العرب في معاهدة السلام لعام ٥٦١م" بالانجليزية، ارابيكا، ٣ (١٩٥٦)، ١٨٤ - ١٩٢ .
٦١) وات، ٦١ .
٦٢) وات، ٥ .
٦٣) ابن حنبل، المسند، ١٣ ، ٩٢؛ ابن حجر، إصابة، ١ ، ٢٠٤ .
٦٤) وات، ٥٩ .

الفصل الثالث

طبيعة الردة ومداها

حول طبيعة الردة ومدى اتساعها، هناك خلاف في المصادر التقليدية كما بين المؤرخين المعاصرين. والمصطلح يطلق بالعادة على الحركة التي انتشرت بين القبائل العربية غداة وفاة الرسول للتنصل من التزاماتها السابقة مع المدينة. وقمع هذه الحركة، وبالتالي غزو سورية، هما الحدثان الرئيسيان في خلافة أبي بكر. وأصحاب السير، كما المؤرخون، أولوا اهتماماً ضئيلاً للاعتبارات التي تتعدى هذين الحدثين في خلافة أبي بكر، التي دامت حوالي عامين. وفي الواقع، فإنه بعد الأيام الأولى من الخلافة، حيث كان عليه أن يتصدى للمعارضة في المدينة، تختطف أمجاد خالد بن الوليد الأضواء في المصادر، حتى من الخليفة أبي بكر. فخالد، بطل حروب الردة، القائد الرئيسي لجيش أبي بكر، و"سيف الله" كما أسماه الرسول، ومنذ أن ولاه الخليفة قيادة جيش المسلمين وحتى عزله عمر، يستحوذ على بؤرة اهتمام الرواة، على الأقل بالأعمال التي وصلت إلينا.

وفي هذا الفصل، سيجري تفحص الأحداث المعروفة باسم "الردَّة"، على أمل التوصل إلى تحديد أكثر دقة لطبيعتها ومداها.

***

في الروايات التقليدية عن الردة، الافتراض الأساسي بأنها حركة

دينية موجهة ضد الإسلام، وكانت وفاة الرسول إيذاناً بانكفاء القبائل عن دعوته، والتبدل في معتقداتها، وبالتالي تمردها على سلطة المدينة. وبالنسبة إلى الرواة، كان قادة هذه الحركات ضد المدينة "أنبياء كذبة"، بشروا بديانات لاترقى بمستواها إلى الإسلام(١).

والمؤرخون في العصر الحديث طعنوا بهذا الافتراض الذي يعتمده الرواة المسلمون. إلا أن الآراء بين هؤلاء المؤرخين قد تضاربت حول المسألة وفيما يلي بعض النماذج.

كان أول من طعن بالمنظور التقليدي بالغرب، هو يوليوس فلهاوزن، الذي في كتابه "تلخيصات ومقدمات" (بالألمانية)، يؤكد أن الردة كانت انشقاقاً عن قيادة المدينة السياسية، وليس انكفاءً عن الإسلام كديانة. ويواصل فلهاوزن القول بأن "الأنبياء" الذين قاموا بالجزيرة، مثلهم مثل الرسول، دعوا إلى عبادة "الله"، وليس آلهة أخرى. وغالبية القبائل كانت ترغب بالاستمرار في عبادة "الله"، ولكن دون أداء الزكاة. وفوق ذلك، فعداء القبائل كان موجهاً ضد عمال المدينة، وليس ضد "إلهها"، أو ديانتها. ولكن فلهاوزن يعترف بأن وفاة الرسول كانت إيذاناً ببدء انفصال القبائل عنها. وهو يرى، أن المتمردين استمدوا التشجيع من الخلاف في المدينة ذاتها حول خلافة الرسول أولاً، ومن ثمّ، انتهزوا فرصة أن المدينة قد جُرِّدت من قوتها المقاتلة، التي أرسلت إلى سوريا بقيادة أسامة - فأعلنوا انفصالهم عنها(٢).

أما كايتاني، فانسجاماً مع تقسيمه القبائل العربية إلى مجموعات حسب طبيعة علاقاتها مع "دولة الإسلام في المدينة"، يقرُّ بأن وفاة

الرسول قد أحدثت هياجاً في قريش، وربما في الطائف. لكنه يرى أن وفاة الرسول تسببت بانفصال فعلي عن المدينة فقط بين قبائل المجموعتين، الثانية والثالثة (انظر أعلاه الفصل الأول). وبحسب كايتاني، اعتبرت هاتان المجموعتان "إسلامهما" اتفاقاً مع الرسول شخصياً. وعليه، نظرتا إلى انتخاب أبي بكر خليفة على أنه أمر يخصُّ المدينة فحسب، لم تشاركا به، وبالتالي لم تجدا أنه يلزمهما في شيء. وقبائل هاتين المجموعتين أرادت التفاوض على اتفاق جديد مع أبي بكر، لكنه رفض ذلك، وأصرَّ على تطبيق الاتفاقات المعقودة مع الرسول بالكامل. ويخلص كايتاني إلى النتيجة بأن انكفاء القبائل عن المدينة في خلافة أبي بكر لم يكن "ردة" دينية، بقدر ماكان مسألة سياسية. وهو يعترف أن فلهاوزن فقط وصل إلى هذه النتيجة الصحيحة قبله(٣).

ويقدم بيكر ملخصاً موجزاً لتاريخ الردة، مستفيداً من أبحاث كل من فلهاوزن وكايتاني. وفيما يلي أهم النقاط في وجهة نظر بيكر:

١) لم يجد المؤرخون المسلمون الأولون تفسيراً للحروب الكثيرة التي استلزمها إخضاع الجزيرة لسيادة الإسلام بعد وفاة الرسول، فعللوا ذلك بالردة العامة.

٢) كانت وفاة الرسول بلا شك، سبباً كافياً لكل من دخل الإسلام مرغماً بالانفصال عن المدينة.

٣) إن غالبية الذين اعتبروا مرتدِّين لم تعتنق الإسلام سابقاً.

٤) إن النبوة انتشرت في الجزيرة تقليداً للرسول.

٥) إن الحرب ضد مايسمى "أهل الردة" لم تكن بالفعل ضد

مرتدين؛ فالقبائل اعترضت على سيادة المدينة، كما على الزكاة، وليس على الدين بما هو.

٦) قلة من القبائل فقط قبلت بقيادة أبي بكر، والغالبية انشقت عنه.

٧) وبينما المدينة مجردة من جيشها بعد مغادرة أسامة، بعض حلفائها السابقين حاولوا استغلال وضعها الصعب، والقيام بهجوم مباغت عليها.

٨) وبنشاط كبير حارب أبو بكر المنشقين(٤).

ويلخص بيرنارد لويس مسألة الردة كما يراها، ويقول:

"كانت المهمة الأولى للنظام الجديد المواجهة العسكرية مع حركة بين القبائل، عرفت تقليدياً باسم "الردة". وهذا المصطلح يشكل تحريفاً لمغزى الأحداث، قام به مؤرخون لاحقون ممن اصطبغت رؤيتهم بالمنظور الديني. ورفض القبائل الاعتراف بخلافة أبي بكر لم يكن بالواقع ارتداد أناس كانوا قد أسلموا سابقاً والعودة إلى وثنيتهم القديمة، وإنما الإنهاء الآلي لعقد سياسي لدى موت أحد أطرافه بكل بساطة. والقبائل الأقرب إلى المدينة كانت بالواقع قد أسلمت، وأصبحت مصالحها متطابقة مع "الأمة"، بحيث لم يسجل لها تاريخ منفصل. أما بالنسبة إلى البقية، فإن وفاة الرسول قد قطعت روابطها بالمدينة بشكل آلي، والأطراف استأنفت عملها بحرية. وهي لم تشعر بشكل من الأشكال أنها ملتزمة بانتخاب أبي بكر، الأمر الذي لم تشارك به، فبادرت فوراً إلى تعليق المعاهدة وأداء الزكاة. ومن أجل إعادة تثبيت سيطرة المدينة، كان على أبي بكر أن يعقد معاهدات

جديدة. وبينما قبل بعض القبائل الأقرب بذلك، فإن الأبعد رفضت، واضطر أبو بكر لإخضاعها عسكريا، تمهيداً لاعتناقها الإسلام[٥]".

ويتميز مونتغمري وات عن الأساتذة السابقين بكونه أكثر تقبلاً لوجهة نظر المؤرخين المسلمين، ويقول:

"لاشيء غريباً أو مستحيلاً في حركة جماعية نحو الجماعة الإسلامية خلال عامي ٩ و١٠ للهجرة، وعليه، فلا مبرر للرفض غير المتحفظ لرواية المصادر لأنها تمجِّد محمد. ففي العقل التحليلي الأوروبي، قد تكون تلك حركة سياسية، ولكن في الواقع الشمولي للأحداث، لم يكن هناك فصل بين العوامل السياسية والدينية. والردَّة هي ردُّ فعل على تلك الحركة. لم تكن مجرَّد بعث لشيء قديم، سواء كان وثنياً أو نصرانياً منحازاً إلى بيزنطة أو فارس. ولاشك أن جذوره في هذه الديانات، لكن ردَّ فعل الوثنيين أو النصارى من العرب على تنامي الجماعة الإسلامية قد أنتج شيئاً جديداً. وفوق ذلك، فكما في الحركة نحو الإسلام، كذلك في الردَّة، كانت العوامل السياسية والدينية تمتزج بحيث لايمكن الفصل بينها. وعليه، فالمؤرخون المسلمون كانوا على حقٍّ عندما اعتبروها [الردة] حركة دينية، والأساتذة الأوروبيون هم الذين أخطأوا عندما نظروا إلى "الدين" بمفهوم أوروبي وليس عربي. فالردة كانت حركة ابتعاد عن النظام الإسلامي، دينياً، اجتماعياً، اقتصادياً، وسياسياً، وعليه فهي ضد الإسلام[٦]".

ومع أن الرواية التقليدية تؤكد أن غالبية قادة الردة طرحوا أنفسهم أنبياء، وكان طبيعياً أن تنعتهم بالكذبة، إلا أنها مع ذلك تورد القليل

من المعلومات عن تعاليمهم الدينية. وليس هناك تقريباً مايمكن إضافته إلى ماقاله المؤرخون المسلمون عن النواحي الدينية للحركات التي قادها أولئك الأنبياء[٧]. وحول هذا الموضوع يقول وات:

"في البحرين وعمان، يبدو أنه كان هناك القليل من ذكر الدين؛ ولكن فيما عداهما كانت السمة الخاصة للردة هي ظهور "أنبياء كذبة"، كل منهم يبشر بديانة جديدة، يشكل هو مركزها. ومصادرنا ضئيلة جدّاً بحيث لاتشكل أساساً متيناً لمعرفة خلفية هؤلاء الأنبياء، مدى استلهامهم الإسلام، ومدى كون ظهورهم رد فعل مثيل على أوضاع مثيلة، ولكن بشكل مستقل. ونحن لانعلم إذا كان أتباعهم من البدو أصلاً أم من المزارعين. فإن كانوا حضريين، فقد تكون حركاتهم ردّاً على التحدي الذي قاعدته بروز الإسلام - الانتقال من اقتصاد البداوة إلى الاستقرار؛ وإن كانوا بدواً، فالتحدي قد يكون الآثار المدمرة للعداوات المستمرة. والانطباع الحاصل هو أن مسيلمة فقط كان يحاول التعامل مع المشاكل الاقتصادية والاجتماعية في منطقته؛ لكن ذلك قد يعود إلى غياب الأدلة عن الآخرين[٨]".

***

لماذا أسميت هذه الحركة "الردة"؟ ومامدى اتساعها؟. هذان هما السؤالان اللذان سيدور البحث حولها في هذا الفصل. ولعله من العملي في معالجة السؤالين، استعراض الروايات في المصادر التقليدية، مقارنتها ومحاولة استخلاص بعض النتائج التي قد تمكن من الإجابة عليهما.

خلال العام ١٠هـ، يذكر أن الرسول بعث عماله إلى القبائل التي أسلمت لجباية الزكاة[٩]. ويروي ابن اسحق مايلي:

"وفيها بعث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أُمراءَه وعماله على الصدقات، فبعث المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة إلى صنعاء، فخرج عليه العنسي وهو بها، وبعث زياد بن لبيد الأنصاري إلى حضرموت على صدقاتهم، وبعث عدي بن حاتم الطائي على صدقات طيِّئ وأسد، وبعث مالك بن نويرة اليربوعي على صدقات بني حنظلة، وجعل الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم على صدقات سعد بن زيد مناة بن تميم، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى البحرين، وبعث علي بن أبي طالب إلى نجران ليجمع صدقاتهم وجزيتهم ويعود، ففعل وعاد"[١٠].

إذا أمكن إثبات صحة رواية ابن اسحق هذه، التي تخبرنا عن تلك القبائل خارج الحجاز التي كان يفترض فيها أداء الزكاة، وأمكن التحقق من مسألة أي منها قام بذلك فعلاً، وأي لم يفعل ولماذا، فعندها يمكن التأسيس للإجابة على قضية مفصلية فيما يتعلق بطبيعة الردة ومداها.

إن قائمة أسماء عمال الرسول التي توردها المصادر الأخرى، تؤكد رواية ابن اسحق. إلا أنها تضم أيضاً أسماء عمال الرسول إلى قبائل الحجاز ووادي القرى، التي يعتبرها ابن اسحق، كما يبدو، أمراً مفروغاً منه[١١]. وفقط نصارى نجران يذكر أنهم أدَّوا الزكاة والجزية[١٢]؛ بينما كان على أبي بكر أن يستوفي الزكاة من الآخرين بالقوة. لكن الدلالة الأقوى على صحة روايةابن اسحق هي الأخبار

التي توردها المصادر حول الأحداث في نواحي الجزيرة المختلفة غداة وفاة الرسول.

وفي هذا الفصل، كما في الفصل الأول، سيجري عرض مسار الأحداث بالترتيب الجغرافي، وليس التسلسل الزمني.

١ - الحجاز:

لقد ذكر أعلاه أن قبائل الحجاز انضوت تحت لواء دولة الإسلام وحددت مصالحها مع تلك الدولة. والغالبية العظمى من المصادر تستثني القبائل في مكة، المدينة ، والطائف، من الردَّة. إلا أن هناك رواية تفيد بأن غالبية أهل مكة كانت على وشك الارتداد لولا سهيل بن عمر[١٣]. وزيف هذه الرواية تؤكده حقيقة أن لامصدر آخر يذكر أية حركة ضد الإسلام في مكة أو المدينة. بل على العكس، فإن غالبية المصادر، مع عدم وضوحها وارتباكها حول النواحي الأخرى من الجزيرة، لالبس فيها، وتورد أخباراً جازمة، فيما يتعلق بعدم مشاركة سكان الحرمين، مكة والمدينة، في الردة[١٤].وبرهان آخر على زيف هذه الرواية هي حقيقة أن غالبية قادة جيش المسلمين في "حروب الردَّة" كانوا من أشراف بطون مكة[١٥].وفي إطار العلاقات الاجتماعية القائمة آنذاك بين القبائل في الجزيرة، يصعب تصور انقلاب البطون على أشرافها. ويبدو أن هذه الرواية، حول الردة في مكة، هي تلفيق لاحق يهدف إلى تشويه سمعة المكيين وحاكمهم الأموي؛ والحديث المنسوب إلى الرسول عن سهيل بن عمر، إنما يضم إلى الرواية ليضفي عليها مصداقية. والحديث ينبئ بموقف محمود، يتخذه سهيل خدمة للإسلام في لحظة حرجة[١٦].

لقد حافظ الحجاز على ولائه العام لدولة الإسلام، ليس في المدن الثلاث ـ مكة،المدينة، الطائف ـ فحسب، وإنما بين القبائل البدوية التي اقتفت أثرها أيضاً. فهذه القبائل كانت تعتمد اقتصادياً وسياسياً على هذه المدن الثلاث،وقد أسلمت مبكراً، كما خفَّت استجابة لدعوة إبي بكر بإرسال الكتائب لمقاتلة القبائل المرتدة[١٧].

إن المسألة التي اختلف حولها أهل الحجاز وتشاحنوا لم تكن في دعم دولة الإسلام، أو عدمه؛ وإنما كانت تتمحور حول قضية الخلافة. ومع ذلك، وعلى الرغم من المشاكل، استطاع الحجاز أن يجند مايكفي من القوة العسكرية لمحاربة "المرتدين"، وبالتالي إخضاع الجزيرة وبدء حركة الفتوح. وأخذاً بالاعتبار الوضع في المدينة بعد وفاة الرسول، يبدو أن المكيين وحلفاءهم من القبائل البدوية في الحجاز قد لعبوا الدور الأهم في مسار الأحداث اللاحقة. وبينما عمل المكيون وحلفاؤهم بانسجام تام كما يبدو، فإن عداء الأنصار للقيادة المكية لم يفتر سريعاً. والمزيد حول هذا الموضوع سيتبع أدناه.

٢ – نجد:

لأسباب تتعلق بتسلسل الأحداث في الردَّة، يفضل البدء بمجموعة القبائل –غطفان، طيِّئ، وأسد– ومعالجة الأوضاع فيها معاً. ثم يأتي دور تميم، ومن بعدها بنو حنيفة، حيث في كل منهما، اختلفت الأوضاع كثيراً عنها في المجموعات الأخرى.

أ– غطفان، طيِّئ، وأسد:

بحسب رواية ابن اسحق، أوفد الرسول عدي بن حاتم، أحد سادة

طيِّئ، ليجبي الزكاة من قبيلته ومن بني أسد. والواضح أن المقصود ب"أسد" في هذه الرواية هي تلك الأقلية من تلك القبيلة، التي كانت تعادي طلحة، وبالتالي فقد انحازت إلى الرسول[١٨]. والواضح أيضاً أن عديّاً قد جبى زكاة بطن من طيِّئ، خاصة وأن البطون الأخرى وقفت إلى جانب طلحة في "الردة"، كما سيبين أدناه.

وفي رواية ابن اسحق لايرد ذكر غطفان. إلا أن البلاذري، الذي يؤكد ابن اسحق عموماً، يذكر بعض الجماعات من غطفان[١٩]. والمصادر الأخرى تؤكد رواية البلاذري، وتورد ذكر بعض الجماعات التي امتنعت عن أداء الزكاة من غطفان[٢٠]. والغالب أن تلك البطون من غطفان، التي تحالفت مع الرسول، طلب منها، أسوة بغيرها، أداء الزكاة.

وتجدر هنا الملاحظة أن لاابن اسحق، ولاغيره من المصادر، يذكر طلحة كعامل للمدينة على قبيلته- أسد. وبينما، بحسب ابن اسحق، تمَّ تعيين سيِّدين من طيِّئ وتميم عاملين للمدينة، وأوكلت إلى كل منهما مهمة جباية الصدقة (الزكاة) من قبيلته، فإن رجلاً من طيِّئ -عدي بن حاتم- جرى تعيينه عاملاً في أسد. وأخذاً بالاعتبار العداوة القديمة بين أسد وطيِّئ، وكذلك سلوك الرسول تجاه القبائل الأخرى في المنطقة، فإنه يبدو غريباً أن يعين عاملاً على أسد رجل من خارجها، وخاصة من قبيلة طيِّئ المعادية. وتعيين عدي لايمكن أن يكون على كل أسد. وغياب اسم طلحة من رواية ابن اسحق، وكذلك سلوك أسد بقيادة طلحة خلال الردة، يساعدان في تفسير هذه الرواية.

ومهما يكن، فلا يرد ذكر لأحد في هذه المجموعة من القبائل أدّى الزكاة فعلاً إلى الرسول. ويقال أن عديّاً قد جمع الزكاة؛ ولكن قبل أرسالها إلى المدينة، توفي الرسول. وعليه، تعرض عدي لضغط من قبيلته لإعادة ماجمعه لأصحابه، لكنه نجح في تهدئتها وأقنعها بانتظار التطورات في المدينة. ولما انتخب أبو بكر، وسيَّر جيش أسامة، سارع عدي بإرسال الصدقة إليه(٢١). ولكن فزارة وسُلَيم، وهما بطنان من غطفان، فقد استعادا ما أدَّياه من زكاة، وأجبرا عاملي الرسول على الهروب(٢٢).

والمصادر تتحدث عن قدوم وفد عن هذه القبائل إلى المدينة للتفاوض مع أبي بكر؛ فطلب الإعفاء من أداء الصدقة، وتعهد بإقامة الصلاة. لكن أبا بكر رفض هذا الطلب(٢٣). وإذا صحت هذه الرواية، فإن هذه القبائل كانت ترغب بالتحالف مع المدينة، ولكن دون الالتزام المالي. وتجمع المصادر على قول أبي بكر: "والله لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه"(٢٤). وبإصرار أبي بكر على جباية الصدقة، وامتناع القبائل عن أدائها، لم يبق من خيار إلا الاحتكام للسلاح، وهذا ما حصل فعلاً.

فعندما فشلت المفاوضات، عاد الوفد إلى دياره يحمل أخبارها. فقرر البعض الالتزام بالاتفاق الذي كان له مع الرسول، وبعث الصدقة إلى المدينة(٢٥)، أما الآخرون - من القبائل الثلاث، غطفان، أسد، وطيّئ- فقد راحوا يعدون للحرب مع المدينة، وعقدوا حلفاً بينهم، والتفوا حول طلحة بن خويلد، سيد أسد(٢٦)، الذي تقدمه الرواية التقليدية على أنه نبيٌّ كذاب. وهذا

التحالف هزم في معركة البزاخة، التي سيتم التطرق إليها لاحقاً.

ب – تميم:

ومع أن تميماً لم تعتنق الإسلام في حياة الرسول، إلا أنها كما يبدو، وافقت على أداء الصدقة للمدينة[٢٧]. ورواية ابن اسحق تؤكد ذلك، وتسمي ثلاثة من سادة بطون مختلفة من تميم، كانوا على الصدقات، وهم: مالك بن نويرة، الزبرقان بن بدر، وعاصم بن قيس. وهناك روايات تذكر أن الرسول عيَّن سبعة من هؤلاء السادة لهذه المهمة[٢٨]. لكن أحداً منهم لايرد له ذكر بأنه أدَّى الصدقة فعلاً.

وجاءت وفاة الرسول، وما أعقبها من نزاع في المدينة، ليضعا سادة تميم المتنافسين في موقف حرج. فالواضح أن القبيلة لم تكن ترغب بأداء الصدقة، بينما سادة البطون المختلفة يتنافسون فيما بينهم على الزعامة، والوضع في المدينة يكتنفه الغموض. ولو أدى الواحد من هؤلاء السادة الصدقة إلى المدينة، ومن ثمَّ تدهور الوضع فيها، لفقد هيبته في القبيلة، خاصة إذا كان الآخرون امتنعوا عن أدائها. وإن لم يفعل، وأثبت أبو بكر قدرته على خلافة الرسول، فإنه يفقد سمعته في المدينة، خاصة إذا كان الآخرون قد أدَّوا الصدقة[٢٩].

وفي هذه الأثناء، وبينما تميم منقسمة على نفسها إلى فرق متشاحنة، ظهرت "النبية الكذابة سجاح" في القبيلة، فعمقت الشرخ داخلها[٣٠]. وبعض سادة تميم تحالف مع سجاح، والبعض الآخر وقف ضدها، وفريق ثالث تردد بالانحياز إلى أي طرف كان[٣١]. ولكن، فيما عدا مالك بن نويرة، فإن سادة تميم، الواحد تلو الآخر، بعث الصدقة إلى المدينةقبل أن يصل جيش المسلمين إلى دياره[٣٢].

أما مالك فقد حجب الصدقة، ولم يقتف أثرأترابه، حتى عندما وطِئ جيش المسلمين أرضه. فوقع في أسر خالد بن الوليد، وقتل بناءً على أمره[٣٣].

وهكذا، فإن الأحداث التي وقعت في قبائل غطفان ، طيِّئ، أسد، وتميم، بعد وفاة الرسول، تؤكد رواية ابن اسحق. فالدلائل تشير إلى أن بعض القبائل أرسل الصدقة إلى المدينة، والبعض الآخر حجبها، وأرسل وفداً للتفاوض مع أبي بكر، بينما فريق تحدى الخليفة الجديد، وراح يستعد للحرب. وهذا يؤكد رواية ابن اسحق من أن الرسول، قبل وفاته، قد أرسل عماله لجمع الصدقة من القبائل التي تحالفت مع المدينة في تلك المنطقة.

جـ ـ بنو حنيفة:

لم يتمَّ التوصل إلى اتفاق بين الرسول وبني حنيفة حول التحالف أو أداء الصدقة، والغالبية العظمى من القبيلة وقفت مع مسيلمة في حياته. ورواية ابن اسحق لاتذكر بني حنيفة بين القبائل التي بعث الرسول إليها عماله لجمع الصدقة. وهذا يدعم الاستنتاج الذي تمَّ التوصل إليه في الفصل الأول حول مدى سلطة الرسول على بني حنيفة، كما أن الأحداث اللاحقة في القبيلة، بعد وفاة الرسول، تؤكد رواية ابن اسحق. والقضايا التي تطرحها الروايات بالنسبة إلى بني حنيفة، تختلف عن تلك المتعلقة بقبائل نجد الأخرى. فهنا، القضية المركزية ليست الصدقة، وإنما نبوة الرسول بالذات، ومن ثمَّ سيادة المدينة في الجزيرة[٣٤]. وادعاء مسيلمة النبوة، هو بحد ذاته، نفي لنبوة الرسول، خاصة بعد إعلانه أنه "خاتم النبيين". وإصرار قادة

بني حنيفة على تقاسم السلطة في الجزيرة مع المدينة(٣٥)، يقطع الطريق على خطة الرسول، ومن بعده أبي بكر، لتوحيد الجزيرة تحت راية الإسلام.

وكان بنو حنيفة قبيلة قوية وموحدة بقيادة مسيلمة(٣٦). وذلك النمط من المشاحنات الذي تتحدث عنه المصادر في تميم، غطفان، أسد، وطيِّئ، ليس له وجود في بني حنيفة. وتلك الجماعة الصغيرة المنشقة من القبيلة، والتي كانت معادية لمسيلمة بقيادة ثمامة بن أُثال، الذي تحالف مع المدينة، لم تكن ذات أهمية تذكر. وتلك القلة من الأفراد المناوئين لمسيلمة، كانت ضعيفة إلى حدٍّ أنها اضطرت للهروب من اليمامة، عندما بدأ مسيلمة يعد نفسه للمواجهة المرتقبة مع جيش المسلمين(٣٧). وبنو حنيفة، بقيادة مسيلمة، خاضوا المعركة الأشد شراسة مع ذلك الجيش في الجزيرة كلها(٣٨). فليس كالآخرين في نجد، ممن كانوا على استعداد للقبول بسلطة المدينة، على أن يُعفوا من أداء الصدقة، كان بنو حنيفة حازمين في قرارهم الحفاظ على استقلالهم وقتال من يدخل منطقتهم عنوة. ولايرد في المصادر ذكر لمسألة الصدقة بالنسبة إلى بني حنيفة.

وبالمقارنة مع الآخرين، فإن سلوك بني حنيفة يؤكد رواية ابن اسحق بأن هذه القبيلة لم تطالب بأداء الصدقة. وهذا يشير إلى أنها كانت مختلفة عن القبائل الأخرى في نجد، والقتال معها لم يكن بسبب انتهاك اتفاق معقود، أو تمرد على سلطة سابقة، أو حجب صدقة واجبة، بل كانت حرباً لإخضاع هذه القبيلة لسلطة المدينة للمرة الأولى. ومع ذلك، فالمصادر التقليدية تضم المعارك مع بني

حنيفة إلى حروب الردَّة.

٣ - المناطق الساحلية:

أ - البحرين:

إن التقارير الواردة من المصادر حول الردَّة في البحرين هي في الغالب نتف لاتشكل رواية كاملة عما جرى في هذه المنطقة غداة وفاة الرسول. وهناك ارتباك في المصادر حول العلاء بن الحضرمي، الذي يتكرر اسمه فيما يتعلق بالبحرين ، والذي، كما يبدو، قام بعدة مهمات في تلك المنطقة. وحسب رواية ابن اسحق، بعث الرسول العلاء، في عام ١٠هـ، ليجمع الصدقة من البحرين. وفي رواية أخرى، يقدم المصدر ذاته خبراً يفيد بأن العلاء بقي في البحرين عاملاً للرسول، حيث كان أرسله إلى المنذر بن ساوى، "ملك" البحرين[٣٩]. وفي الخبر ذاته، يذكر ابن اسحق أن العلاء كان قائد جيش المسلمين الذي فتح البحرين في خلافة أبي بكر[٤٠]. إلا أنه ليس من الواضح أن العلاء كان في البحرين لدى وفاة الرسول، وهل بقي هناك، أم أنه عاد إلى المدينة، ولماذا؟ والمصادر مبهمة أو صامتة حول هذه الأسئلة، وهي توفر نتفاً من المعلومات حول خلفية الأوضاع في البحرين. لكن الجمع بين هذه النتف الضئيلة والمفرقة يعطي جواباً ذامغزى على هذه الأسئلة.

وبدون ذكر مصادره، يورد البلاذري الرواية التالية: لقد صرف الرسول العلاء وعين أبان بن سعيد بن العاص بن أمية عاملاً على البحرين. ويقول آخرون أن العلاء كان على جهة من البحرين،

ضمت القطيف، وأبان على جهة أخرى، ضمت الخط. والرواية الأولى هي الأوثق. وفي الخبر اللاحق، تقول: وعندماتوفي الرسول غادر أبان البحرين وطلب الناس من أبي بكر أن يعين عليهم العلاء، ففعل(٤١).

ويورد سيف بن عمر ثلاثة أخبار، تضيف بعض المعلومات، والنقاط الرئيسية في هذه الأخبار تؤكدها المصادر الأخرى. ففي الخبر الأول يذكر سيف أن المنذر بن ساوى توفي بعد الرسول بفترة قصيرة(٤٢). وفي الثاني يضيف أن المنذر كان منشغلاً بقتال قبيلة ربيعة في آخر أيامه. وبعد موته حوصر أتباعه في موقعين، حتى جاء العلاء وأنقذهم(٤٣). والثالث يوفر مزيداً من المعلومات حول ثورة ربيعة على المنذر بن ساوى. وبحسب هذا الخبر، فإن الحطم بن ضُبيعة (وهو من قيس بن ثعلبة، من بكر بن وائل، من ربيعة) ثار على المنذر بعد وفاة الرسول بفترة قصيرة. وقد ضم أتباع الحطم "المرتدين" من ربيعة وغيرهم ممن لازالوا "مشركين". فأخذ القطيف ثمَّ هَجَر، واستمال أهل الخط إلى جانبه. ثم حاصر قبيلة عبد القيس، التي كانت تساعد المسلمين. وكان يريد أن ينصب سليلاً للعائلة الملكية في الحيرة "ملكاً" في البحرين. ولما اشتد الحصار على المسلمين طلبوا المدد من أبي بكر، فأرسل إليهم العلاء لمحاربة "المرتدين" في البحرين(٤٤).

ويتضح من هذه الأخبار أن الرسول بعث عاملاً، وربما اثنين، إلى البحرين لجمع الصدقات. وهذا يؤكد رواية ابن اسحق. وفي البحرين، ووجه عمال الرسول بثورة ربيعة على المنذر بن ساوى -

حليف الرسول. وقد اضطر عامل الرسول، أو عاملاه، إلى الهروب من البحرين والعودة إلى المدينةإزاء هذه الثورة. وبعد أن استتب الأمر لأبي بكر في المدينة، وأرسل جيشاً من المسلمين لمحاربة قبائل نجد، فإن أتباع المنذر (الذي توفي في هذه الأثناء، كما يبدو) طلبوا النجدة من أبي بكر. فأرسل الخليفة العلاء، على رأس قوة من تميم،حسب الرواية، لمحاربة ربيعة وإخضاع البحرين[٤٥].

وكما في اليمامة، كذلك في البحرين، فالقضايا التي تتناولها المصادر تختلف عن تلك في نجد؛ فهنا لاتثير تلك المصادر مسألة الصدقة. ومن الواضح أن عمال الرسول لم يجبوا مثل هذه الصدقة في حياته. وحليف المدينة، الذي كان سابقاً عامل الفرس في البحرين، فقد سيطرته على القبائل هناك، وكان في حاجة ماسة لمساندة خارجية. والواضح أيضاً، أن التمرد في البحرين كان مختلفاً تماماً عما جرى في نجد واليمامة - ومع ذلك، وعلى الرغم من الفارق الواضح، فإن المصادر التقليدية تضم هذه الحركة إلى الردَّة.

ب - عمان:

من نواح متعددة، كان الوضع في عمان يشبه ذلك في البحرين آنذاك. فهنا أيضاً، دعم الرسول ابني عامل الفرس السابق. وفي رواية ابن اسحق، لايرد ذكر عمان. إلا أن مصادر أخرى تورد أخباراً (بعضها يسند إلى ابن اسحق نفسه)، تفيد بأن عمرو بن العاص كان عامل الرسول في عمان. وهذه المصادر تؤكد أن عمرواً كان في عمان لدى وفاة الرسول. وهي أيضاً تتفق على أنه غادر عمان عندما

وصلته أنباء وفاة الرسول(٤٦).

وبحسب الرواية التقليدية، بعث الرسول عمرواً إلى عمان، في عام ٨هـ(٤٧). وبدون ذكر مصادره، يقول البلاذري أن الرسول أمر عماله بجمع الصدقات من الأغنياء وتوزيعهاعلى الفقراء(٤٨). وهذا ،حسب المصادر، كان الحال في اليمن أيضاً، حيث أمر العمال بتوزيع الصدقات على الفقراء(٤٩). وهاتان الحالتان كثيراً مايستشهد بهما الفقهاء في قضايا الصدقة والمستفيدين منها. وفي الواقع، فإن البلاذري يقدم هذه المعلومات في سياق تشريعي.

والمعلومات الأولية حول عمان في هذه المرحلة ضئيلة ومفتتة. لكن هذه النتف من المعلومات بمجموعها، تقدم صورةواضحةإلى حد معقول عن الأحداث في عمان غداة وفاة الرسول. وجميع المصادر التقليدية تتفق أن الرسول بعث عمرو بن العاص إلى ابني الجلندي فقط(٥٠). ويضيف ابن حبيب أنهما عندما أسلما، حققا السيادة في عمان(٥١). ولايرد أي ذكر لاتصال مع لقيط بن مالك، إلا أن هذا الأخير، كما يصفه سيف بن عمر، كان ندّاً للجلندي قبل الإسلام(٥٢). ولقيط، المعروف ب"ذي التاج"، والذي يروى أنه "ارتدَّ" بعد وفاة الرسول، أجبر ابني الجلندى، حليفي الرسول، علىاللجوء إلى الجبال(٥٣). وتجدر الملاحظة إلى أن البلاذري لايذكر ان جيفر بن الجلندى قد طلب مساعدة أبي بكر، مع أن سيف بن عمر يقول أن جيفر فعل، فأرسل الخليفة جيشاً إلى عمان لنصرته.

وهذه الأخبار تؤكد رواية ابن اسحق: لم يرسل عامل للمدينة إلى عمان في عام ١٠هـ، وذلك لأن عمرو بن العاص كان هناك. كما

أنها تشير بوضوح إلى أن ابني الجلندى قد فقدا السلطة التي تمتع بها والدهما في عمان. وكذلك، فمن الواضح أن لقيط وأنصاره لم يتحالفوا مع المسلمين. بل على العكس، فقدظلوا يعادونهم، ولعلهم أجبروا عمرو على الهروب من عمان لدى وفاة الرسول. هناك شبه كبير بين حركة لقيط في عمان وحركة الحطم في البحرين. ولكن، على الرغم من اختلافها الواضح عن الحركات الأخرى في الجزيرة آنئذ، فإن ثورة لقيط تعتبر في الروايات التقليدية ردة.

جـ - اليمن:

لقد كانت الأوضاع باليمن في هذه الفترة، تختلف عنها في أية منطقة أخرى في الجزيرة. فبينما تقلص حكم الأبناء لينحصر في صنعاء فحسب، وأخذاً بالاعتبار العدد الكبير من القبائل المقيمة في المنطقة، في غياب قائد ذي مكانة يقوم مقام الأبناء: سادت الفوضى في اليمن. وتفيد المصادر أن عدداً كبيراً من القبائل في اليمن، أرسل وفوداً إلى المدينة، وعليه، يفترض أنها أسلمت(٥٥). والروايات التقليدية ترسم صورة مفادها أن كل المنطقة إلى الجنوب من مكة قد أسلمت في وقت قصير جدّاً، وعليه، عين الرسول عمالاً على القبائل، وكأنها كانت تحت سيطرته(٥٦). وهذه الصورة لا أساس لها بالواقع، كما يتضح من تمحيص الأخبار الكثيرة حول أحداث اليمن لدى وفاة الرسول. والعديد من هذه الأخبار سيناقش أدناه، ولكن تصنيف الأحداث الرئيسية الواردة في المصادر بداية، قد يساعد على توضيح الصورة في اليمن.

وتفيد الأخبار أن اليمن أسلمت، واعتمد الرسول باذام، رأس

الأبناء، عاملاً له على اليمن[٥٧]. وبعد موت باذام، عين الرسول عدداً من العمال على القبائل المختلفة في اليمن[٥٨]. فثار عليهم الأسود العنسي وأجبرهم على الفرار من اليمن[٥٩]. وقيس بن مكشوح وعمر بن معديكرب تعاونا مع الأسود؛ وفي صنعاء كان الأبناء في حاشية الأسود[٦٠]. وتآمر قيس مع الأبناء ضد الأسود وقتلوه[٦١]. وبعد موت الأسود، عين أبو بكر فيروز، أحد قادة الأبناء البارزين، عاملاً على صنعاء[٦٢]. وعندها، انقلب قيس على الأبناء وطردهم من صنعاء[٦٣]. فأرسل أبو بكر جيشاً بقيادة المهاجر بن أبي أمية لإخضاع قيس بن مكشوح[٦٤].

وبحسب رواية ابن اسحق، بعث الرسول المهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء، وزياد بن لبيد إلى حضرموت، عمالاً له في عام ١٠هـ. وكذلك بعث علي بن أبي طالب إلى نجران، ليجمع الصدقة من المسلمين، والجزية من سواهم. وعلي هو الوحيد الذي يذكر أن جمع الصدقة وعاد[٦٥]. إلا أن هناك اختلافاً فيما يتعلق بالمهاجر. والاختلاف في الروايات يتمحور حول من كان عامل الرسول في صنعاء: المهاجر، خالد بن سعيد، أم شهر بن باذام من الأبناء؟[٦٦]. البلاذري وابن حبيب يقولان أن خالداً كان على صنعاء، بينما المهاجر على كندة والصَّديف[٦٧]. ويضيف البلاذري: بعد وفاة الرسول، جمع أبو بكر كندة والصديف إلى زياد بن لبيد، وعين المهاجر عاملاً في صنعاء[٦٨]. أما الطبري، وفي أعقابه ابن الأثير، واستناداً إلى سيف بن عمر كما يبدو، فيقولان أن الرسول عين شهر بن باذام على صنعاء، خالد بن سعيد على المنطقة بن نجران وصنعاء، والمهاجر على كندة. ويضيفان أن المهاجر لم يذهب إلى عمله في

حياة الرسول[٦٩].

وبالإضافة إلى العمال الثلاثة - زياد، المهاجر، وعلي - الوارد ذكرهم في رواية ابن اسحق، فإن المصادر الأخرى تذكر عدداً آخر ممن اسندت إليه مهام في أمكنة أخرى إلى الجنوب من مكة. إلا أنه توجد اختلافات في هذه المصادر أيضاً، حول من عُيِّنَ أين. ويبدو أن هذه الاختلافات نبعت من العدد الكبير للقبائل المعنية، ومن عدم الاستقرار الذي ساد في تلك المنطقة. ومع ذلك، يمكن الافتراض أن الرسول أوفد العديد من العمال إلى اليمن، ليس فقط لجمع الصدقات، وإنما أيضاً لتعليم الإسلام ونشره، وكذلك لتوحيد حلفاء المدينة في مواجهة الآخرين.

وبحسب ابن اسحق، الأسود ثار على المهاجر، فور وصول هذا الأخير إلى اليمن. والمصادر الأخرى تؤكد رواية ابن اسحق، من أن ظهور الأسود وسقوطه وقعا في حياة الرسول[٧٠]. وليس هناك من ذكر بأن الأسود وقبيلته أسلما، أو تحالفا مع الرسول. وعلى العكس، فإن الخبر الوحيد الذي يتحدث عن اتصال بينهما، ينفي التوصل إلى أي اتفاق. إلا أن صدقية هذا الخبر كانت موضع شك، حتى بين الرواة المسلمين أنفسهم[٧١].

لقد انتشرت حركة الأسود كالنار. ويذكر أنه استولى على نجران و صنعاء، وكل اليمن في بضعة أسابيع[٧٢]. ويورد سيف بن عمر خبراً مفاده أن الأسود كتب إلى عمال الرسول يخاطبهم على أنهم غرباء دخيلون، ويأمرهم بتسليم ماجمعوه من الصدقات في اليمن إليه. وكان يعتبر نفسه أحق بها منهم[٧٣]. ولكن عمال الرسول هربوا

من اليمن؛ فمنهم من توجه إلى حضرموت لاجئاً إلى زياد، ومنهم من ذهب إلى الطاهر بن أبي هالة، في قبيلة عَكٍّ، وآخرون عادوا إلى المدينة[٧٤].

لقد اغتيل الأسود على يد مجموعة من المتآمرين في حاشيته. وقصة الاغتيال يرويها الطبري استناداً إلى سيف بن عمر، الذي أخذها عن عبد الله بن فيروز الديلمي، أحد قادة الأبناء البارزين، والذي كان شريكاً في المؤامرة[٧٥]. وفي شكلها القائم، تبدو القصة تصويرية إلى حد يصعب معه قبولها كاملة. فهي أشبه ماتكون بقصص "ألف ليلة وليلة"؛ لكن النقاط الرئيسية فيها تؤكدها المصادر الأخرى. والأشخاص الأساسيون في المؤامرة هم: قيس بن مكشوح المرادي، فيروز الديلمي، وزوجة الأسود نفسه.

ويقال أنه عندما أخذ الأسود صنعاء، قتل شهر بن باذام وتزوج أرملته[٧٦]. وبالتعاون مع هذه الزوجة، دخل المتآمرون بيت الأسود وقتلوه[٧٧]. والعلاقة بين المتآمرين أنفسهم، كما بينهم وبين الرسول، غير واضحة في المصادر. فبحسب البلاذري، بعث الرسول قيساً لمحاربة الأسود، وأمره أن يستميل الأبناء إلى جانبه. ولإنجاز هذه المهمة، بعث الرسول فروة بن مسيك، سيد قبيلة مراد، ليعين قيساً. ولما وصل الإثنان إلى اليمن، وردت الأخبار عن وفاة الرسول. وتظاهر قيس أنه يوافق الأسود، كي يتمكن من دخول صنعاء. وهناك نظم قيس المؤامرة ضد الأسود؛ وتعاون في ذلك مع الأبناء، ونجح أخيراً في قتل الأسود[٧٨].

أما سيف بن عمر، فيقدم قصة أخرى حول مقتل الأسود. وأخباره

تعود في سندها إلى بعض الأبناء. ولعل ذلك هو السبب في أن الأبناء في هذه الرواية يلعبون دوراً أكثر بروزاً في اغتيال الأسود من قيس. ويقول سيف أن الأسود ظهر بعد "حجة الوداع" لما بدا الرسول متوعكاً[٧٩]. وفي نفس الوقت ثار قيس على فروة بن مسيك، سيد مراد وعامل الرسول على قبيلته[٨٠]. فعين الأسود الشاعر والمحارب، عمرو بن معديكرب، عاملاً على قبيلة مذحج؛ وفي صنعاء، عين قيساً قائداً لجيشه، وفيروز رئيساً على الأبناء[٨١]. ومالبث الأسود أن ثبت حكمه في اليمن، حتى راح يضطهد قيساً والأبناء[٨٢]. وعندها، أرسل الرسول كتاباً إلى الأبناء، يحثهم فيه على محاربة الأسود بكل الوسائل. وبقيادة فيروز، أخذوا على عاتقهم مهمة تدبير المؤامرة ضد الأسود[٨٣].

ويبدو أن روايتي سيف والبلاذري قد تعرضتا لبعض التحرير المنحاز. فالرواة يشكون في حدوث أي اتصال بين قيس والرسول[٨٤]. وبحسب ابن اسحق، فقد رفض قيس أن يرافق خاله عمرو بن معديكرب في رحلته إلى المدينة[٨٥]. وفي الأخبار عن وفد قبيلته إلى المدينة، لايرد اسم قيس[٨٦]. ولعل الأكثر مصداقية هو أن قيساً التحق بالأسود عداءً لفروة بن مسيك. والظاهر أن فروة طلب مساعدةالرسول ضد قبيلة همدان، التي كان لتوه قد تلقى هزيمة نكراء على يديها[٨٧]. فعينه الرسول عاملاً على مراد، زبيد، ومذحج[٨٨]. ولعله على خلفية هذا التعيين اقترح عمرو بن معديكرب على ابن أخته قيس مرافقته في الوفد إلى المدينة، لقطع الطريق على فروة من تحقيق مكاسب على حسابهما[٨٩]. لكن قيساً رفض، وعمروفشل بالحصول على دعم الرسول ضد فروة، وعليه،

التحق كل من قيس وعمروبالأسود- كما يذكر سيف.

ويبدو أن الأبناء، الذين فقدوا الدعم السابق من فارس، كانوا مستعدين لقبول أي سند خارجي يمكنهم من الحفاظ على سلطتهم في اليمن. ويقول الواقدي أن الرسول، في عام ١٠هـ، أوفد مبعوثاً إلى الأبناء يدعوهم إلى الإسلام؛ فاستجابوا وأسلموا[٩٠]. وفي خبر عن سيف، أن مبعوث الرسول ذلك، ذهب ليحثَّ الأبناء على محاربة الأسود[٩١]. وفي خبر آخر عن سيف، يرد ذكر كل من فيروز وداذويه عاملين للأسود على الأبناء[٩٢]. ويقول البلاذري أن الأسود اضطهد الأبناء عندما أخذ صنعاء[٩٣]، وبعد موت رئيس الأبناء، تجمع المصادر على أن الرسول قسَّم السلطةفي اليمن بين عمال كثيرين[٩٤].

وفي صنعاء، قبل إرسال جيش المسلمين إلى اليمن، بقيادة المهاجر بن أبي أمية، تبدو فئات ثلاث -الأسود وأتباعه، قيس وأبناء قبيلته، والأبناء- تتنافس بالطموح لحكم اليمن. ولم تكن أيٌّ من هذه الفئات تمتلك بذاتها القوة اللازمة لفرض دعواها بالسلطة على الآخرين؛ وعليه، كانت كل واحدة تراقب الأخرى وتشك بها، وبالتالي، تحيك المؤامرات سرّاً ضدها، وعليه، تسعى يائسة لتجنيد الدعم لذاتها. وعمل قيس والأبناء معاً لتصفية الأسود، ولما نجحا، تحولا ضد بعضهما. وفي الصراع بين قيس والأبناء، كانت اليد العليا للأول؛ فطردهم من صنعاء[٩٥].

ومع أن الرواية التقليدية تتحدث بإسهاب عن الترتيبات المالية التي أمر الرسول عماله التقيد بها في اليمن[٩٦]، فإن القضايا التي توردها

تلك الرواية بالنسبة إلى الأسود وقيس ليست مالية. فالمصادر لاتثير قضية الصدقة بالنسبة إلى هذه الحركة المعادية للإسلام في اليمن. والواضح أن هذه الحركة ليست ارتداداً عن ديانة جرى اعتناقها سابقاً، أو انسحاباً من تحالف تم عقده مع الرسول في الماضي. واستعراض المادة حول اليمن في المصادر يظهر أن ماجرى في تلك المنطقة آنذاك، هو رد فعل زعماء محليين على تدخل خارجي لصالح زعماء آخرين منافسين. وهذا الاستعراض يدعم رواية ابن اسحق، ويدل على أن الرواية التقليدية تبالغ في تأكيدها على انتشار الإسلام في اليمن، وبالتالي التزام القبائل بأداء الزكاة. وعليه، فلاغرو، أن تعتبر الرواية التقليدية أحداث اليمن، والصراع على السلطة هناك جزءاً من الردَّة.

٤ - الشمال:

في الفصل الأول، جرى التطرق إلى سياسة الرسول الشمالية، ومدى سيطرته في هذه المنطقة. وابن اسحق لايذكر الشمال بين المناطق التي أوفد إليها الرسول عمالاً لجباية الصدقة. وغالبية المصادر التقليدية لاتذكر أية "ردة" في الشمال. إلا أن الطبري، ومن أخذ عنه، يوردون أخباراً، بالاستناد إلى سيف بن عمر، تفيد بقيام ردة في الشمال(٩٧). ورواية سيف هذه، هي نموذج لعدم دقته؛ كما أنها تتناقض مع ذاتها، ولاتصمد أمام النقد.

وفي هذه الرواية، يورد سيف أسماء ثلاثة من العمال، أرسلهم الرسول إلى قبائل، لم تكن متحالفة معه، أو تحت سلطته. كما يذكر ثلاثة آخرين ممن "ارتدوا". فكتب أبو بكر لعماله يأمرهم بمحاربة

"المرتدين"؛ وعندما وصل أسامة هرب "المرتدون"، ولجأوا إلى دومة الجندل. ويبدو أن رواية سيف هذه لاتعدو كونها محاولة للتغطية على فشل غزوة أسامة. وصدقية رواية أسامة مشكوك فيها؛ خاصة وأن المصادر الأخرى لاتذكر أية ردة في الشمال، وابن اسحق لايذكر أحداً في هذه المنطقة كان مطالباً بأداء الصدقة. والأصح في هذا السياق هو الافتراض بأن ماجرى في هذه المنطقة في خلافة أبي بكر، يدخل في الفتوح، وليس في الردَّة.

***

إن استعراض الأحداث أعلاه، وفي مختلف مناطق الجزيرة، بعد وفاة الرسول مباشرة، يؤكد رواية ابن اسحق حول القبائل والأماكن التي طلب فيها أداء الصدقة إلى المدينة. فلقد أظهر أن الرسول أوفد عمالاً إلى القبائل المقيمة إلى الشمال الشرقي من المدينة، وكذلك إلى المناطق الساحلية، كما إلى الحجاز الذي وقف معه بحزم. وفي الشمال الشرقي، بطون من غطفان، طيِّئ، وتميم، وافقت على أداء الصدقة للمدينة. وفي المناطق الساحلية، اعترف الرسول بحكام كانوا عمالاً للفرس سابقاً، وأرسل إليهم بعض البارزين من أصحابه الأولين ليجمعوا الصدقات. وفي الشرق، لم يطلب من بني حنيفة أن يؤدوا الصدقة، ذلك لأنهم لم يتوصلوا إلى أي اتفاق مع المدينة. وهذا كان الحال مع الجزء الأكبر من أسد. وهذه الاستنتاجات تتطابق مع رواية ابن اسحق وتؤكد صدقيتها. وتثبيت صدقية رواية ابن اسحق، كما ذكر أعلاه، ذو أهمية قصوى لمسألة الردة بأكملها. ففي المقام الأول، يؤكد الاستنتاجات التي تم التوصل إليها فيما يتعلق بمدى اتساع

سلطة الرسول في الجزيرة. وثانياً، وبعد تثبيت صدقية رواية ابن اسحق، يمكن التقدم على أساسها وتفحص أيٌّ من القبائل المذكورة فيها لم تؤَدِّ الزكاة كما يتوجب عليها، وبذلك تكون قد ارتدت، وأيها لم يكن مطلوباً منه أداء الصدقة أصلاً، وبالتالي فإنه يجب استثناؤها من هذه الحركة. وهذا التمييز على درجة عالية من الأهمية بالنسبةإلى مسألة الردة، خاصة وأن جيوش المسلمين قد أرسلت لإخضاع القبائل في جميع أنحاء الجزيرة، والرواية التقليدية تسمي كل القتال الذي وقع في الجزيرة، في مسار عملية إخضاعها لسلطة المدينة، "حروب الردَّة".

وفي العرض أعلاه، تمَّ تبيان أن الحركات المتعددة التي قمعها جيش المسلمين في خلافة أبي بكر، كانت مختلفة عن بعضها بعضاً. وهي لم تكن جبهة موحدة، ويصعب القول أنه كانت بينها علاقة ذاتية ما. وهذه الحركات، كما جرى تبيانه، انطلقت لأسباب مختلفة. وبناءً على الشكل الذي اتخذته، والأسباب لانطلاقها، يمكن تصنيفها في ثلاث فئات: الفئة الأولى، وتضم الحركة في نجد، حيث الصدقة كانت المسألة الرئيسية. والثانية هي حركةبني حنيفة، حيث المسألة تتمحور حول نبوَّة الرسول وسيادة المدينة في الجزيرة؛ والثالثة هي مجموعة الحركات في المناطق الساحلية، حيث الصراع على السلطة بين الزعماء المحليين هو المسألة الرئيسية.

ومن بين هذه الفئات الثلاث، فقط الأولى -أي الحركة في نجد- يمكن -أن تسمى وبحق ردَّة: ردَّة بمعنى أن الاتفاقات التي عقدت

مع دولة الإسلام في المدينة قد انتهكت. وهذه القبائل، ممثلة بسادتها، قد عقدت اتفاقات مع الرسول، وقبلت الالتزام بأداء الصدقة. وهذه القبائل بقيادة سادتها، انتهكت الاتفاق وأدارت ظهرها لخليفة الرسول. وسواء في عقد الاتفاق مع الرسول، أو في انتهاكه مع خليفته، كان سادة قبائل نجد يمثلون قبائلهم ويحظون بدعمها. ولاتوجد مؤشرات إلى شقاق بين القبائل وسادتها. لقد حدد هؤلاء السادة مصلحتهم مع قبائلهم، وقاموا بالتزاماتهم ومسؤولياتهم تجاه أبناء قبائلهم بإخلاص. ومن نجد فقط، حسب الرواية، جاء وفد إلى المدينة للتفاوض مع الخليفة أبي بكر، حول مستقبل العلاقات بين قبائل المنطقة والمدينة في ظل القيادة الجديدة.

وبالنسبة إلى الفئة الثانية، المتمثلة ببني حنيفة، فلا مبرر لتسمية حركتهم ردَّة. وفي اليمامة، كما في نجد، وقفت القبيلة بحزم مع سيِّدها، الذي، من وجهة نظره ونظرها، عبر عن مصالحها بإخلاص. وفي اليمامة، لم تعقد اتفاقات مع المدينة، كما لم يتعهد أهلها بأداء الزكاة، ولاهم أعلنوا إسلامهم، والقبيلة وقفت بحزم مع الحفاظ على استقلالها. وبينما الصدقةهي الموضوع الذي يتكرر ذكره في المصادر بالنسبة إلى نجد، ففي اليمامة القضية هي نبوة مسيلمة ومطالبته الرسول باقتسام السلطةفي الجزيرة مع المدينة. وتصميم بني حنيفة على الدفاع عن موقفهم بهذا الخصوص لايمكن اعتباره ردَّة.

وبالنسبة إلى الحركات في الفئة الثالثة (أي في البحرين، عمان، واليمن)، ومع الاختلاف بين بعضها بعضاً، فلا يمكن اعتبار أي منها ردَّة أيضاً. ففي هذه المناطق الثلاث، غالبية القبائل لم تدعم الحكام

الذين اعتمدهم الفرس عمالاً في السابق، ثم توجهوا إلى المدينة طلباً للمساندة. والقبائل التي تمردت على هؤلاء الحكام، لم تكن لها اتصالات في السابق مع الرسول، لقد ثارت على بعض قادتها، الذين نتيجة لذلك كما يبدو، سعوا إلى التحالف مع المدينة. ففي جميع المناطق الساحلية، كان الزعماء الذين سعوا إلى التحالف مع المدينة في موقع الدفاع إزاء منافسين محليين؛ ولم ينتهكوا أي اتفاق عقدوه معها. وفيها جميعاً، لاحلفاء المدينة، ولامنافسوهم، انتهكوا اتفاقاً معقوداً مع المدينة، وعليه، فمصطلح "ردة" لايمكن إطلاقه على مافعله أي من الطرفين.

في تقسيم هذه الحركات المتعددة في الجزيرة بعد وفاة الرسوول إلى ثلاث فئات، كان المعيار ما إذا كانت الفئة المعنية عقدت اتفاقاً مع الرسول، ثم انتهكته بعد وفاته، أم لا. وهذا التصنيف له مايوازيه في المصادر التقليدية. وفيما يلي نماذج من تلك المصادر، تعبر عن منظور أصحابها إزاء الحركات المختلفة المسماة "ردَّة". وستتم مقارنة وجهات النظر المختلفة مع بعضها، وبالتالي موازنتها مع الاستنتاجات التي عرضت هنا أعلاه.

***

الرواة المسلمون، وخاصة الفقهاء، ميزوا بين الحركات المتضمنة في الردة. والإمام الشافعي يقول: كان أهل الردة بعد وفاة الرسول من فئتين. فبعضهم هجر الدين بعد أن اعتنقه، مثل طليحة، مسيلمة، العنسي، وأتباعهم. والآخرون تمسكوا بالإسلام وحجبوا الصدقة، وهم ينطقون بالعربية(٩٨).

وفي شرح لحديث عن الردة، يورد العيني، صاحب "شرح صحيح البخاري"، تقسيماً مختلفاً بشكل طفيف؛ وبحسبه، كان الذين هجروا الدين بعد وفاة الرسول من فئتين: الأولى، تضم اولئك الذين ارتدوا عن الدين، ناصبوا المسلمين العداء وعادوا إلى كفرهم السابق. وهم ينقسمون إلى جماعتين. إحداهما، جماعة أتباع مسيلمة والأسود، ممن نفوا نبوة الرسول، وأيدوا نبوة آخرين. والجماعة الثانية هي التي ارتدت وعادت الى ديانتها قبل الإسلام. أما الفئة الثانية فتضم اولئك الذين ميزوا بين إقامة الصلاة وأداء الزكاة، فقبلوا الأولى ورفضوا الثانية(٩٩).

أما الديار بكري، في "كتاب الخميس"، فيستشهد بآخرين ممن يميزون بين الحركات المتضمنة تقليدياً في الردَّة. ومنهم البَغَوي، الذي في "معالم التنزيل"، يتحدث عن ثلاث فئات من المرتدين أثناء مرض الرسول: الأسود في اليمن، الذي لم يكن له اتصال سابق مع الرسول؛ ومسيلمة، الذي ادّعى النبوة؛ وطليحة، الذي منع أصحابه الصدقة(١٠٠). ويستشهد الديار بكري بمحدث آخر، هو الزهري، الذي يقول: كان المرتدون بين العرب من فئات مختلفة. فقالت إحداها، لو كان محمد رسولاً لما مات. وأخرى قالت بأن النبوة انتهت بموت محمد، وعليه، فلن تطيع نبياً بعده. وثالثة قالت بأنها تتمسك بالشهادة، وتقيم الصلاة، ولكنها تمتنع عن أداء الصدقة(١٠١).

والنوبختي يقدم تلخيصاً مختصراً ومثيراً للاهتمام حول الردّة، فيقول: "وقد كانت فرقة اعتزلت عن أبي بكر فقالت لاتؤدي الزكاة

إليه حتى يصح عندنا لمن الأمر ومن استخلفه رسول الله بعد، ونقسم الزكاة بين فقرائنا وأهل الحاجة منا. وارتد قوم فرجعوا عن الإسلام. ودعت بنو حنيفة إلى نبوة مسيلمة، وقد كان ادَّعى النبوة في حياة رسول الله. فبعث أبو بكر إليهم الخيول عليها خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي، فقاتلهم وقتل مسيلمة، وقتل من قتل، ورجع من رجع منهم إلى أبي بكر.، فسمُّوا أهل الردّ"(١٠٢).

وهذه النماذج من الآراء أعلاه، التي حملها كتاب مختلفون، وغيرها كثير، تظهر أنهم، على العموم، قسموا "أهل الردة" إلى فئتين رئيسيتين. وهذا التقسيم يقوم على ركنين أساسيين من الإسلام: الشهادة والزكاة. في الفئة الأولى، ضموا كل من أنكر نبوة الرسول. وبعض الكتاب يميز بين من اتبع أنبياء آخرين، مثل مسيلمة، طليحة، والأسود، وبين من عاد إلى ديانته قبل الإسلام. وفي الفئة الثانية، يضمون من منع الزكاة، أو رفض أداءَها.

والواضح أن المعيار الذي اعتمده الكتاب المسلمون في تقسيم "أهل الردة"، يتأثر بمشاعرهم الدينية. ولقد أوضح أعلاه بأن بعض من يضمهم الكتاب المسلمون في الفئة الأولى لم يعتنقوا الإسلام قط، وعليه، لايمكن اعتبارهم مرتدين. ويبدو أن إجمال هؤلاء في الردَّة لأساس له، وقد جرى لتبرير المبادرة إلى الحرب ضدَّهم. لقد تسببت هذه الحرب بإراقة دماء، وكان على الفقهاء أن يعللوا ذلك، خاصة وأنه وقع في أيام "الخلفاء الراشدين"؛ فكان إجمال كل القتال في الجزيرة بالردة، تصويباً لقرار الخليفة أبي بكر في محاربة الخارجين على سيادة المدينة وإخضاعهم.

وتفيد المصادر أن خلافاً وقع بين الخليفة أبي بكر وبعض الصحابة البارزين حول شرعية "حروب الردّة". وهؤلاء الصحابة، يقودهم عمر بن الخطاب، اعترضوا على قرار أبي بكر محاربة "المرتدين". وهذه المعارضة كانت تستند إلى حديث شريف، يفيد أنه من غير الشرعي قتال القبائل على مسألة الصدقة. ويذكر أن عمر خاطب أبا بكر متسائلاً عن حقه في قتال القبائل، بعد قول الرسول "أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لاإله إلا الله. فإن قالوها حفظوا أنفسهم وأموالهم مني". فأجاب أبو بكر: "ألم يقل أيضاً إلا بحقها"؟ وكان أبو بكر يصرُّ على أن إقامة الصلاة وأداء الزكاة هما من الفرائض التي لايجوز التهاون مع من يتخلى عنها[١٠٣].

لقد لعبت المناظرات الفقهية دوراً هاماً في تعريف مصطلح "الردَّة"، وبالتالي تصنيف الفئات المتضمنة فيها. وكتابات الإمام الشافعي هي مثال بارز في كيفية تعامل الفقهاء مع المادة التاريخية لإثبات وجهة نظرهم. ففي فصل من "كتاب الأم"، يقول الشافعي: الردة هي الارتداد عن الدين بعد قبوله إلى الشرك، والتراجع عن أداء الفرائض بعد إقامتها. وبعد هذا التعريف يذكر الشافعي الجدال الذي وقع بن أبي بكر وعمر حول شرعية قتال "أهل الردَّة"، ويقول أن كلاً من أبي بكر وعمر عرف أن بين الذين يقاتلانهم مسلمين. ولولا ذلك، لما شكك عمر في شرعية محاربتهم، ولكان أبو بكر قال أنهم هجروا الشهادة وأصبحوا مشركين، وبالتالي ارتدوا عن الإسلام. لكن الشافعي يرى في موافقة عمر أخيراً على موقف أبي بكر برهاناً بوجوب محاربة المتمردين (أهل البغي) حتى لو كانوا مسلمين[١٠٤].

إن تعريف الشافعي للردة، وتقسيمه المعنيين بها إلى فئات كما يفعل، وبالتالي إجمالهم جميعاً في الردة، هو توظيف للمعلومات التاريخية في خدمة الفقه. لقد أجمل الحركات المختلفة في الردَّة من أجل صياغة تعريف لها، يبرر محاربة أبي بكر للقبائل التي خرجت عن طاعة المدينة، وصارت تسمى "أهل الردَّة". وبتثبيته شرعية سياسة أبي بكر، كان الشافعي يرمي إلى تدعيم رأيه الفقهي في وجوب محاربة المتمردين عموماً ("أهل البغي" كما يسميهم).

أما العيني، فيقدم تقسيماً يختلف قليلاً عن الشافعي، حيث يرى أن الفئة الثانية، التي منعت الزكاة، ليست مرتدة، وأنما متمردة. ويؤكد أنها أدخلت في أهل الردَّة لاختلاطها بهم، وقد أطلق عليهم اسم أهل الردة، لأنها كانت الأهم والأخطر. وفي تمايز عن الشافعي، يتردد العيني في إجمال مانعي الصدقة في الردة. وفي سياق كلامه، ليست هناك دلالة إلى أنه يسعى لتدعيم وجهة نظر معينة، لكنه يلحظ عدم الدقة الذي مارسه الرواة في إطلاق اسم الردَّة على الحركات في الجزيرة، غداة وفاة الرسول. (العيني، ٨ ، ٢٤٤)

وفي سياق الجدل السياسي بين الفرق حول تفضيل أبي بكر على علي في الخلافة، يورد ابن أبي الجديد، في "شرح نهج البلاغة" الملاحظة التالية عن الردة: إن الذين منعوا الصدقة لم يكونوا مرتدين، وقد أسماهم صحابة رسول الله كذلك مجازاً. ذلك لأن الصحابة اعتبروا ماقاله هؤلاء عن الزكاة، وماطرحوه من تفسير للقرآن إثماً كبيراً[١٠٥].

وبينما الشافعي لم يتردد في إجمال الفئتين بالردَّة، فإن العيني كان

أكثر حذراً بالنسبة إلى الفئة الثانية (مانعي الصدقة)، أما المؤرخون المسلمون فقد ترددوا في إجمال الفئة الأولى بالردَّة. فجميع المصادر التاريخية تتفق على أن ما جرى في نجد بعد وفاة الرسول هو ردَّة[١٠٦]. وفيما يتعلق بقبائل نجد، فالمصادر واضحة حول المسألة، وتتحدث عن قضية ملموسة، هي الصدقة. أما بالنسبة إلى الأماكن الأخرى، فالمسألة غامضة، والمؤرخون يسمون القبائل هنا "مرتدة"، ولكن ليس بلا تردد؛ فابن الأثير يعالج ظهور الأسود العنسي بمعزل عن بقية حركات "الردَّة"، ولايسمي حركته ردة[١٠٧]. والبلاذري يجمل حركة الأسود في الردَّة، لكنه لايقول أن الأسود ارتد. وعنوان الفصل الذي يعالج به البلاذري حركة الأسود كالتالي: "أمر الأسود العنسي ومن ارتدَّ معه في اليمن". إلا أن البلاذري لايذكر اسماً واحداً ممن أسلموا ثم ارتدوا[١٠٨].

وبالنسبة إلى مسيلمة، فالبلاذري يعالج حركته بمعزل عن مناقشته للردة. وهو يذكر عدداً من المرتدين في حاشية مسيلمة، لكنه لايقول أن بني حنيفة عامة، ومسيلمة خاصة، قد ارتدوا. والبلاذري يفرق بين الحرب ضد قبائل نجد، والقتال مع بني حنيفة، فيقول: عندما توفي الرسول، وانتخب أبو بكر خليفة، وأخضع المرتدين في نجد ومحيطها خلال بضع شهور، أرسل خالد بن الوليد وأمره بمحاربة مسيلمة الكذاب[١٠٩]. إلا أن ابن الأثير يجمل بني حنيفة ومسيلمة في القبائل المرتدة، التي أرسل أبو بكر الجيوش لإخضاعها[١١٠]. وأخبار سيف بن عمر، الواردة عند الطبري، تدين كل من شارك بالحرب في الجزيرة ضد المدينة بعد وفاة الرسول بالردة. وهذه الأخبار تمت مناقشتها أعلاه.

***

هذا الارتباك في المصادر التاريخية حول إطلاق مصطلح "الردَّة" على الحركات في الجزيرة بعد وفاة الرسول يؤكد ماذهب إليه العيني، الذي لاحظ عدم الدقة في استعمال المصطلح(١١٢). ويبدو أن المؤرخين قد أهملوا أسباب تلك الحركات، واهتموا أصلاً بتعليل الحرب ضدها. وقد انتهت هذه الحرب في فترة قصيرة، وكان هدفها المركزي إخضاع القبائل كاملاً، بغض النظر عن علاقتها السابقة بالمدينة. كما كانت حرباً واحدة ضد جميع الحركات في الجزيرة آنئذ، لكن مصطلح الردة طغى عليها. وهذا المصطلح، الذي أطلق على الحرب، اسبغ أيضاً على المحاربين وحركاتهم. وملاحظات العيني تبدو صحيحة. فمصطلح الردة استعمل بشكل غير دقيق من قبل المؤرخين المسلمين؛ إلا أنهم، كما يبدو، لم يقصدوه بالمعنى المعقد والمفصل الذي أعطاه إياه الفقهاء. ولكن، بعد وقوع الخطأ، قام المحدثون، الفقهاء، أصحاب كتب "الفرق"، والمنافحون عن التيارات السياسية، وغيرهم، بتطويع المصطلح لخدمة مواقفهم. والغالب أن منشأ المصطلح هو للدلالة على سلوك القبائل المقيمة إلى الشمال الشرقي من المدينة، والتي قصَّرت في الوفاء بالتزاماتها تجاه دولة الإسلام. وجاء القُصَّاص (مثل سيف بن عمر)، ومن بعدهم المؤرخون المبكرون، ليطلقوا المصطلح، وبشكل غير دقيق، على كل الحركات في الجزيرة - خاصة وأن الحرب ضدها كانت واحدة، وقد تمَّت في وقت قصير جدًّا. أما الفقهاء، فقد أضفوا على المصطلح دلالة مغايرة، عندما أطلقوه، وبإصرار، على من لم يعتنق الإسلام بالواقع سابقاً.

والخلاصة، أن الردَّة كما يبدو كانت بالأصل محصورة في القبائل المقيمة إلى الشمال الشرقي من المدينة - غطفان، طيِّئ، وتميم. وهذه القبائل أسميت "أهل الردَّة"، لأنها منعت الصدقة التي تعهدت للرسول بأدائها. ومصطلح "الردَّة"، توسع لاحقاً ليطال جميع الحركات التي قامت في الجزيرة بعد وفاة الرسول. ثمَّ جرى تطويع هذا المصطلح ليخدم أغراض الفقهاء في آرائهم وحواراتهم. وبمضمونه هذا، أي كما صاغه الفقهاء، جرى تعميمه على أيدي المؤرخين اللاحقين.

حواشي الفصل الثالث:

١) الموسوعة الإسلامية، مادة "أبو بكر"، وات؛ ميور، ٣٣٤؛ الدوري، ٤٢؛ كايتاني، دراسة، ٣ ، ٣٥٤ - ٣٥٨ .

٢) فلهاوزن، تلخيصات، ٦ ، ٧ - ٨ .

٣) كايتاني، دراسة، ٣ ، ٣٤٩ - ٣٥٢ .

٤) بيكر، ٣٣٥ - ٣٣٦ .

٥) لويس، ٥١ - ٥٢ .

٦) وات، ١٤٧- ١٤٨ .

٧) الموسوعة الإسلامية، المواد: "طليحة"، ف.فاتشا؛ "سجاح"، ف.فاتشا؛ مسيلمة، بوهل؛ "الأسود"، وات؛ كايتاني، دراسة، ٣ ، ٣٥٤ - ٣٥٨ ، ٣٧٤ - ٣٧٧ .

٨) وات، ١٤٨ .

٩) ابن اسحق، ١٠١٨؛ الطبري، ١ ، ١٧٥٠؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٠١ . وهذه المعلومة منقولة عن ابن اسحق.

١٠)ابن اسحق، ١٠١٨ .

١١) ابن حبيب، ١٢٦؛ اليعقوبي، ٢ ، ١٢٢؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٥٢٩ - ٥٣١؛ الطبري، ١ ، ١٩٠٨ - ١٩٠٩؛ الديار بكري، ٢ ، ٢٠٢ .

١٢) ابن اسحق، ١٠٢١ - ١٠٢٢؛ ابن سعد، ٢/١ ، ١٢٢؛ البلادري، انساب، ١ ، ٣٨٤؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٠١ .

١٣) الديار بكري، ٢ ، ٢٠١؛ وهذا الخبر مضاف إلى سيرة ابن اسحق نقلاً عن ابن هشام، الذي ينقله بدوره عن أبي عبيدة (انظر ابن اسحق، ١٠٧٩).

١٤) الطبري، ١ ، ١٨٧١؛ العيني، عمدة، ٨ ، ٢٤٣؛ الديار بكري، ٢ ، ٢٠١؛ ابن

كثير، ٦ ، ٣١٢ .

١٥) الطبري، ١ ، ١٨٨٠ - ١٨٨١ .

١٦) ابن اسحق، ١٠٧٩؛ الديار بكري، ٢ ، ٢٠١ .

١٧) الطبري، ١ ، ١٩٠٥ ، ١٩٢١؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٥١؛ الديار بكري، ٢ ، ٢٠٤؛ العيني، ٨ ، ٢٤٥ .

١٨) راجع الفصل الأول.

١٩) البلاذري، انساب، ١ ، ٥٣٠ .

٢٠) الديار بكري، ٢ ، ٢٠٣ .

٢١) الديار بكري، ٢ ، ٢٠٣؛ ابن عبد البر، ١٠٥٧؛ ابن حجر، الإصابة، ٢ ، ٤٦١ .

٢٢) الديار بكري، ١١ ، ٢٠٣؛ الطبري، ١ ، ١٨٧٠ .

٢٣) الطبري، ١ ، ١٨٧٠ ، ١٨٧٤ ، ١٨٩٤؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٤٤؛ العيني، ٨ ، ٢٤٤؛ الديار بكري، ٢ ، ٢٠٢ .

٢٤) هذا الخبر يرد عملياً في كل مصدر عن هذه الفترة.

٢٥) الطبري، ١ ، ١٨٧٧ - ١٨٧٨؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٤٥؛ الديار بكري، ٢ ، ٢٠٣ .

٢٦) اليعقوبي، ٢ ، ١٢٩؛ البلاذري، فتوح، ١ ، ١١٥؛ الطبري، ١ ، ١٨٧٤ ، ١٨٨٦ ، ١٨٩٣؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ .

٢٧) وات، ١٤٠ .

٢٨) الطبري، ١ ، ١٩٠٨ - ١٩٠٩؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٥٣؛ بالإمكان التجسير بين هذا الخبر ورواية ابن اسحق. وفي الطبري، كما في ابن الأثير، الخبر عن سيف بن عمر، المعروف برواياته المفصلة.

٢٩) الطبري، ١ ، ١٩٠٩ - ١٩١٠؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٥٣ - ٣٥٤ . والخبر منقول عن سيف بن عمر، الذي كان تميمياً بنفسه.

٣٠) الطبري، ١ ، ١٩١١؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٥٤ .

٣١) الطبري، ١ ، ١٩١١ - ١٩١٤ .

٣٢) الطبري، ١ ، ١٩٠٩ ، ١٩٢٢؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٥٤؛ ابن حجر، ١ ، ٥٢٥؛ ٢ ، ١٨٢؛ ٣ ، ٣٣٦ .

٣٣) الطبري، ١ ، ١٩٢٥ ، ١٩٢٨؛ البلاذري، فتوح، ١ ، ١١٧ . هذه الحادثة ستناقش لاحقاً.

٣٤) اليعقوبي، ٢ ، ١٢٩؛ البلاذري، فتوح، ١ ، ١٠٥ - ١٠٦؛ الطبري، ١ ، ١٧٤٨ -

١٧٤٩؛ الديار بكري، ٢ ، ١٥٧ ، ١٥٩ .

٣٥) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٠٧؛ الطبري، ١ ، ١٧٤٨ - ١٧٤٩؛ الديار بكري، ٢ ، ١٥٧ .

٣٦) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٠٥؛ الطبري، ١ ، ١٩٣٨؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٦١؛ الديار بكري، ٢ ، ١٥٨ .

٣٧) الطبري، ١ ، ١٩١٠؛ وثيمة، ١٣ ، ١٧؛ الديار بكري، ٢ ، ١٥٩ .

٣٨) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٠٦؛ الطبري، ١ ، ١٩٤٢؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٦٣؛ الديار بكري، ٢ ، ٢١٣ ، ٢١٦ - ٢١٧ .

٣٩) الطبري، ١ ، ١٩٥٩ .

٤٠) البلاذري، فتوح، ١ ، ٩٩؛ الطبري، ١ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦٢؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٦٩ .

٤١) البلاذري، فتوح، ١ ، ٩٩ .

٤٢) الطبري، ١ ، ١٩٥٨؛ ابن حجر، ٤٨٩٢٣؛ انظر أيضاً، البلاذري، فتوح، ١ ، ١٠١ .

٤٣) الطبري، ١ ، ١٩٥٩؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٦٨ .

٤٤) الطبري، ١ ، ١٩٦١؛ انظر أيضاً الطبري، ١ ، ١٩٦٠؛ البلاذري، فتوح، ١ ، ١٠١؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٦٨ .

٤٥) الطبري، ١ ، ١٩٦٣ فما بعد.

٤٦)ابن حبيب، ٧٧؛ البلاذري، فتوح، ١ ، ٩٢؛ الطبري، ١ ، ١٥٦١ ، ١٩٥٩ - ١٩٦٠؛ ابن سعد، ٢/١ ، ١٨؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٥٢؛ الديار بكري، ٢ ، ١٨٣ - ٢٠٨ .

٤٧) راجع الفصل الأول.

٤٨) البلاذري، فتوح، ١ ، ٩٣ . ويبدو أن مصدر هذا الخبر هو الواقدي؛ انظر ابن سعد، ٢/١ ، ١٨؛ ابن الأثير، ٢ ، ٢٧٢ .

٤٩) البلاذري، فتوح، ١ ، ٨٧ .

٥٠) راجع الفصل الاول.

٥١) ابن حبيب، ٧٧ .

٥٢) الطبري، ١ ، ١٩٧٧؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٧٢ .

٥٣) البلاذري، فتوح، ١ ، ٩٢؛ الطبري، ١ ، ١٩٧٧؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٧٢ .

٥٤) الطبري، ١ ، ١٩٧٧؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٧٢ .

٥٥) راجع الفصل الأول.

٥٦) ابن سعد، ١/٢ ، ٥٩ - ٨٦؛ البلاذري، فتوح، ١ ، ٨٢ - ٩١؛ الطبري، ١ ، ١٨٥١ - ١٨٥٥؛ ابن الأثير، ٢ ، ٢٩٣ - ٣٠٠ .

٥٧) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٢٦؛ الطبري، ١ ، ١٨٥١ .

٥٩) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٢٥ - ١٢٧؛ الطبري، ١ ، ١٧٩٥ ، ١٨٥٦ ، ١٨٦٣ ، ١٩٨٣؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٤٠؛ الديار بكري، ٢ ، ١٥٥ .

٥٨) البلاذري، فتوح، ١ ، ٨٢ - ٨٣؛ الطبري، ١ ، ١٨٥٢ - ١٨٥٣ .

٦٠) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٢٦؛ الطبري، ١ ، ١٨٦٤ - ١٨٦٨؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٣٧ - ٣٣٨؛ البيهقي، سنن، ٨ ، ١٧٦؛ الديار بكري، ٢ ، ١٥٦ .

٦١) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٢٦؛ الطبري، ١ ، ١٨٦٦ - ١٨٦٧؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٣٨ .

٦٣) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٢٧؛ الطبري، ١ ، ١٩٨٩ - ١٩٩٢؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٧٦ .

٦٤) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٢٧؛ الطبري، ١ ، ١٩٨٩ - ١٩٩٢؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٧٧ .

٦٥) ابن اسحق، ١٠٢١ - ١٠٢٢؛ ابن سعد، ١/٢ ، ١٢٢؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٣٨٤؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٠١ .

٦٦) البلاذري، فتوح، ١ ، ٨٣ ، ١٢٠؛ ابن حبيب، ١٢٦؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٥٢٩؛ الطبري، ١ ، ١٨٥٣؛ المقريزي، ٣١ .

٦٧) ابن حبيب، ١٢٦؛ البلاذري، فتوح، ١ ، ٨٢؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٥٢٩؛ المقريزي، ٣١ .

٦٨) البلاذري، انساب، ١ ، ٥٢٩؛ ابن حبيب، ١٢٦ .

٦٩) الطبري، ١ ، ١٨٥٣؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٣٦ .

٧٠) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٢٥ ، ١٢٧؛ الطبري، ١ ، ١٧٩٥ ، ١٨٥٦ ، ١٨٦٣ ، ١٩٨٣؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٤٠؛ الديار بكري، ٢ ، ١٥٥ .

٧١) البلاذري فتوح، ١ ، ١٢٥ .

٧٢) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٢٥؛ الطبري، ١ ، ١٨٥٤ - ١٨٥٥ ، ١٩٨٤؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٣٧ .

٧٣) الطبري، ١ ، ١٨٥٤ .

٧٤) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٢٥؛ الطبري، ١ ، ١٨٥٤ - ١٨٥٥ ، ١٩٨٤؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٣٧ .

٧٥) الطبري، ١ ، ١٨٦٤ - ١٨٦٨ .

٧٦) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٢٦؛الطبري، ١ ، ١٨٥٥ ، ١٨٦٤؛ البيهقي، ٨ ، ١٧٦؛

ابن الأثير، ٢ ، ٣٣٧؛ الديار بكري، ٢ ، ١٥٦ .

٧٧) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٢٦؛ الطبري، ١ ، ١٨٦٦ ، ١٨٦٧؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٣٨ .

٧٨) البلاذري، فتوح، ١ ، ٢٦ .

٧٩) الطبري، ١ ، ١٧٩٥؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٣٧ .

٨٠) ابن سعد، ٢/١ ، ٦٣ - ٦٤؛ الطبري، ١ ، ١٧٩٦؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٣٧ .

٨١) الطبري، ١ ، ١٨٥٥؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٣٧ .

٨٢) الطبري، ١ ، ١٨٥٥ ، ١٨٥٧ فما بعد؛ البلاذري، فتوح، ١ ، ١٢٥ - ١٢٦ .

٨٣) الطبري، ١ ، ١٨٥٦ فما بعد؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٣٨ فما بعد.

٨٤) ابن حجر، ٣ ، ٢٦١؛ ابن عبد البر، ١٢٩٩ - ١٣٠٠ .

٨٥) ابن اسحق، ١٠٠٤ .

٨٦) ابن اسحق، ١٠٠٣؛ ابن سعد، ٢/١ ، ٦٣ - ٦٤ .

٨٧) ابن اسحق، ١٠٠٣ .

٨٨) ابن سعد، ٢/١ ، ٦٤؛ ابن اسحق، ١٠٠٤ .

٨٩) ابن اسحق، ١٠٠٤ .

٩٠) الطبري، ١ ، ١٧٦٣؛ وانظر أيضاً، وات، ١٢١ - ١٢٢ .

٩١) الطبري، ١ ، ١٧٩٨ ، ١٨٥٦ .

٩٢) الطبري، ١ ، ١٨٥٥ .

٩٣) البلاذري فتوح، ١ ، ١٢٥ .

٩٤) ابن حبيب، ١٢٦؛ البلاذري، فتوح، ١ ، ٨٢ - ٨٣؛ البلاذري، انساب، ١ ، ٥٢٩؛ الطبري، ١ ، ١٨٥٢ - ١٨٥٣؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٣٦ .

٩٥) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٢٧؛ الطبري، ١ ، ١٩٨٩ - ١٩٩٢؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٧٦ .

٩٦) البلاذري، فتوح، ١ ، ٨٢ - ٩١؛ ابو يوسف، الخراج، ٧١ - ٧٥ .

٩٧) الطبري، ١ ، ١٨٧٢؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٤٣ .

٩٨) الشافعي، الأم، ٨ ، ٢٥٥ .

٩٩) العيني، ٨ ، ٢٤٤ .

١٠٠) الديار بكري، ٢ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٠ .

١٠١) الديار بكري، ٢ ، ٢٠١ .

١٠٢) النوبختي، فرق الشيعة، ٤ .

١٠٣) هذا الحوار، ببعض الاختلافات الشكلية يوجد في ، الشافعي، الأم، ٨ ، ٢٥٥؛ الجاحظ، العثمانية، ٨١؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ١٦؛ البيهقي، سنن، ٨ ، ١٧٦؛ الديار بكري، ٢٠١؛ ابن كثير، ٦ ، ٣١١ .

١٠٤) الشافعي، الأم، ٨ ، ٢٥٥ - ٢٥٦ .

١٠٦) البلاذري، فتوح، ١ ، ١١٣ - ١١٤؛ الطبري، ١ ، ١٨٧١؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٤٢ فما بعد؛ الديار بكري، ٢ ، ٢٠١ - ٢٠٢ .

١٠٥) ابن أبي الحديد، ١٣ ، ١٨٧ .

١٠٧) ابن الأثير، ٢ ، ٣٣٦ - ٣٤٢ .

١٠٨) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٢٥ - ١٢٧ .

١٠٩) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٠٥ - ١١٢ .

١١٠) ابن الأثير، ٢ ، ٣٦٠ .

١١١) الطبري، ١ ، ١٧٣٨ - ١٧٣٩ ، ١٧٩٥ - ١٧٩٦ ، ١٨٥١ - ١٨٦٩ ، ١٨٧٠ فما بعد، أحداث العام ١١هـ.

١١٢) العيني، ٨ ، ٢٤٣ .

الفصل الرابع

الردّة والفتوح العربية

اعتبر الرواة المسلمون كل المناوئين لدولة الاسلام في المدينة بعد وفاة الرسول مباشرة "مرتدين"، وبالتالي أسموا القتال ضدهم "حروب الردَّة". وفي ضوء الاستنتاجات التي تمَّ التوصل إليها في الفصل السابق، يتضح أن العمليات الموجهة ضد مانعي الصدقة فقط يمكن أن تسمَّى حقيقة بهذا الاسم. أما الحملات العسكرية ضد الآخرين فيجب أن تدخل في الفتوح. أما العلاقة بين الردَّة والفتوح فهي المسألة التالية التي سيجري التعرض لها.

ولاثبات الاستنتاج بأن الحرب في الجزيرة، خارج شمال ـ شرق نجد، تدخل في الفتوح وبالتالي معالجة القضايا المترتبة على ذلك، فمن الضروري استعراض وقائع تلك الحرب، واجراء مقارنة نقدية للأخبار الواردة في المصادر. وفي الصفحات التالية، سيتم تقديم عرض شامل لحروب الردَّة، كما هو متعارف عليها، وبالتالي محاولة استخلاص بعض الاستنتاجات حول علاقتها بحركة الفتوح العربية.

١ ـ غزوة أسامة

لقد ذكر أعلاه أن هذه الغزوة قد أعدَّها الرسول بنفسه، وذلك بعد عودته من "حجة الوداع"؛ ولكن قبل توجه الجيش إلى غايته على

الحدود السورية، توفي الرسول[١]. والمشاحنات في المدينة حول مسألة الخلافة انعكست سلباً على غزوة أسامة. ومع ذلك، فالمصادر التقليدية تؤكد اهتمام أبي بكر وجدِّيته في تنفيذ خطة الرسول وتسيير جيش أسامة[٢]. ولعل تلك المصادر تبالغ في تصميم أبي بكر على تسيير ذلك الجيش كما أمر الرسول، انطلاقاً من مشاعر دينية، فهي ترمي لاظهار مدى التزام الخليفة بكلام الرسول وإرادته، تقديراً واجلالاً له. إلا أنه من الواضح تماماً، ومن وصف تلك المصادر ذاتها لغزوة أسامة أنها لم تنفذ كما كان مخططاً لها أصلاً.

فالبلاذري يعد غزوة أسامة بين "السرايا"[٣] التي أمر بها الرسول، والخبر الذي يورده عنها قصير، ويزود بالقليل من المعلومات[٤]. واليعقوبي أكثر اختصاراً، والمعلومة الوحيدة التي يضيفها هي أن هذه السرية دامت "ستين أو أربعين" يوماً[٥]. وخبر ابن الأثير حولها يستند إلى الطبري[٦]، وهو يوفر معلومات أكثر حول الاعداد لهذه الغزوة وغايتها، ويمكن تلخيصها كالتالي: أمر الرسول المسلمين بالاعداد لغزو سوريا في شهر محرم، أول عام ١١هـ، وتذمر "المنافقون" من تعيين أسامة قائداً لها؛ فوبخهم الرسول. وفي أحد المواضع، يذكر ابن الأثير أن المهاجرين الأولين، أبا بكر وعمر وغيرهما، كانوا جميعاً في جيش أسامة؛ وبينما الناس يعدون للغزوة، بدأ مرض الرسول[٧]. وفي موضع آخر، يذكر ابن الأثير اسم عمر فقط في جيش أسامة، ويحذف اسم أبي بكر منه. ويضيف: عندما أمر أبو بكر الجيش بالسير، كان الأنصار هم الذين تذمروا؛ وعمر هو الذي أوصل شكواهم إلى ابي بكر، لكنه رفض أن يغير أوامر الرسول، وقد طلب أبو بكر من أسامة أن يخلي سبيل عمر من الجيش ليبقى في المدينة

ويساعده في تصريف أموره. وهاجم أسامة بعض القبائل المرتدة على الحدود السورية فهزمها، وكسب مغانم كثيرة وعاد إلى المدينة[٨].

أما الأخبار التي مصدرها أعمال الواقدي حول غزوة أسامة، فهي مختلفة. فبحسب الواقدي أمر الرسول المسلمين بالاعداد لمهاجمة البيزنطيين في آخر صفر، من عام ١١هـ. وعين أسامة قائداً للجيش، وأمره بمهاجمة أولئك الذين قتلوا والده، وكان في الجيش الصحابة البارزون، من المهاجرين والأنصار ومنهم أبو بكر، عمر، أبو عبيدة، سعد بن أبي وقاص، سعيد بن زيد، قتادة بن النعمان، سلمة بن اسلم، وغيرهم. ويذكر الواقدي التذمر حول تعيين أسامة قائداً، لكنه لا يحدد المتذمرين بالذات، وهو كذلك لا يذكر تذمر الأنصار عندما أرسل أبو بكر جيش أسامة. وفي مقطع بليغ، يصف الواقدي هجوم أسامة على أُبنى في جنوب الأردن، فقد قتل وثأر لدم أبيه، أحرق، أسر، نهب، وعاد سالماً[٩].

ويورد الطبري وابن عساكر خبراً مثيراً للاهتمام نقلاً عن سيف بن عمر، وهو يفيد بأن القبائل على الحدود السورية قد ارتدت، فحث أبو بكر من ظل على ولائه للاسلام أن يقاتل المرتدين. وعندما وصل أسامة هرب المرتدون؛ فأغار أسامة على الحمقتين وآبل،، وعاد سالماً بمغانم كثيرة[١٠].

إن مقارنة بين الأخبار المختلفة وتمحيصاً لكل رواية على حدة، يكشفان محاولات الرواة التغطية على فشل غزوة أسامة في تحقيق أهدافها، واعتبارها "سرية" هو كشف حساب للنتائج، وتجاهل للدوافع وراء المبادرة إلى الغزوة، وللأهداف المتوخاة منها. فالأخبار

التي تطرح غزوة أسامة على أنها سرية، تتناقض مع أخبار أخرى، تتحدث عن حملة كبيرة ضد البيزنطيين.

والكلام عن نجاح الغزوة بلغة طنانة، والحديث العام عن النصر والمغانم الكثيرة قد يكون المقصود بهما اثبات أن أسامة كان على قدر المهمة التي عهد الرسول بها إليه. أما المغالاة بالتوكيد على اصرار أبي بكر في تسيير الجيش بقيادة أسامة، وذلك على الرغم من المعارضة التي لقيها، فيبدو أنها ترمي إلى الدلالة على عمق الاجلال الذي كان يكنه الخليفة للرسول. ولكن، ماذا عن عمر والأنصار: ألم يشاركوا الخليفة في ذلك التقدير؟ ويذكر أن المهاجرين والأنصار شاركوا بجيش أسامة. ولكن أبا بكر طلب من أسامة أن يأذن بتسريح عمر فحسب؛ وعليه، يفترض أن يكون الباقون رافقوا أسامة في غزوته، إلا أن ذلك يتناقض مع أخبار أخرى حول الأحداث في المدينة أثناء غياب أسامة وجيشه ـ حيث ترد أسماء بعض من يفترض أنهم مع أسامة يلعبون دوراً رئيسياً في تلك الأحداث بالمدينة. لقد كان الصحابة الأولون قادة مفارز الحراسة على المدينة في غياب أسامة، كما كانوا مع أبي بكر في "ذي القصة" لمحاربة المرتدين، قبل عودة أسامة إلى المدينة[١١].

وبحسب الواقدي، كان في جيش أسامة ٣،٠٠٠ رجل؛ وغيره يحدد الرقم ٧٠٠[١٢]. وكايتاني يميل لقبول العدد الأصغر[١٣]. ولعله على صواب، أخذاً بالاعتبار الظروف التي واكبت الغزوة ونتائجها. ولكن حتى وأن أُخذ بالعدد الأكبر، فإنه يبقى أقل بكثير من العدد الذي شارك في غزوة تبوك؛ وعليه فمن المستبعد أن تكون غزوة أسامة موجهة ضد البيزنطيين. والواضح أن هذا الجيش لم يضمَّ

كل الأنصار المهاجرين، والقبائل المقيمة في محيط مكة والمدينة، وفوق ذلك، يستبعد أن تكون المعارضة من الأنصار شاركت بهذه الغزوة.

وتشير الدلال إلى أن غزوة أسامة بدأت كامتداد لغزوة تبوك، حملة كبيرة على القبائل العربية في جنوب سوريا. لكن وفاة الرسول، وما ترتب عليها من مشاحنات في المدينة، تسببت في تداعي هذه الحملة، فانتهت إلى سريّة صغيرة. ولعل غالبية المشاركين فيها كانوا من "أهل الصفة"، الذين كان على أبي بكر أن يعيلهم، كما كان على الرسول من قبله. وما محاولات الرواة التغطية على فشل الغزوة، كما على الخلاف حولها في المدينة، إلا لاظهار الجماعة الاسلامية الأولى بالصورة المثلى قدر الإمكان. وعلى الرغم من الإخفاق التام لغارة أسامة، فإن غزو سوريا بقي الهدف الأهم لأبي بكر، خلال الأحداث اللاحقة في الجزيرة، كما سيوضح أدناه.

ورواية سيف بن عمر بأن غزوة أسامة كانت موجهة ضد "المرتدين" في الشمال، مطعون فيها، خاصة وأنها أعدَّت قبل وفاة الرسول، وقبل أن تندلع الردَّة، هذا بالإضافة إلى أنه ما من مصدر آخر يعزو لغزوة أسامة أهدافاً كالتي يسوقها سيف. ولكن أهمية رواية سيف تكمن في أنها تظهر مدى ما بين "الردة" و "الفتوح" من تشابك.

٢ ـ ذو القَصَّة

لقد وقعت معركة ذي القصة بعد فترة قصيرة على خلافة أبي بكر[١٤]. ويعتقد كايتاني أن ذلك كان في جمادى الثانية من عام

١١هـ[١٥]. ويذكر خبر مسنود إلى أبي مَعشر، أن أبا بكر لم يبادر إلى نشاط عسكري أثناء غياب أسامة وجيشه عن المدينة. وقد دامت هذه الغزوة أربعين يوماً، وفي رواية سبعين. في هذه الأثناء، قدمت إلى المدينة وفود تمثل القبائل المرتدة، للتفاوض على عهود جديدة مع أبي بكر. وقد طلب الموفدون اعفاءَهم من أداء الصدقة، وتعهدوا بإقامة الصلاة. فرفض أبو بكر طلبهم، وانتظر عودة أسامة قبل أن يهاجم تلك القبائل. ولما وصل أسامة إلى المدينة، قاد أبوبكر جيش المسلمين إلى ذي القصة، حيث ألتقى خارجة بن حصن الفزاري. والطبري الذي حفظ هذا الخبر المنقول عن أبي معشر، لا يفصل أكثر، ويكتفي بالقول: "واختبأ أبو بكر في أجمة، وهزم الله المشركين"[١٦].

ويورد الطبري أخباراًأخرى عن سيف بن عمر فيها تفصيلات اضافية عن ذي القصة. وبحسب سيف، فإن ذا القصة كان واحداً من المعسكرات المتعددة، حيث تجمعت القوات المتحالفة من غطفان، أسد، وطيّ، استعداداً للمواجهة مع المسلمين[١٧]. ويؤكد سيف وصول وفد من هذه القبائل للتفاوض مع أبي بكر، ويضيف أن أعضاء الوفد نزلوا علىأشراف المدينة، ما عدا العباس، الذي رفض ايواء أحد منهم (علماً بأن العباس هو الجد الأكبر للسلالة الحاكمة في بغداد، والتي في أيامها كتب سيف روايته). ويقول أن هؤلاء الاشراف أيدوا الوفد في مطلبه الاعفاء من أداء الزكاة، لكن أبا بكر رفض ذلك قطعاً[١٨].

وفي نفس الخبر، يذكر سيف أنه لما بدا فشل مهمة الوفد، عاد

أعضاؤه إلى قبائلهم وأخبروها عن قلة عدد سكان المدينة. وهذا أغرى بعض القبائل للإغارة على المدينة. وقد ترك المغيرون تعزيزاتهم في ذي حسى، وتقدموا نحو المدينة. إلا أن أهلها، بقيادة أبي بكر، طردوا الغزاة وتعقبوهم. وفي ذي حسى وقع المسلمون في كمين التعزيزات، التي أذعرت جمال المسلمين بقرب جلدية منفوخة. وبداية تفرق المسلمون، إلا أنهم سرعان ما أعادوا تجميع أنفسهم، وقاموا بهجوم مضاد وأحرزا النصر. وبحسب سيف، وقع ذلك قبل عودة أسامة من سوريا، وعزَّز أيدي المسلمين في كل مكان. ولما عاد أسامة هاجم أبو بكر معسكراً آخر للحلفاء، في موضع يعرف باسم الأبرق[١٩]. وفي خبره هذا، يناقض سيف أبا معشر، الذي يقول أنه لم يقع قتال بين المسلمين والمرتدين أثناء غياب أسامة عن المدينة.

وليس خبر أبي معشر فقط يناقض رواية سيف، وإنما الأخبار المستندة إلى الواقدي أيضاً. ويمكن تلخيص رواية الواقدي كالتالي:[٢٠] أن الوفد الذي جاء إلى المدينة كان بقيادة عُيينة بن حصن الفزاري، والأقرع بن حابس التميمي، وأخبر الوفد أبا بكر بأن القبائل في مناطقه قد ارتدت، وهي لا ترغب في أداء الصدقة؛ ولكن، لو منح أبو بكر نصيباً لعيينة والأقرع، لكفى الوفد المسلمين مؤونة قتال تلك القبائل. وحثَّ المهاجرون والأنصار أبا بكر على قبول عرض الوفد وشروطه؛ لكنه رفض وأصرَّ على قتال المرتدين.

وفيما يتعلق بالمواجهة مع خارجة بن حصن، يروي الواقدي القصة التالية: لما اتخذ أبو بكر قرار محاربة المرتدين، سار على رأس جيش صغير من المهاجرين والأنصار إلى ذي القصة. كما أوفد رسلاً إلى

بعض القبائل الموالية يدعوها لمساعدته. وفي ذي القصة، أمر ابو بكر المسلمين بأن يحطوا رحالهم بانتظار المدد. وفي هذه الأثناء، قام خارجة، الذي كان في طريقه إلى المدينة لاقناع الناس بعدم اللحاق بأبي بكر، بهجوم مفاجئ على معسكر المسلمين. ولأنهم أخذوا على حين غرّة فقد تفرق المسلمون على دون انتظام، واختبأ أبو بكر في أجمة، إلا أن المسلمين أعادوا تجميع صفوفهم، ولما جاءَهم بعض المدد، قاموا بهجوم معاكس وهزموا العدو، الذي هرب تاركاً قتيلاً على أرض المعركة. وبقي أبو بكر بضعة أيام في ذي القصة ينتظر وصول المسلمين. فجاءَته كتائب من أسلم، غفار، مزينة، أشجع، جهينة، وكعب، استجابة لدعوته[٢١]. وبالاستناد إلى مصادر أخرى يورد الديار بكري العديد من الأخبار التي تفيد بأن بعض المهاجرين الأولين البارزين لم يوافق أبا بكر في قراره محاربة مانعي الصدقة[٢٢].

وعلى العموم، يتفق البلاذري في أخباره عن ذي القصة مع الواقدي. وفي روايته، يذكر البلاذري وصول وفد إلى المدينة للتفاوض مع أبي بكر، وكذلك تردُّد الصحابة في محاربة القبائل العربية، واصرار أبي بكر على تحصيل الصدقة ولو بالقوة. وفيما يتعلق بالمواجهة مع خارجة، يورد البلاذري ما يلي: قصد ابو بكر ذاالقصة لتنظيم جيوشه وارسالها لمحاربة المرتدين. وهاجم خارجة ومعه منظور بن زبَّان وقوم من غطفان المسلمين، وكانت معركة شرسة؛ هزم فيها المشركون، وقتل أحد، وهرب الباقون[٢٣].

ويتضح من هذه الأخبار أن "معركة ذي القصة" كانت مناوشة

صغيرة بين طليعة جيش المسلمين ومفرزة من قبيلة غطفان. ولكن على الرغم من ضآلة أهميتها كمعركة، فإن الأخبار عن ذي القصة تشير إلى حدثين على غاية من الأهمية بالنسبة إلى الردَّة. والأول هو وصول وفد من القبائل المقيمة إلى الشمال ـ الشرقي من المدينة للتفاوض مع الخليفة. والثاني، هو الخلاف داخل الجماعة الاسلامية حول محاربة مانعي الصدقة.

ووصول وفد من هذه القبائل إلى المدينة للتفاوض مع أبي بكر يؤكد الاستنتاجات التي تمَّ التوصل إليها في الفصل السابق حول طبيعة الردّة ومداها. وحيث كانت تلك القبائل تحرص على التفاوض مع الخليفة، فهذا يشير إلى أنها لم تكن ترغب في قطع علاقاتها مع المدينة. ومطالب الوفد تؤكد كذلك الاستنتاج بأن المسألة بالنسبة إلى تلك القبائل وردَّتها هي الصدقة.

والحدث الآخر، أي اعتراض بعض الصحابة على سياسة أبي بكر له انعكاسه على المشاحنات الفئوية داخل الجماعة الاسلامية في المدينة. ومن غير المعقول أن يكون أبو بكر قد وقف بمفرده في وجه المعارضة لخلافته وسياسته. أما فيما يتعلق بمؤيدي سياسة أبي بكر، فالمصادر ليست صريحة. ولكن هناك دلائل عديدة على أنهم كانوا المكيين الذين أسلموا حديثاً. وفي هذا العرض للحرب، ستجري الاشارة إلى معارضة سياسة أبي بكر في سياق الحدث؛ أما في الفصل التالي، فستتم معالجتها بمفردها.

إن الروايات التقليدية حول ما حدث بعد ذي القصة مرتبكة، وفي كثير من الحالات متناقضة؛ فالكتاب المختلفون يرون قصصاً مختلفة،

وكثيراً ما يورد الكاتب نفسه صيغاً مختلفة من الرواية ذاتها. ويبدو أن الارباك ناجم عن كثافة النشاط العسكري في الجزيرة خلال فترة قصيرة، بينما يحاول الرواة التجسير بين الأخبار المتعددة، والمنقولة شفوياً، عن حدث معين. واكثر الروايات رواجاً هي صيغة سيف بن عمر، التي تبناها الطبري، وأخذها عنه المؤرخون اللاحقون.

ويستفاد من رواية سيف أن أبا بكر، بعد الاشتباك مع خارجة، حارب وهزم معسكرين للقبائل المتحالفة في نجد: عبس وذبيان ـ فرعان من غطفان. وبعد ذلك ولما عاد جيش أسامة واستراح، مضى أبو بكر إلى ذي القصة، ومن هناك سيَّر أحد عشر جيشاً، والمفترض في نفس الوقت، إلى جميع أنحاء الجزيرة العربية لاخضاع القبائل "المرتدة"(٢٥). وفيما يلي قائمة بأسماء قادة هذه الجيوش وغاياتها:

١ـ خالد بن الوليد، وعهد إليه بقيادة الجيش الذي توجه لقتال طلحة وحلفائه، ومن ثمَّ مالك بن نويرة.

٢ـ عكرمة بن ابي جهل، الذي توجه إلى بني حنيفة.

٣ـ المهاجر بن أبي أمية، الذي توجه إلى اليمن لمحاربة من تبقى من جيش الأسود العنسي، وأمره الخليفة بمساعدة الأبناء ضد قيس بن مكشوح المرادي.

٤ـ خالد بن سعيد، وأرسل إلى الحمقتين على الحدود السورية.

٥ـ عمرو بن العاص، وأرسل إلى جنوب فلسطين، حيث منازل قبيلة قضاعة.

٦ـ حذيفة بن مِحصَن، ووجهته دَبًّا وعمان.

٧ـ عرفجة بن هرثمة، ووجهته المَهرة.

٨- شُرحبيل بن حسنة، وأرسل مدداً لعكرمة في اليمامة، وأُمر أن يلتحق بعمرو في قضاعة بعد ذلك.

٩- طرُيفة بن حاجزة، ووجهته قبيلة سليم ومن في جوارها من هوازن.

١٠- سويد بن مُقرّن، وأرسل إلى تهامة، وهي شاطئ اليمن على البحر الأحمر

١١- العلاء بن الحضرمي، وأرسل إلى البحرين.

وفي العرض التالي لأحداث "حروب الردَّة"، ستجري مقارنة رواية سيف هذه مع الأخبار الواردة في المصادر الأخرى، وذلك في محاولة لتقديم قصة شاملة عن تلك الحروب، تقوم على كل المعلومات المتوفرة. وسيف بن عمر هو مصدر الطبري الوحيد تقريباً عن الردَّة. ورواية الطبري هي الصيغة الأشمل والأكثر تفصيلاً في المصادرالتي وصلتنا. لكن هذه الرواية، في شكلها القائم، تعاني من ميول سيف وأهوائه، وعليه، ففيها الكثير من الثغرات، خاصة فيما يتعلق بنشاط قادة الجيوش عدا خالد بن الوليد. وسيف بن عمر كان تميمياً، وقبيلته قاتلت في صفوف جيش خالد بن الوليد. وهذا قد يفسر السبب الكامن وراء التفصيل المسهب في وصف أمجاد خالد في رواية سيف، على حساب نشاط القادة الآخرين. بالمقابل، فإن أعمال غيره من المراجع لم تصلنا بالصيغة الكاملة والمترابطة، وإنما على شكل نتف متفرقة في المصادر، وعليه، فالمنهج الذي سيتبع في هذا العرض هو بالأصل نقد لرواية سيف في ضوء المعلومات التي توفرها المصادر الأخرى. وحيث تخفق رواية سيف بالاجابة على

التساؤلات، فستجري محاولة لتجميع النتف من المعلومات، والتجسير بينها، على خلفية الاستنتاجات التي تمّ التوصل إليها أعلاه.

٣ ـ البُزاخة

كما في ذي القصة، فإن معركة البزاخة اتخذت اسمها من الموقع الذي دارت فيه. وقد وقعت بعد ذي القصة بفترة قصيرة؛ كايتاني يرجح نهاية رجب، أو بداية شعبان، من العام ١١هـ[٢٦]. وجميع المصادر تتفق على أن خالد بن الوليد كان قائد جيش المسلمين، وأن طلحة كان يقود قوات القبائل المتحالفة في نجد ـ اسد،طيِّئ، وغطفان ـ التي خاضت المعركة ضد ذلك الجيش[٢٧]. إلا أن هناك خلافاً بين الرواة حول المشاركين في التحالف. فالواقدي وابن اسحق ومن يأخذ عنهما، يستثنون طيِّئ، ويذكرون غطفان فقط كحليف لطلحة الذي ينتمي إلى قبيلة أسد[٢٨]. بالمقابل، يروي سيف أن كلا من غطفان وطيِّئ تحالفتا مع طلحة[٢٩]. لكن سيف والواقدي يتفقان على أنه قبل وصول خالد بن الوليد إلى البزاخة، توسط عَدي بن حاتم الطائي، أحد سادة طيِّئ، بينه وبين بطون طيِّئ، ونجح في اخراجها من معسكر التحالف، وبالتالي انحيازها إلى جانب خالد في القتال ضد حلفائها السابقين[٣٠]، وفي المعركة حقق خالد، ومعه جيش المسلمين من المدينة، وحلفاؤه الجدد من طيِّئ، نصراً حاسماً على تحالف طلحة، من أسد، وعيينة بِن حصن، من غطفان. ويذكر أن طلحة فرّ هارباً إلى سوريا، بينما أُسر عينية، وأرسل إلى المدينة[٣١].

ومعركة البزاخة هي مثال نموذجي للاستراتيجية الاسلامية خلال الحرب في الجزيرة. فقد تحملت عبأها بشكل رئيسي قوات محلية، تم

تجنيدها من القبائل المقيمة في جوار موقع المعركة المعينة. والجيش الذي جاء من المدينة، كان بالعادة صغيراً نسبياً، واعتمد دائماً على القوى التي جندها في المنطقة المقصودة. ويذكر سيف أنه قبل مغادرة خالد إلى البزاخة، أوفد أبو بكر عدي بن حاتم إلى قبيلته طيّئ، في محاولة لاقناعها بالعدول عن الالتحاق بطلحة، وقد نجح عدي في مهمته. ويضيف سيف: ولما سار خالد، تظاهر أنه يقصد خيبر؛ وهذه الخدعة أربكت العدو، وأجبرت طيّئ على البقاء في ديارها لحمايتها، وبذلك منعها من اللحاق بطلحة في البزاخة. وعندها، توسط عدي بين خالد وطيّئ، ونجح في اخراج البطنين ـ الغوث وجديلة ـ من التحالف(٣٣). وسواء طوعاً أو كرهاً، فقد انفصلت طيّئ عن معسكر حلفائها بسهولة، وربما بسبب عدائها القديم لكل من غطفان وأسد(٣٤).

وبعد النصر في البزاخة، أرسل خالد سرايا من جيشه في اتجاهات مختلفة؛ وهزمت شراذم معسكر البزاخة؛ كما اضطرت قبيلة عامر بن صعصعة، وهي فرع من هوازن، للسعي إلى خضوع سلمي لجيش المسلمين(٣٥). ويصف الدياربكري الوضع في نجد الوسطى بعد البزاخة كما يلي: بدأ العرب يتوافدون على خالد، رغبة بالاسلام، أو خشية من السيف. وقد اسر بعضهم فادّعى أنه جاء طوعاً ليُسلم، أو أنه لم يرتدَّ وإنما ضن بأمواله، وهو الآن سيؤدي ما يتوجب عليه طوعاً. وآخرون، ممن لم يؤسر، جاؤوا إلى خالد ليسلموا، أو توجهوا مباشرة إلى المدينة، ليعلنوا خضوعهم لأبي بكر، تحاشياً لمواجهة خالد(٣٦). وبالخلاصة يمكن الافتراض أن معركة البزاخة وضعت نجد الوسطى تحت سيطرة المدينة المباشرة لأول مرة.

ومن رواية سيف حول تسيير أحد عشر جيشاً لمحاربة المرتدين، وعن معركة البزاخة، يفهم أن جزءاً من جيش المسلمين فقط، كان مع خالد؛ في حين أن الأجزاء الأخرى توجهت إلى نواح مختلفة، والافتراض هو أن القتال كان يدور على جبهات مختلفة في آن معاً. إلا أن ذلك ليس ما تقوله المصادر الأخرى. فالبلاذري، على سبيل المثال، لا يتحدث عن احد عشر جيشاً بعثها أبو بكر، ولكنه يخبر أن أبا بكر ذهب إلى ذي القصة لتنظيم الجيوش وتسييرها ضد المرتدين. ومن دون أن يبين من أين جرى تجنيد هذه الجيوش، يقول: وفي ذي القصة، عين أبو بكر خالد بن الوليد قائداً على الجيش (الأمر الذي يفهم منه أن خالداً كان قائد الجيش كله). كما عين ثابت بن قيس قائداً على الأنصار؛ إلا أن ثابت كان بأمرة خالد، وأمر أبو بكر خالداً أن يصمد لطلحة[٣٧]. ومصادر أخرى تفيد أن خالداًكان يقود جيش المسلمين كله إلى البزاخة، ولا تتكلم عن الجيوش الأحد عشر[٣٨]. وهذا الخلاف سيجري تناوله أدناه.

٤ ـ البُطاح:

ومعركة البطاح أيضاً اتخذت اسمها من موقع حدوثها. ويحدد كايتاني زمانها في نهاية العام ١١هـ، ولكن البطاح لم تكن معركة بالمعنى الحقيقي للمصطلح؛ وإنما كانت غارة لفرسان خالد على معسكر يربوع، وهي بطن من تميم. وفي هذه الغارة، أُسر مالك بن نويرة، سيِّد يربوع، وأعدم[٤٠]. ولا يرد ذكر مزيد من القتال بين جيش المسلمين وبطون قبيلة تميم الكبيرة.

وقصة مقتل مالك استحوذت دائماً على اهتمام الرواة؛ فهم

يسهبون في روايتها، ويهملون الأحداث الأخرى في تميم خلال الردَّة. وفي المصادر المتوفرة، ترد القصة بصيغ متعددة ومختلفة. وبينما جميع الصيغ تتفق على أن خالداً قتل مالكاً، فإنها تختلف حول السبب لذلك. وجملة الأسباب الواردة في المصادر ـ تأييداً لسلوك خالد في هذه الحادثة، أو اعتراضاً عليه ـ تتراوح بين شهوة زوجة مالك[٤١]، التي عرفت بجمالها، وبين جدل بين الاثنين، ذي طابع ديني، ويتعلق بنبوة الرسول[٤٢]. ويبدو أن قصة موت مالك اكتسبت رواجاً في الردة بسبب المراثي الشهيرة، التي قالها مُتمِّم بن نويرة بأخيه مالك، والذي يقال أنه ظل يبكي أخاه وينشد به الشعر حتى فقد بصره[٤٣]. وكذلك، فإن الخلاف الفقهي حول شرعية زواج خالد من امرأة مالك، قد أسهم كثيراً في ترويج هذه القصة[٤٤].

وفيما يتعلق بالردَّة في تميم، فالرواية التقليدية موجزة، والمعلومات فيها مفتتة ومبعثرة. وقد يعود ذلك إلى أن سيف بن عمر، وهو مصدر الطبري الرئيسي، كان تميمياً، وبالتالي حريصاً على تلميع صورة قبيلته. وهو يقول أن سادة تميم المتنافسين، قد انقسموا على أنفسهم بالنسبة إلى النبية الكاذبة ـ سجاح،[٤٥]كما بالنسبة إلى العلاقة مع المدينة. ونتيجة لوفاة الرسول وظهور سجاح بينهم، فإن أجزاء من تميم التحقت بها، بينما الآخرون قرروا الوفاء بالتزاماتهم تجاه المدينة، وعليه، فقد نشب قتال داخلي في القبيلة.[٤٦] إلا أن مصادر أخرى تدعي أن تميماً كلها ارتدت.[٤٧] ولكن، فيما خلا الغارة على البطاح، لا يرد في المصادر أي ذكر لقتال بين المسلمين وتميم. ويبدو أن بطون تميم، بعد فترة من التردُّد، وازاء خطر هجوم

خالد الداهم ، رضخت لجيش المسلمين بعد النصر في البزاخة.[٤٨]

وأخبار البطاح في المصادر التقليدية تشير إلى حدثين هامين، يلقيان الضوء على الخلافات السياسية في معسكر المسلمين انذاك، كما على موقف الأطراف المتعارضة من "حروب الردَّة". والحدث الأول هو تردُّد الأنصار بمتابعة الحرب، والثاني هو المعارضة لإدارة خالد لها. ويذكر أن الأنصار اعترضوا على قرار خالد مهاجمة تميم. وبحسب بعض المراجع، كان الاعتراض قائماً على الذريعة بأن أبا بكر لم يُجز الهجوم على تميم. إلاَّ أن خالداً ردَّ بأن الخليفة فوضه بذلك، وأعلن أنه لن يجبر أحداً على اللحاق به. ومهما يكن، فقد تراجع الأنصار، والتحقوا بخالد.[٤٩]

ويقول الدياربكري، وربما بالاستناد إلى الواقدي، أن الأنصار تذمروا من الإعياء وعدم كفاية القوات للاستمرار بالحرب.[٥٠] ويذكر سيف أن خالداً ردَّ على معارضة الأنصار بالحزم في قراره السير إلى أرض تميم، سواء التحق به الأنصار أم لا. وأجاب خالد معارضيه بأنه هو القائد، وحتى لو لم يكن معه تفويض من الخليفة، فإنه عندما تلوح له فرصة مواتية لن يتركها تفلت من يده حتى يحصل على موافقة الخليفة.[٥١] ومهما يكن الجدل على الجانبين، فإن ما يهم النقاش هنا هو الحدث بحد ذاته، وبالتالي انعكاساته. فإذا كان الأنصار مترددين في اللحاق بخالد، وكان هو حازماً في قراره بالسير على تميم، فالسؤال: على أية قوى كانت يعتمد؟

من المستبعد أن يكون خالد أقدم على مهاجمة تميم، دون موافقة الخليفة، الضمنية على الأقل. ويقول سيف أن أبا بكر أرسل خالداً من

ذي القصة ومعه أوامر صريحة بالسير على تميم بعد القضاء على طلحة وحلفائه في البزاخة.(٥٢)والبلاذري واضح بشأن تفويض الخليفة لخالد في محاربة طلحة، وأما بالنسبة إلى نشاطاته العسكرية الأخرى، فالبلاذري لا يثير مسألة التفويض أبداً. وهو يورد خبر محاربة تميم دون أن يطرح هذا السؤال بعد.(٥٣) والدياربكري يخبر بأن خالداً، بعد النصر في البزاخة، تظاهر بأن أبا بكر قد أجاز الهجوم على تميم.(٥٤)وفي ظل هذا الوضع يصعب تحديد ما إذا كان الخليفة قد فوض خالداً بالهجوم على تميم، أم لا. ولكن بالمقابل، ليس هناك ما يشير إلى أن أبا بكر اعترض على ادارة خالد للحرب، أو على قراره مهاجمة تميم. بل على العكس، فإن المصادر تظهر على الدوام دعم الخليفة الكامل وتشجيعه له، بل سروره وتقديره لأعماله المجيدة، ولايرد فيها نقد لخالد أو استياء من أفعاله.

لقد احتفظت الروايات التقليدية بالكثير من الشكاوى على خالد وادارته للحرب. وكذلك فهي تقدم عمر كعدو لدود لخالد، وكرأس لمجموعة حريصة على الدين، ظلت تتذمر من سلوك خالد، وتحث الخليفة على تسريحه من مهامه، بل وانزال العقوبة به كما يستحق على الجرائم التي ارتكبها. ففيما يتعلق بالبطاح فقط، تقدم عمر ومجموعته بثلاث شكاوى على خالد، وبحسب الشريعة الاسلامية، كل واحدة منها تستحق عقوبة الموت. ففي المكان الأول، ادعوا أن خالد، باصداره الأوامر لقتل مالك بن نويرة، فقد قتل مسلماً، ويجب أن يقتل عقاباً له على ذلك.(٥٥) وهذا الادعاء يرتكز إلى كون مالك مسلماً، عاملاً للرسول، ولم يرتدَّ. وثانياً، اتهم خالد بالزنا. وادعى المتهمون أن خالداً تزوج امرأة مالك، ودخل عليها قبل انقضاء العدَّة،

وعليه، يجب رجمه حتى الموت.(٥٦) وثالثاً، احتجت هذه المجموعة على معاملة خالد للقبائل التي أخضعها. ويذكر أنه حرق، وعذب حتى الموت، بعض "المرتدين"، لتخويف القبائل كما يبدو،(٥٧) الأمر الذي اعتبرته هذه المجموعة من أصحاب الدين غير شرعي. وفي جميع هذه الحالات، كان عمر هو المدَّعي على خالد، وأبو بكر المدافع عنه والداعم له. ولأولئك الذين وجهوا النقد لخالد، يذكر أن أبا بكر قال: "لن أغمد سيفاً سله الله على المشركين"(٥٨).

ولكن، حتى بدعم أبي بكر ومناصريه، فإنه لم يكن بمقدور خالد أن يسير إلى أرض تميم، دون أن يتوفر له جيش بحجم معقول، خاصة عندما رفض الأنصار اللحاق به. فمن أين جنَّد خالد هذا الجيش؟ وإذا قُبلت رواية سيف من أن أبا بكر أرسل أحد عشر جيشاً في نفس الوقت، فيكون خالد غادر ذا القصة ومعه جيش صغير نسبياً. فكما أشير أعلاه، كان مع أسامة في غزوته على حدود سوريا، جزء من طاقة المسلمين العسكرية فقط. وبعد مغادرة أسامة، وعلى الأغلب قبل عودته، دعا أبو بكر القبائل التي ظلت على ولائها للمدينة - أسلم، غفار، مزينة، أشجع، جهينة، وكعب - لارسال كتائب تعينه على قتال "المرتدين". ويذكر أن هذه القبائل استجابت،(٥٩) والواضح أن هذه الكتائب هي التي كان أبو بكر على رأسها في ذي القصة. وقبل البزاخة، وكما ذكر أعلاه، سحب خالد قبيلة طيِّئ من معسكر التحالف في نجد. وفيما طيِّئ إلى جانبه، خاض خالد معركة البزاخة، وحقق النصر على طلحة وحلفائه. وبعد المعركة، يذكر أن خالداً جرَّد القبائل المغلوبة من سلاحها، ووزعه على المحتاجين له من أتباعه للمشاركة في قتال العدو.(٦٠) لكن الديار

بكري، الذي يورد هذا الخبر، لا يفصِّل أكثر، ولا يذكر من هم أولئك الذين كانوا بحاجة إلى السلاح. بالمقابل، فإن سيف بن عمر يؤكد أن أبا بكر أمر قادة الجيوش بتجنيد الكتائب من القبائل التي ظلت على ولائها للاسلام.(٦١) ولعل سيف يعني بذلك تلك القبائل التي لم تحمل السلاح ضد جيش المسلمين، وعلى الغالب، فإنه يقصد قبيلته بالذات ـ تميم. وفي خبر آخر، يذكر سيف أن خالداً أرسل أحد سادة تميم لمحاربة قبيلة عامر بن صعصعة، من هوازن، بعد معركة البزاخة.(٦٢) ومن الجائز أنه في هذه الفترة بالذات، أي بعد معركة البزاخة مباشرة، بدأ سادة تميم ينضمون إلى جيش المسلمين، بقيادة خالد بن الوليد.

٥ ـ عقرباء

وعقرباء اسم سهل، حيث خاض جيش المسلمين، بقيادة خالد بن الوليد، معركة دامية ضد بني حنيفة، بقيادة مسيلمة. ويحدد كايتاني تاريخ المعركة في نهاية عام ١١هـ، أو بداية عام ١٢هـ .(٦٣) ومن الوصف الذي تقدمه المصادر عنها، والعدد الكبير من المسلمين الذين استشهدوا فيها، يبدو أن عقرباء كانت المعركة الأكثر شراسة التي خاضها جيش المدينة في الجزيرة.(٦٤) إلاَّ أنه في النهاية حقق النصر، واضطر مسيلمة وأتباعه للجوء إلى بستان، يحيط به جدار، حيث قتلوا جميعاً. وهذا الحدث، يعرف بالتاريخ الاسلامي باسم "حديقة الموت"، نظراً لكثرة من قتل فيها.(٦٥) وبعد موت مسيلمة، استسلم بنو حنيفة، وعقدوا صلحاً مع خالد بن الوليد.(٦٦)

إلى هذا الحد، تتفق المصادر التقليدية بشكل عام حول الخطوط

العريضة لقصة هذه المعركة. إلاأنها تختلف على التفاصيل، التي تحمل دلالات هامة بالنسبة إلى الردَّة ككل، وإلى الخلافات داخل الجماعة الاسلامية بشأنها. وهذه الخلافات تتمحور حول مسألة أساس القتال مع بني حنيفة، معارضة الأنصار للاستمرار في الحرب بقيادة خالد بن الوليد، وكذلك، وكما في المعارك السابقة، لسلوكه الشخصي. فمهاجمة خصم عنيد، كما تصور المصادر بني حنيفة، يفترض فيها من المسلمين تحشيد كل قواتهم وزجها في المعركة، لكن الظاهر أن الحالة لم تكن كذلك. والدلائل في المصادر تشير إلى غير ذلك، أي أن جزءاً فقط مما كان بمقدور المسلمين تحشيده في الجيش، اشتبك مع بني حنيفة؛ في حين أن أجزاء أخرى منه كانت تقاتل في أكثر من مكان في الجزيرة العربية والصحراء السورية.

وفيما يتعلق بعقرباء، يروي سيف ما يلي: من ذي القصة، أرسل أبو بكر عكرمة بن أبي جهل، أحد القادة الأحد عشر، لمحاربة بني حنيفة. ثم أمدَّ الخليفة عكرمة بجيش آخر، بقيادة شرحبيل بن حسنة، واستعجل عكرمة الدخول بالقتال مع بني حنيفة، الذين أوقعوا به هزيمة منكرة. ولما وصلت أنباء الهزيمة إلى أبي بكر، اشتد غضبه من سلوك عكرمة، وأمره أن يسير إلى الجنوب الشرقي، وينضم إلى حذيفة وعرفجة، ويعينهما على قتال أهل عمان والمهرة. وفي الأمر أنه، بعد اخضاع عمان والمهرة، فعلى عكرمة أن يرحل بجيشه، ويسير إلى حضرموت واليمن، حيث يلتقي مع المهاجر بن أبي أمية.[٦٧] وهذا هو الطريق الذي سلكه عكرمة، أما أن يكون قد تلقى أمراً مفصلاً من الخليفة بذلك، كما يدَّعي سيف، أم لا، وما إذا كان عكرمة قد أرسل بهذه المهمة الشاقة كعقاب له، حسب أقوال سيف،

أم لا، فهي مسائل مختلَف فيها.

لا يتوفر مصدر آخر يدعم رواية سيف فيما يتعلق بهجوم عكرمة على بني حنيفة والهزيمة التي ألحقوها به. لكن تأكيداً جزئياً لهذه الرواية يرد عند اليعقوبي. وهذا الأخير يذكر أن الخليفة أرسل شُرحبيل بن حسنة ضد بني حنيفة، ثمَّ أمدَّه لاحقاً بخالد بن الوليد.(٦٨) لكن اليعقوبي لا يذكر أي اشتباك مع بني حنيفة قبل وصول خالد، في حين يدَّعي سيف بأن شرحبيل أيضاً، اقتفى اثر عكرمة، ولقي نفس النتيجة.(٦٩)وبذلك، وبحسب سيف، كان هناك اشتباكان فاشلان مع بني حنيفة قبل وصول خالد إلى عقرباء، حيث وقعت المعركة الحاسمة مع مسيلمة. أما المصادر المتوفرة الأخرى، فلا تذكر عكرمة، أو شرحبيل، فيما يتعلق باليمامة، كما أنها لا تتحدث عن قتال مع بني حنيفة قبل وصول خالد. ويقول البلاذري أنه بعد أن أخضع خالد نجد، خلال بضعة شهور، أرسله الخليفة ضدَّ مسيلمة.(٧٠) والديار بكري، وربما بالاستناد إلى الواقدي، يقول أن الخليفة أمر خالداً بالسير إلى بني حنيفة، وذلك في ذي القصة، عندما كلَّفه بقيادة جيش المسلمين. وقد أصرَّ الخليفة على خالد بمهاجمة بني حنيفة، بعد قمع الردة في البزاخة.(٧١) وازاء هذا التعارض في الروايات، فالخيار القائم هو إما رفض رواية سيف، وإما محاولة التجسير بينها وبين الأخبار الأخرى. وفي الخيار الثاني، يمكن افتراض وقوع اشتباك صغير بين عكرمة وبني حنيفة، عندما كان الأول عاملاً للرسول على هوازن، القبيلة المجاورة لبني حنيفة.(٧٢) وبينما أهمل الرواة الآخرون هذا الاشتباك، فإن سيف، الذي تتسم رواياته بالتفصيل المحبب إليه، قدَّم قصة بكامل تلاوينها، مع بعض التعليق من عنده.

ومهما تكن القصة الحقيقية، فإن جميع المصادر تتفق على أن عكرمة بن أبي جهل لم يحضر معركة عقرباء، بينما شرحبيل بن حسنة، حسب سيف واليعقوبي، كان في مقدمة خالد في تلك المعركة.(٧٣) ومن الملفت للانتباه أن أحداً من القادة البارزين لجيش المسلمين، سواء في الردَّة أو الفتوح، ما خلا شرحبيل بن حسنة، لا يرد ذكر اسمه في المصادر مع خالد في اليمامة. وإذا كان ذلك صحيحاً، فالسؤال: أين كان أشخاص مثل عمرو بن العاص، خالد بن سعيد، المهاجر بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل..الخ؟ هل كانوا يحاربون في نواح أخرى، وأين؟ ومن أين جندوا جيوشهم؟ وهذه أسئلة سيتم التطرق إليها في الفصل التالي. لكن السؤال الملح هنا. وهو يتعلق بمعركة عقرباء: من أين جند خالد نفسه هذا الجيش الكبير، الذي كان يكفي لمواجهة بني حنيفة، وتحقيق النصر عليهم؟.

وبالنسبة إلى جيش خالد في عقرباء، لا توفر المصادر للأسف إلاً معلومات ضئيلة. وهي تتحدث عن جيش كبير بقيادة خالد، لكنها لا تفصل أكثر من ذلك. هناك القليل من الملاحظات المبعثرة في المصادر، والتي تشير إلى تركيب جيش خالد. ومن هذه النتف يستفاد أن جيش خالد في عقرباء ضم مهاجرين وأنصار ورجال قبائل. والروايات تتحدث عن اتهامات متبادلة بين رجال القبائل وأهل المدن في ذلك الجيش خلال المعركة. وكل طرف اتهم الآخر بالجبن والتراجع أمام هجوم بني حنيفة الشرس.(٧٥) ومن الواضح أنه كان مهاجرون وأنصار من المدينة في جيش خالد، لكن المسألة هي تحديد القبائل البدوية التي شاركت بالمعركة، لعلاقة ذلك بالردَّة.

يخبر الدياربكري أن أبا بكر، بعد معركة البزاخة، قبل بيعة القبائل المغلوبة، شريطة أن ترسل منها كتائب إلى اليمامة، تساعد خالداً في قتال بني حنيفة. ويروى عن أبي بكر قوله للقبائل: آمن هو من كتب لي خالد عنه أنه حضر اليمامة معه ! ليعلم الحاضر الغائب ! لا تعودوا إلي وإنما خذوا طريقكم إلى خالد![٧٦] إن قوائم شهداء المسلمين في عقرباء، كما هي واردة في المصادر المتوفرة، تضم أسماء المهاجرين والأنصار فحسب، ولا تتضمن رجال القبائل.[٧٧] ولكن هذه المصادر ذاتها تتحدث عن عدد كبير نسبياً من البدو الذين قتلوا في المعركة.[٧٨] واشارات مبعثرة في المصادر تشير إلى أن قبائل نجد شاركت في عقرباء إلى جانب المسلمين. ويورد الدياربكري خبراً يفيد بأن قبائل نجد ـ غطفان، أسد، تميم، وطيّئ ـ اعتبرت مسؤولة عن تراجع المسلمين ثلاث مرات في المعركة.[٧٩] ويورد الدياربكري خبراً آخر بالاستناد إلى رجل من فزارة، قال بأنه حارب المسلمين في البزاخة، وبعد المعركة جاء يستسلم لأبي بكر، فأمره أن يلتحق بخالد في اليمامة.[٨٠] وهذه المعلومة تضيف توكيداً لما ذكر أعلاه: أن القبائل المغلوبة جُندت في جيش المسلمين، وبمساعدتها تمكن المسلمون من مواصلة الحرب.

وهنا أيضاً، كما في المعارك السابقة، يتحدث الرواة عن معارضة الأنصار للمشاركة بالحرب تحت قيادة خالد، ويتذمرون من سلوكه. ويذكر البلاذري أن الأنصار رفضوا في البداية القبول بقرار خالد مهاجمة بني حنيفة، لكنهم ما لبثوا أن ندموا والتحقوا به.[٨١] وبعد النصر على أرض المعركة، ولكثرة من فقدهم من جيشه، عقد خالد صلحاً مع بني حنيفة، اشترط فيه عليهم أن يسلموا حصونهم،

ويدفعوا نصف أملاكهم جزية. وتزوج خالد ابنة مُجّاعة، أحد وجوه بني حنيفة، والذي تفاوض مع خالد على معاهدة الصلح. وبحسب سيف، كتب أبو بكر لخالد يأمره بقتل كل رجل بلغ الرشد في بني حنيفة. لكن الكتاب وصل إلى خالد بعد أن كان قد عقد الصلح معهم، فحافظ على عهده لهم.[٨٢] إلا أن الأنصار رفضوا القبول بشروط الصلح، وطالبوا بتنفيذ أوامر أبي بكر، لكن خالد رفض أن يخرق الاتفاق. فبعد أن كسبوا المعركة الرئيسية في عقرباء، أراد الأنصار الاستمرار بالقتال، اقتحام حصون بني حنيفة، وبالتالي معاملتهم كمن هزم عنوة. بالمقابل، رأى خالد صعوبة تحقيق ما يطالب به الأنصار، خاصة بعد أن فقد هذا العدد الكبير من جيشه على أرض المعركة، وفضل التعاقد معهم على السلم. ولعل الأنصار شككوا في سلوك خالد، خاصة بعد أن تزوَّج من ابنة مُجّاعة، ورأوا في شروط الاتفاق صفقة تحرمهم من ثمار النصر الذي حققوه.[٨٣] وتذمر الأنصار من تجاهل خالد أوامر الخليفة، ومن زواجه ابنة مجاعة، خاصة وأن الأنصار قد فقدوا هذا العدد الكبير من الرجال في القتال. وكذلك، ثنَّى عمر ومجموعته على تذمر الأنصار والاحتجاج على سلوك خالد. ويذكر أن أبا بكر وبَّخ خالد على اعماله هذه، لكنه في النهاية قبل عذره، ورفض الاستجابة لمطالب عمر في تنحية خالد عن قيادة الجيش[٨٤].

٦ ـ البحرين

وقصة الحرب في البحرين، كما هي في المصادر التقليدية الرئيسية، أقرب إلى الأسطورة منها إلى الرواية التاريخية؟ فالمعلومات

التاريخية التي توفرها المصادر تضيع في القصص الطويلة عن الأحداث العجيبة التي يقال أنها حصلت لجيش المسلمين في البحرين، وفي الطريق إلى هناك[٨٥]. وليس كما هي الحال في أماكن أخرى من الجزيرة، فالحرب في البحرين استمرت زمناً طويلاً، ولم تنتهِ بمعركة واحدة حاسمة. وفي الواقع، فإن فتح البحرين لم يستكمل حتى أيام عمر، في عام ١٣هـ[٨٦]. وبالنسبة إلى الحرب في البحرين، فالمصادر التقليدية بالكاد تتفق على شيء، عدا أن العلاء بن الحضرمي كان يقود جيش المسلمين هناك. فمن أرسل العلاء، ومتى؟ ومن أين جند العلاء جيشه؟ وهل ذهب خالد إلى البحرين لتعزيز العلاء، أم لا؟ وهل كانت الحرب مستمرة في البحرين في نفس الوقت مع الجبهات الأخرى؟ وهذه كلها أسئلة، تعطي المصادر المختلفة أجوبة متنوعة عليها. وإزاء هذا الحال، فليس بالامكان أكثر من محاولة استخلاص قصة متماسكة إلى حد ما، تقوم على المعلومات المتوفرة، وتنسجم مع خلفية الأوضاع في تلك المنطقة، كما جرى توصيفها بالفصل السابق.

فالبلاذري، الذي يحذف كل العناصر الأسطورية من القصة، يوفر المعلومات التالية[٨٧]: بعد موت الرسول، طالب أهل البحرين أبا بكر بأن يعيد العلاء عاملاً عليها، واستجاب الخليفة لطلبهم؛ وفيما خلا الجارود وقبيلته، عبد القيس، فكل البحرين ارتدت بعد موت المنذر بن ساوى، "ملك البحرين"؛ وقد وقع ذلك بعد وفاة الرسول بفترة قصيرة؛ وقد نصَّب المرتدون سليلاً لملوك الحيرة أميراًعليهم؛ وعندما بلغ الخبر العلاء، سار إليهم وحاربهم؛ وبعد هذا الاشتباك اضطر المسلمون المهزومون للجوء إلى حصن جواثا، وهي مدينة بالبحرين؛

وأخيراً، قام العلاء بهجوم مباغت على المحاصرين وانتصر عليهم. وفي خبر آخر يقول البلاذري: وبعض الرواة يقولون أن العلاء كتب إلى أبي بكر يعلمه بالوضع، ويسأله المدد؛ فكتب أبو بكر إلى خالد يأمره بالاسراع لنصرة العلاء؛ لكن خالداً وصل بعد أن كان الحُطَم، قائد المرتدين، قد قتل، فحاصر الخطّ، وهي مدينة بالبحرين، مع العلاء. وفي تلك الفتر، جاء خالداً كتاب أبي بكر بالسير إلى حدود العراق. ويلحظ البلاذري أن الواقدي يدعي بأن خالداًعاد إلى المدينة من اليمامة، ومنها توجه إلى العراق.

أما صيغة ابن اسحق من القصة، والتي تبناها كايتاني، واستعملها ضد رواية سيف، فتقول أن أبا بكر أرسل العلاء إلى البحرين فقط بعد فتح اليمامة[٨٨]. وهذه القصة المجتزأة في الطبري، لها كمالة في "مجمع الزوائد" للهيثمي، وتضيف أن ثمامة بن أُثال وهو خصم مسيلمة في بني حنيفة، جاء مدداً للعلاء. وحاصر المرتدون المسلمين في حصن جواثا، حتى كادوا يهلكون جوعاً. وعندها قام العلاء بغارة ليلية مفاجئة على المرتدين، وهزمهم. وفرقهم من محيط الحصن[٨٩].

أما قصة سيف فهي أكثر تفصيلاً، وفيها من الخيال ما يجعل قبولها بصيغتها صعباً؛ ولكن، ما من سبب يدعو إلى رفضها بالمطلق، كما فعل كايتاني وفلهاوزن[٩٠]. والنقاط الرئيسية في هذه القصة الطويلة هي كالتالي[٩١]: أرسل ابو بكر العلاء ضد المرتدين في البحرين، ويفترض أنه كان واحداً من الأحد عشر قائداً الذين سيَّرهم الخليفة من ذي القصة. وفي طريقه إلى غايته، ألتحق به ثمامة بن أُثال، وأثناء مروره في أرض تميم، تعزّز هذا الجيش بعدد من المقاتلين

يوازي عدده الأصلي. وهذه التعزيزات جاءت من الرِّباب، وعمرو بن تميم، وهما بطنان من تميم، ولدى وصوله إلى البحرين، ألتحقت بالعلاء قبيلة عبد القيس. وبذلك امتلك هذا الجيش ما يكفي من القوة لاخضاع الحُطم وأتباعه من قبيلة ربيعة(٩٢).

إلى هذا الحد، وفي جميع المعارك التي وقعت في قلب الجزيرة العربية، لا يرد اسم العلاء؛ وفي الغالب أنه لم يكن مع خالد في اليمامة. وعلى خلفية الحركة في البحرين، يمكن تقديم فرضية تجسر على الأخبار المختلفة حول مهمة العلاء في البحرين، كما يلي: لقد ثارت القبائل على المنذر بن ساوى، الذي كان عاملاًللفرس سابقاً، ومن ثمَّ عقد اتفاقاً مع الرسول. وبعد وفاة الرسول بفترة قصيرة، مات المنذر، وغلب المتمردون على جماعته. فطلب أتباع المنذر العون من ابي بكر، الذي، في ظل الظروف القائمة آنذاك، لم يملك ارسال جيش كبير لانقاذهم. ولكن، كما يقول البلاذري وسيف، أرسل الخليفة العلاء، وعلى الغالب بجيش صغير، إن لم يكن بلا جيش بالمرة، كدعم رمزي لأتباع المنذر. وفي البحرين كثر الأعداء على العلاء، وحاصروه لفترة طويلة، كما يبدو. وبعض الأخبار تفيد أن العلاء طلب المدد من أبي بكر، الذي لم يستطع توفيره إلا بعد هزيمة مسيلمة.

ويستبعد جدًّا أن يكون خالد بن الوليد ذهب إلى البحرين بنفسه، ولكن يجوز أنه أمدَّ العلاء ببعض التعزيزات. وهذا قد يفسر ما يقوله سيف حول القبائل التي ألتحقت بالعلاء في طريقه إلى البحرين. لقد تابع العلاء الحرب ضد مدن البحرين، بينما قادة جيوش المسلمين

الآخرون كانوا يقاتلون في أماكن أخرى. ومن جدول نشاط خالد العسكري، يتضح أنه سار إلى حدود العراق، وعودة إلى سوريا، قبل أن ينجز العلاء اخضاع البحرين.

٧ ـ عمان والمهرة

كايتاني، بناءً على ابن اسحق، يحدِّد تاريخ فتح عمان والمهرة في النصف الأول من عام ١٢ هـ[٩٣]، إلا أن آخرين يقولون بأن حروب الردَّة كلها وقعت في عام ١١ هـ[٩٤].

وبالنسبة إلى عمان، فالمصادر التقليدية موحدة تقريباً في تحديدها لمجرى الأحداث هناك. ويستفاد من تلك المصادر أنه لما اندلعت الثورة في عمان ضد حلفاء المدينة، أرسل ابو بكر حذيفة بن مِحصَن لمحاربة المتمردين، وأمدَّه لاحقاً بعكرمة بن أبي جهل، وقاتل الاثنان لقيط، رئيس المتمردين، وهزماه. وبقي حذيفة في عمان، عاملاً للمدينة، وعاد عرفجة بالغنائم إلى المدينة، بينما تابع عكرمة مسيرته إلى المهرة واليمن[٩٥]. وبحسب سيف، فإن أبا بكر أرسل الجيوش إلى عمان بناء على طلب حلفاء المدينة هناك[٩٦].

وفيما يتعلق بحذيفة، فالمصادر المتوفرة لا تقدم معلومات من اين جنَّد جيشه، والغالب أنه كان عليه الاعتماد على القوى المحلية في عمان، أما عكرمة، فهناك خبر للواقدي يفيد بأنه سار إلى عمان على رأس جيش من قبيلة كعب بن ربيعة[٩٧]. وهذا الخبر يدعم الافتراض أعلاه، بأن عكرمة شارك في الحرب ضد بني حنيفة، كما يتفق تماماً مع الأخبار الواردة حول مشاركته في حروب الردَّة. ويستفاد من المصادر بأن الرسول، في عام وفاته، أرسل عكرمة عاملاً على قبيلة

هوازن[٩٨]. وقبيلة كعب بن ربيعة، التي يرد اسمها في خبر الواقدي، هي من هوازن[٩٩]، ومُقامها إلى الجنوب الشرقي من الطائف جعلها أقرب القبائل المسلمة إلى كل من اليمامة وعمان. وأخذا بالاعتبار هذا العامل الجغرافي يبدو أن الأمر الأكثر منطقية لأبي بكر، إن هو أراد إرسال جيش إلى عمان، أن يعهد بالمهمة إلى عكرمة. وإذا كان عكرمة سيعتمد على تجنيد قوى محلية، ولن يتلقى دعماًعسكرياً من المدينة، فليس من سبب يدعوه للانتظار حتى يستكمل خالد فتح نجد. وبالاعتماد على جيشه الخاص والمحلي، كان باستطاعة عكرمة التحرك بشكل مستقل في عمان، وبالتواكب مع نشاط خالد العسكري في نجد.

ومن الممكن أن عكرمة، وبينما كان عاملاًعلى هوازن، وقبل التحرك إلى عمان، تلقى أمراً من الخليفة للقيام بهجمات على بني حنيفة، وذلك بهدف تقديم المساعدة لتلك الأقلية من حلفاء المدينة، التي وجدت نفسها في حالة صعبة إزاء مسيلمة وأتباعه. ومن موقعه الاستراتيجي، كان باستطاعة عكرمة أن يشاغل بني حنيفة في الدفاع عن أراضيهم، وبالتالي ردعهم عن تقديم أية مساعدة لأعداء المدينة في نجد. ويبدو ممكناً أن أخبار سيف عن قتال عكرمة مع بني حنيفة تشير إلى هذه الاشتباكاكات؛ بينما رواة آخرون يهملون ذكرها. وعلى اي حال، فإنه خلافاً لما يقوله سيف، لم يخرج عكرمة على رأس جيش من ذي القصة، وإنما، ومن موقعه كعامل للمدينة على هوازن، عُهد إليه بقيادة الجيش الذي سار إلى عمان، وكذلك ، فمن المشكوك به أن يكون عكرمة كما يدَّعي سيف، قد أرسل إلى عمان عقاباً له على سلوكه المتهور بالحرب. وفي الغالب، فإن الخليفة أمر

عكرمة بالتوجه إلى عمان بعد النصر الذي حققه خالد في البزاخة، حيث أصبح بالامكان تجنيد جيش كافٍ لمهاجمة اليمامة من قبائل الحجاز ونجد.

ومن عمان، سار عكرمة إلى المهرة، على رأس جيش تمَّت تعبئة صفوفه من القبائل في المناطق التي فتحت. وهناك، انحاز إلى سيد محلي، هو شخريت، ضد آخر، هو المُصَبَّح؛ فهزما هذا الأخير وقبيلته، محارب،وخضعت المهرة لجيش المسلمين(١٠٠). ومن هناك تابع عكرمة مسيرته إلى اليمن عبر حضرموت، حيث ألتقى مع زياد بن لبيد والمهاجر بن ابي أمية، ومعاً قاتلوا كندة وهزموها(١٠١).

٨ ـ اليمن

بعد موت الأسود، انفجرت الصراعات بين أولئك الذين تآمروا عليه ونجحوا في تصفيته. وبحسب سيف، انتشرت الردة، مرة اخرى، في اليمن بعد وفاة الرسول. وهذه، كما يسميها سيف، الردَّة الثانية(١٠٢). إلا أن البلاذري لا يتحدث عن ردَّة أخرى في اليمن. وهو يقول بأن قيس بن مكشوح اتهم باغتيال داذويه، رئيس الأبناء، وكان يتآمر لطرد البقية من اليمن. وعندما استسلم قيس لقائد جيش المسلمين في صنعاء، بعث به هذا الأخير إلى أبي بكر. وفي المدينة، أقسم قيس بأنه لم يقتل داذوية، فأطلق أبو بكر سراحه(١٠٣).وكذلك، لا يتحدث الواقدي عن ردَّة ثانية في اليمن، بعد موت الأسود(١٠٤).

لقد ذكر أعلاه أن المؤرخين المسلمين الأولين، بشكل عام، وسيف بن عمر، بشكل خاص، أطلقوا اسم الردَّة على الحروب في الجزيرة

بلا مبرر. وفي أخباره عن اليمن، يبرز سيف كنموذج لعدم الدقة. فهو يتحدث عن ردَّة ثانية، ويورد القصة التالية: عندما بويع أبو بكر خليفة، عين فيروز أميراً على اليمن. ولما علم قيس بذلك، حاول أن يحشِّد العرب في اليمن من حوله، علَّه بمساعدتهم يطرد الأبناء الأغراب من هناك. إلا أن سادة القبائل الذين اتصل بهم قيس، رفضوا أن يمدُّوا له يد المساعدة، وفضلوا أن يبقوا على الحياد في هذا الصراع. إلا أن قيساً استطاع أن يجمع حوله من تبقى من جيش الأسود، وطرد الأبناء من صنعاء. وأخيراً استطاع فيروز أن يحصل على مدد من القبائل حول صنعاء، فحارب قيساً وهزمه(١٠٥). وفي كل هذا، لم يكن المسلمون طرفاً؛ والواضح أنه كان استمراراً للصراع على السلطة في صنعاء، لكن سيفاً اختار أن يسميه ردَّة.

وفي خبر آخر، يؤكد سيف ما يقوله البلاذري من أن قيساً استسلم لقائد جيش المسلمين، فأُرسل إلى المدينة، وعفا ابو بكر عنه(١٠٦). وهذا يشير إلى أن الحركة في اليمن لم تكن موجهة ضد المدينة، بل كانت صراعاً محلياً، يسعى كل طرف فيه الحصول على دعم المدينة. لكن كل واحد منهم كان مستعداً لاختبار حظه في تحقيق أهدافه بالقوة، إذا امتنعت المدينة عن تقديم الدعم له، أو منحته للآخرين.

وروايات سيف تشير إلى نموذج من إدارة المسلمين للحرب في الجزيرة فهو يقول، ويؤيده في ذلك آخرون، أن أبا بكر أرسل المهاجر بن أبي أمية لاخضاع اليمن(١٠٧). فأخذ المهاجر طريقه عبر مكة، حيث انضم إليه جيش بقيادة خالد بن أسيد، أخي عامل مكة. ومنها

تقدم إلى اليمن عبر الطائف، مروراً بأرض بَجيلة، نجران، فاليمن. وفي كل من هذه الأماكن، تمَّ تعزيز جيشه بكتائب أخرى(١٠٨). ويظهر من هذا الخبر أن المهاجر جند جيشه من القبائل الصديقة في طريقه إلى غايته. وإذا كان الأمر كذلك، فالمهاجر، مثله مثل عكرمة، لم يكن بحاجة الانتظار لانتهاء الحرب في نجد، مادام سيجند جيشه من القبائل خارجها، وكان بمقدروه أن يتحرك باستقلالية عن بقية القادة، وبمواكبة نشاطهم.

* * *

إلى هنا، غطَّى العرض أعلاه نشاط سبعة من القادة الأحد عشر الذي يقول سيف بن عمر أنهم أرسلوا لمحاربة القبائل المرتدة واخضاعها لسلطة المدينة. ومن الأربعة الباقين، اثنان (طُريفة بن حاجزة وسويد بن مُقَرِّن) لعبا دوراً هامشياً في الحرب. ولكن الآخرين (خالد بن سعيد وعمرو بن العاص) فقد كانا شخصيتين بارزتين في فجر الإسلام، ودورهما بالحرب على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة إلى الردَّة والفتوح، وكذلك للعلاقة بينهما.

وطريفة كان أخا معن بن حاجزة، الذي كان عاملاً للمدينة على جزء من قبيلته، سُلَيم. وكان معن، على رأس كتيبة من قبيلته، ألتحق بخالد بن الوليد في البزاخة تاركاً أخاه طريفة يسيِّر شؤون سليم في غيابه. ويبدو أنه في هذه الفترة، انطلقت حركة في سليم، يقودها الفجاءَة، ضد المدينة. والفجاءَة الذي اسمه الكامل هو إياس بن عبد ياليل، يقال أنه جاء إلى أبي بكر بعد اندلاع الردَّة، وقدَّم خدماته للخليفة، شريطة أن يزوده بالسلاح اللازم؛ ففعل الخليفة ذلك.

ولكن، لما عاد الفجاءَة إلى قبيلته، انقلب على المسلمين في منطقته، وراح يغير على حلفاء المدينة، مثل سليم، عامر، وهوزان. ولذلك، أمر أبو بكر طريفة بقتاله، ففعل وأسره، وبعث به إلى الخليفة في المدينة، الذي يقال أنه أمر باحراقه حيّاً. وهذا هو النشاط العسكري الوحيد الذي يعزى لطريفة في "حروب الردة"(١٠٩).

أما الدور الذي لعبه سويد بن المقرّن فكان أقلَّ أهمية. وفيما خلا سيف، فلا أحد يذكر اسمه. وحتى سيف نفسه لا يقدم معلومات اضافية حول نشاط سويد في الحرب، عدا أن أبا بكر ارسله إلى تهامة، ساحل اليمن على البحر الأحمر. ويبدو أن دوره كان صغيراً إلى حد أن أحداً لم يذكره.

أما بالنسبة إلى عمرو بن العاص وخالد بن سعيد، ونشاطهما العسكري في جنوب سوريا، فالمصادر التقليدية مربكة، وفي الكثير من الحالات متناقضة. وفي هذا السياق، فإن أخبار سيف بن عمر هي في تناقض صارخ مع تلك التي يوردها ابن اسحق والواقدي.(١١٠) فبحسب سيف، عمرو بن العاص وخالد بن سعيد أرسلا إلى سوريا، في نفس الوقت الذي سار به القادة الآخرون من ذي القصة ضد المرتدين.(١١١) والبلاذري، دون ذكر مصادره، يقول أن أبا بكر أرسل ثلاثة جيوش إلى سوريا، في عام ١٣ هـ؛ وكان ذلك بعد الانتهاء من الردَّة فقط.(١١٢) وابن اسحق يقول أن أبا بكر أرسل الجيوش إلى سوريا، بعد عودته من الحج في عام ١٢هـ، أي في بداية عام ١٣ هـ.(١١٣) وموسى بن عقبة والواقدي يتحدثان عن ارسال ثلاثة جيوش إلى سوريا، دون ذكر تواريخ لذلك.(١١٤) وتختلف المصادر

حول قادة تلك الجيوش، من سار منها أولا، ومن كان القائد العام لجيش المسلمين في سوريا.(١١٥)

ويحدد كايتاني تاريخ سير الجيوش إلى سوريا في النصف الثاني من عام ١٢ هـ. وقد توصل إلى هذه النتيجة من خلال المقارنة بين الروايات المختلفة، والتجسير على خبرين، أحدهما من ابن اسحق، والثاني من ابن سعد.(١١٦) والقبول بوجهة نظر كايتاني، أو اعتبار أخبار ابن اسحق والبلاذري أكثر مصداقية من أخبار سيف، يستلزمان الاجابة على سؤال هام: ماذا كان القائدان البارزان، اللذان يرتبط اسماهما بفتح سوريا، يعملان خلال حوالي سنتين، منذ وفاة الرسول وإلى نهاية ما يسمى "حروب الردَّة"؟ وكما ورد أعلاه، كان عمرو بن العاص في عمان، وخالد بن سعيد في اليمن، لدى وفاة الرسول، وعاد الاثنان إلى المدينة بعد ذلك مباشرة. ولا يرد ذكر لانخراطهما بالحرب في الجزيرة ذاتها، والمصادر التي تتناقض مع سيف (والتي يعتمدها كايتاني وفلهاوزن في مناقشاتهما) لا توفر معلومات عن مكان وجود هذين القائدين البارزين خلال تلك الفترة. وإذا رفضت رواية سيف، فلا بدَّ من إيجاد حل لمشكلة أخرى، وهي: بفعل من تحولت القبائل في جنوب سوريا، من جانب بيزنطة إلى جانب المسلمين؟(١١٧)

وبالنسبة إلى هذه التساؤلات، ولحسن الحظ، احتفظ ابن عساكر في كتابه "تاريخ دمشق" بعدد كبير من الأحاديث التي تمثل وجهات نظر مختلفة. وفيما يلي تلخيص لأهم أخبار ابن عساكر، مرتبة بحسب المصادر التي يستند إليها:

١- ابن اسحق

إن فتح اليمامة، اليمن، والبحرين، وارسال جيوش المسلمين إلى سوريا، كلها وقعت في عام ١٢ هـ.[١١٨] ولما عزم أبو بكر على مهاجمة البيزنطيين، استشار الصحابة البارزين، فوافقوه وقبلوا رأيه. وبعد ذلك، حثَّ أبو بكر المسلمين على المشاركة في الحملات. وقد عين خالد بن سعيد قائداً. ولكن، قبل مغادرة الجيش، تفحصه الصحابة البارزون، وأعربوا عن عدم رضاهم من عدَّته. وعليه، نصحوا أبا بكر أن يكتب إلى أهل اليمن، ويدعوهم للمشاركة في الحملة، ففعل.[١١٩] وابن اسحق، كما ورد في ابن عساكر، لا يذكر ما إذا كان هذا الجيش توجه إلى غايته، أم لا.

٢- الواقدي

لما عزم أبو بكر على ارسال الجيوش لفتح سوريا، كان أول المغادرين من قادته عمرو بن العاص. وكان معه في الجيش ثلاثة ألاف رجل.[١٢٠] وابن سعد، كاتب الواقدي، يضيف أن أبا بكر عين عمرواً قائداً على كل القبائل التي يمر بأرضها: بليّ، عُذرة، وقضاعة. وأمر الخليفة عمرواً أن يدعو الناس إلى الجهاد، ويحثهم عليه، ويعطي من يتبعه راحلة تحمله وسلاحاً، وأن يرافق بين القبائل، ويجعل كلاً منها على حدتها ومنزلتها.[١٢١]

٣- موسى بن عقبة

لما بويع أبو بكر، أرسل ثلاثة جيوش إلى سوريا، كان قادتها خالد بن سعيد، عمرو بن العاص، وشُرحبيل بن حسنة. إلا ان الخليفة،

وبضغط من عمر، عزل خالد بن سعيد وعين بدله يزيد بن أبي سفيان. وكذلك، أمر الخليفة خالد بن الوليد أن يسير إلى سوريا بعد أن أخضع اليمامة. وبعد غارة على عين التمر وأخرى على دومة، وصل خالد إلى سوريا، وقاتل في معركة اجنادين مع أربعة قادة آخرين. وفي اجنادين، كان القادة: أبو عبيدة بن الجراح، يزيد بن ابي سفيان، عمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة(١٢٢). وفي خبره هذا، يقف موسى بن عقبة في تعارض مع كل الروايات، كونه الوحيد الذي يقول أن خالداً أرسل إلى سوريا، ولكن من جهة أخرى - اليمامة، وليس العراق.

٤- شرحبيل بن مرثد:

في خلافته، أرسل أبو بكر خالد بن الوليد إلى اليمامة، ويزيد بن ابي سفيان إلى سوريا. وطلب أبو عبيدة مدداً من عمر، فكتب إلى خالد بن الوليد، الذي كان في العراق، أن يسير إلى سوريا ويعين أبا عبيدة(١٢٣). وأهمية هذا الخبر، الذي يبدو اصله في سوريا، تكمن في أنه يحدد بوضوح أن الذي أرسل أبا عبيدة إلى سوريا هو عمر، وليس أبا بكر.

٥- سيف بن عمر

أرسل أبو بكر خالد بن سعيد إلى سوريا، لما كان خالد بن الوليد في العراق. واستعجل خالد بن سعيد الاشتباك مع البيزنطيين في سوريا، فهزم بالمعركة، وقتل ابنه، وانكفأ إلى الصحراء. وبعد هزيمته، كتب خالد بن سعيد إلى أبي بكر يعلمه بالوضع، ويطلب منه المدد. فكتب الخليفة إلى عمرو بن العاص، الذي كان في أرض قضاعة،

يأمره بالمسير لتعزيز المسلمين مع خالد بن سعيد. وفوق ذلك، كتب أبو بكر لخالد بن الوليد في العراق، بأن يعود إلى سوريا، ويلتحق بالمسلمين في حربهم مع البيزنطيين(١٢٤).

٦ـ عبد الرحمن بن جبير

بعد أن انتصر المسلمون، بعون الله تعالى، على المرتدين والمشركين من بني حنيفة، أمر أبو بكر خالد بن الوليد بالسير إلى العراق. وتوجه خالد ومعه ستة آلاف رجل. ثمَّ هيَّأ أبو بكر جيشاً من المهاجرين والأنصار، ومن رجال القبائل التي أسلمت حديثاً، وكتائب من قبائل اليمن. وهذا الجيش الذي بلغ عدده ٢٤،٠٠٠ رجل، أرسل في أربع فرق؛ بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، عمرو بن العاص، شرحبيل بن حسنة، ويزيد بن ابي سفيان. وكان يزيد هو القائد العام(١٢٥).

٧ـ الزُهري

أرسل ابو بكر جيشاً بقيادة خالد بن الوليد إلى العراق. أما إلى سوريا، فقد أرسل ثلاثة جيوش، كانت بقيادة كل من خالد بن سعيد، عمرو بن العاص، وشر حبيل بن حسنة. إلا أن عمر أصرَّ على ابي بكر أن يعين يزيد بن ابي سفيان قائداً لأحد الجيوش، ففعل الخليفة ذلك(١٢٦).

قد تكون احدى الطرق لحل هذه المشكلة المعقدة، هي رفض بعض هذه الأخبار على أنها غير موثوقة، وتبني بعض الروايات على أنها معقولة أكثر، وبالتالي، فهي مقبولة أكثر ـ كما فعل بعض الأساتذة الاوروبين الذين تعاملوا مع هذه المشكلة(١٢٧). ولكن، قد

يكون هناك سبيل آخر للنظر إلى هذه الأخبار التي تبدو في الظاهر متناقضة. فعلى خلفية انجازات الرسول في الشمال، والروايات عن المسار الذي اتخذته الحرب في سوريا، تقدم هذه الأخبار قصة ذات مغزى - إذا تمَّ النظر إليها على أنها تكمل بعضا بعضاً، ولا تتناقض. وفوق ذلك، واذا جرى اتباع الخيار الأول، فهناك سؤال لا جواب مقنعاً له، وهو: بناء على أي معيار يتم رفض بعض هذه الأخبار على أنه غير موثوق؟ والقبائل العربية في جنوب سوريا لم تخضع لسلطة الرسول في حياته. وفي الروايات عن المعارك الأولى في فتح سوريا، لا يرد ذكر لقتال بين هذه القبائل وجيوش المسلمين. فالمصادر التقليدية، كما المؤرخون المعاصرون، يتحدثون فقط عن قتال مع البيزنطيين[١٢٨]. وليس ذلك فحسب، وإنما، وبحسب ثيوفين، فإن تغلغل المسلمين في جنوب سوريا، قد جرى التمهيد له، وأصبح ممكناً، من خلال تعاون القبائل العربية التي أقامت في تلك المنطقة[١٢٩]. ويبرز هنا السؤال: بفعل من تحولت هذه القبائل من الجانب البيزنطي إلى الجانب الاسلامي، ومتى كان ذلك؟

ويبدو ان الارتباك في المصادر ينبع من الخلط بين مسألتين: الأولى، وهي اشتباك المسلمين بالقبائل العربية في جنوب سوريا؛ والثاني، هي الحرب مع البيزنطيين. والخلاف حول قادة الجيوش، والقائد العام، قد تسبب، كما يبدو، من الحملات المتعددة والمتتالية، وكل منها بقيادة صحابي بارز، والتي كانت تسيَّر بالتتابع إلى سوريا. وإذا قبلت هذه الاطروحة، فإن الأخبار في المصادر التقليدية قد تتلاءَم في قصة ذات مغزى حول فتح سوريا وعلاقته بالردَّة. وفوق ذلك، فإنه عندها يمكن التجسير بين أخبار سيف وتلك التي يوردها الواقدي

وابن اسحق وغيرها.

ويستفاد من رواية سيف أن الخليفة أرسل عمرو بن العاص إلى فلسطين، حيث تقيم قبيلة قضاعة؛ وخالد بن سعيد إلى البلقاءفي الأردن، حيث قبيلة كلب؛ وذلك في نفس الوقت مع القادة الآخرين الذين توجهوا إلى نواح مختلفة من الجزيرة. وليس من سبب ملموس يبرر رفض هذا الخبر. بل على العكس، فإنه من المنطقي جداً أن يفعل المسلمون ذلك.فكما ذكر أعلاه، تواكب نشاط خالد بن الوليد العسكري في نجد، مع حركة عكرمة بن ابي جهل في عمان، المهرة، وحضرموت وأخيراًاليمن. وفي نفس الوقت، تقدم المهاجربن أبي أمية من المدينة إلى مكة، فالطائف، واخيراً اليمن ليلتقي مع عكرمة. وجند خالد جيشه من القبائل التي اقامت في المنطقة الواقعة إلى الشرق والشمال الشرقي من المدينة، بينما جند عكرمة القبائل المقيمة في الجنوب الشرقي منها، والمهاجر اعتمد في تحشيد جيشه على القبائل الواقعة إلى الجنوب الغربي. أما في الشمال والشمال الغربي، فكانت تقيم قبائل عذرة، بليٍّ، وأجزاء من قضاعة، ممن أَسلم أو تحالف مع المدينة في حياة الرسول. وهي لم ترتدَّ، ولا يذكر أنها شاركت بالحرب في الجزيرة. ويبدو منطقياً جدًّا لذلك، أن يجند أبو بكرهذه القبائل ويفيد من قوتها العسكرية. وفي الواقع فإن رواية ابن سعد تقول بوضوح أن الخليفة أرسل عمرو بن العاص إلى القبائل المقيمة إلى الشمال الغربي، وامره أن يجند جيشه منها. ورواية ابن سعد هذه تشكل تأكيداً جزئياً لرواية سيف.

وكذلك، فاختيار هذين الرجلين، عمرو بن العاص وخالد بن

سعيد، لهذه المهمة الصعبة على حدود بيزنطة، يشجع على قبول رواية سيف. فعمرو، أحد أكثر المسلمين الأولين دهاءً، قد قام بمهام مثيلة في حياة الرسول، سواء في عمان، أو بين القبائل الواقعة إلى الشمال الغربي من المدينة. وبسبب من قدراته الدبلوماسية، وحقيقة أن أمه كانت من قبيلة بَليٍّ، التي أقامت في تلك المنطقة، فقد اختير عمرو لهذه المهمة[١٣٠]. أما اختيار خالد بن سعيد، فلم يكن لأسباب أقلَّ أهمية؛ فهو أموي، ونشاطات عشيرته التجارية قد تمخضت عن علاقات وثيقة مع القبائل العربية على الحدود البيزنطية، كما أنه من الصحابة الأولين، وكل ذلك يصوب اختياره لهذه المهمة. ومن خلال العمل الدبلوماسي، والتهديد بالعمل العسكري، نجح هذان القائدان في فصل القبائل العربية عن بيزنطة. وقد ساعدت في التمهيد لهذا النجاح، السياسة قصيرة النظر التي سلكها البيزنطيون تجاه القبائل العربية العاملة لديهم كقوات حدود تحمي أراضي الامبراطورية من توغل القبائل فيها[١٣١]. وما من شك في أن أبا بكر كان يعي الأوضاع في تلك القبائل، وبالتالي، فاختياره لهذين الرجلين للمهمة التي تستوجب الدبلوماسية أكثر من القوة كان عين الصواب.

ولم يخبر عمرو وخالد الخليفة بالوضع عندهما، أو يطلبا مساعدة منه، إلا بعد أن أنجزا مهمة جذب القبائل العربية في جنوب سوريا إلى جانب المسلمين، وأصبح عليهما أن يواجها معاً الجيش البيزنطي اليوناني، وعندها، كان خالد بن الوليد قد هزم بني حنيفة، وتوجه نحو الشمال الشرقي، عبر الصحراء السورية، إلى حدود العراق. وإلا، فإن إرسال شرحبيل بن حسنة إلى سوريا، كما تجمع الروايات

التقليدية، لم يكن ممكناً. فشرحبيل، كما ذكر أعلاه، كان في مقدمة جيش خالد بن الوليد في معركة عقرباء. ويبدو أنه بعد انتصار المسلمين في اليمامة، عاد إلى المدينة، ومنها توجه على رأس جيشه إلى سوريا، بينما سار خالد إلى حدود العراق، ثم عودة إلى سوريا، كما يرد في رواية موسى بن عقبة أعلاه.

وفي النصف الثاني من عام ١٢هـ، وكما يقول ابن اسحق، هدأت الأوضاع في الجزيرة، والقبائل التي أخضعت تمَّ دمجها في جيش المسلمين وارسالها إلى سوريا. فالكتائب البدوية، التي نظمت على أساس قبلي، ووضعت بأمرة قادة مسلمين، على الغالب من قريش، تقاطرت من المدينة إلى الجبهة ضد البيزنطيين(١٣٢). ولعله في هذه المرحلة استبدل خالد بن سعيد بيزيد بن ابي سفيان، وربما لأن خالداً استعجل الاشتباك في معركة مع البيزنطيين. وفي هذا الاشتباك، كما يقول سيف، وقع خالد في مصيدة نصبها له البيزنطيون، فقتل ابنه، وانكفأ هو إلى الصحراء. ولعل يزيداً كان أول المغادرين من قادة التعزيزات، التي جرى ارسالها في نهاية عام ١٢هـ، أو بداية عام ١٣هـ. وكانت وجهتها الأردن الحالي، حيث لقي خالد بن سعيد هزيمته على أيدي البيزنطيين(١٣٣). وهذه الجيوش انضمت إلى عمرو بن العاص، الذي كان في جنوب فلسطين، في معركة اجنادين.

وعلى العموم، فهذا العرض للحرب في الجزيرة، وما تلاها من توغل في الصحراء السورية، يؤكدان رواية سيف بن عمر بشأن ارسال الجيوش الأحد عشر أيام أبي بكر. ولكن من الواضح أنه لا

يجب أخذها حرفياً، والافتراض أنه تمَّ تجنيد الجيوش أولاً، ومن ثمَّ تسييرها في ذات اليوم، كما يستشف من كلام الخبر. ومع ذلك، فالواضح أيضاًأن هذه العملية جرت في فترة زمنية قصيرة نسبياً ومفهوم سيف بن عمر للوضع في الجزيرة بعد وفاة الرسول يبدو سليماً إلى حد كبير، وتحليله لمسار الأحداث في تلك المرحلة من تاريخ المنطقة، يبدو معقولاً تماماً. وعليه، فما من سبب ملموس يدعو إلى رفض روايته، أو اعتبار أخباره من صنع الخيال، أو من قبيل تلفيق القصص التاريخية(١٣٤).

* * *

وعلى خلفية النتائج التي تمَّ التوصل إليها في الفصل السابق، وذلك فيما يتعلق بطبيعة الردة ومداها، والاطروحة التي قدمت في هذا الفصل، حول مسار الحرب في الجزيرة والصحراء السورية في خلافة ابي بكر، يمكن استخلاص النتائج الست التالية:

١ إن ما يسمى "حروب الردة" تندرج في عملية عسكرية واحدة مع حركة الفتوح العربية، التي كانت ترمي إلى بسط سيادة الدولة الاسلامية في المدينة على كل العرب في الجزيرة والصحراء السورية كذلك. وهذه العملية انتهت بمواجهة، أولاً مع بيزنطة، ولاحقاً مع فارس، الامبرطوريتين العظميين في حينه. ونتائج هذه المواجهة هي التي قررت التاريخ المستقبلي لكل من الشرقين، الأدنى والأوسط.

٢ـ إن العمليات العسكرية الرامية إلى اخضاع القبائل العربية، سارت متواكبة، وفي أربعة اتجاهات مختلفة. فإلى الشرق والشمال الشرقي من المدينة، حارب خالد بن الوليد، شرحبيل بن حسنة،

والعلاء بن الحضرمي، قبائل طيِّئ، أسد، غطفان، تميم، بني حنيفة وربيعة، وهزموها. في الجنوب الشرقي، انتصر عكرمة بن ابي جهل، حذيفة بن محصن، وعرفجة بن هرثمة، على قبائل عمان ومهرة. وفي الجنوب الغربي، فتح المهاجر بن أبي أمية وزياد بن لبيد اليمن وحضرموت. وفي الشمال والشمال الغربي، نجح خالد بن سعيد وعمرو بن العاص في اجتذاب القبائل العربية في جنوب سوريا من الجانب البيزنطي إلى الاسلامي.

٣- وفيما خلا خالد بن الوليد، الذي سار بجيش من المدينة، فإن الآخرين جندوا جيوشهم من القبائل الصديقة الواقعة على الطريق إلى الغاية التي اتجهوا إليها. وقد عهد إلى خالد بن الوليد بقيادة الجيش الذي أعده أبو بكر في ذي القصة. وهذا العامل، أي حقيقة أن جيش خالد ضمَّ مهاجرين وانصاراً، قد أسهمت في ابراز نشاط خالد العسكري في تاريخ الاسلام المبكر. ولكن، حتى بجيش من المدينة في البداية، كان على خالد أن يجند قبائل أخرى في طريقه إلى غايته. وبمساعدة كتائب من طيِّئ، حارب غطفان وأسد في البزاخة، وبعد هذه المعركة خضعت تميم وانضمت إلى جيش خالد. وبهذه التعزيزات من القبائل المقيمة إلى الشمال الشرقي من المدينة، خاض خالد معركة عقرباء وانتصر فيها. ولما فتح نجد، انضم ونخبة من مقاتليه، إلى المثنى بن حارثة الشيباني، سيد شيبان، من بكر بن وائل، لمحاربة القبائل المقيمة في الصحراء السورية على حدود العراق. ولم ينفرد خالد بهذه الطريقة من تجنيد جيشه، فقد استند عكرمة بن أبي جهل على هوازن لتجنيد الجيش الذي أخضع عمان والمهرة، وبمساعدة قبائلهما، سار الى حضرموت ليلتقي المهاجر بن أبي أمية.

وجيش المهاجر ظل يربو بالكتائب الملتحقة به في كل محطة على طريقه من المدينة إلى اليمن. فمن مكة، الطائف، وشمالي اليمن، بنى المهاجر جيشه الذي أخضع اليمن وحضرموت. أما عمرو بن العاص وخالد بن سعيد فقد اعتمدا على قبائل الشمال والشمال الغربي في بناء جيشيهما.

٤- وعندما استمال عمرو بن العاص وخالد بن سعيد القبائل في جنوب سوريا إلى جانب المسلمين، وصار عليهما أن يواجها الجيش البيزنطي في نهاية العام ١٢هـ، أو بداية ١٣هـ، كانت الجزيرة قد هدأت، وخالد بن الوليد على حدود العراق. وفي هذه الفترة طلب عمرو بن العاص المدد من أبي بكر، الذي راح يوجه إليه الجيوش، الواحد تلو الآخر، بينما قادة جيوش المسلمين المنتصرين يعودون إلى المدينة من نواحي الجزيرة المختلفة. والجبهة السورية ضد البيزنطيين ظلت تتعزز بشكل مستمر، وبقوات جديدة، يجري تجنيدها من القبائل التي أخضعت حديثاً في الجزيرة. وكذلك أمر الخليفة خالد بن الوليد بالعودة إلى سوريا والالتحاق بجيش المسلمين هناك.

٥- إنه من الخطأ اعتبار الهجوم على حدود بيزنطة في سوريا، أو على الحيرة في العراق، بداية حركة الفتوح العربية. فاخضاع القبائل العربية في الصحراء السورية التي تحاذي كلاً من العراق وسوريا، والتي كانت تقيم بها قبائل عربية تعمل اما لدى البيزنطيين أو الفرس، كان جزءاً لا يتجزأ من خطة المدينة لبسط سيادتها على العرب جميعاً، كخطوة أولى في توسيع نطاق "دار الاسلام". وبالنسبة إلى صانعي القرار في المدينة، لم يكن هناك فرق بين البحرين، الحيرة، أو

دومة الجندل؛ فكلها كانت مأهولة بقبائل عربية، معروفة جيّداً لتجار مكة منذ زمن طويل. وهذه الخطوة الأولى من حركة الفتوح، بدأت بعد فتح مكة مباشرة.

٦ـ وفيما خلا معركة عقرباء، حيث قاتل بنو حنيفة بشراسة، دفاعاً عن أرضهم، فإن المسلمين واجهوا مقاومة ضعيفة أثناء فتح الجزيرة. وهذا الضعف في مقاومة المسلمين، كانت له في الجزيرة أسباب داخلية وخارجية. وهذه الأسباب سيتم التعرض لها في الفصل التالي.

حواشي الفصل الرابع

١) راجع الفصل الأول.

٢) ابن عساكر، ١ ، ٤٣٣ فما بعد؛ البلاذري، أنساب، ١ ، ٣٨٤؛ الطبري، ١ ،١٨٤٨ فما بعد؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٣٤؛ اليعقوبي، ٢ ، ١٢٧ .

٣) يستعمل مصطلح سرية (ج، سرايا) في المصادر للاشارة إلى الغزوات الصغيرة التي لم يشارك بها الرسول. وهو مشتق من الغارة ليلاً. أما الحملات التي شارك بها الرسول فتسمى عادة غزوة (ج، مغازي).

٤) البلاذري، أنساب، ١ ، ٣٨٤ .

٥) اليعقوبي، ٢ ، ١٢٧ .

٦) يستند هذا الخبر لدى الطبري على ابن اسحق جزئياً، ولكن في غالبه على سيف بن عمر. وقارن أيضاً، ابن الأثير، ٢ ، ٣١٧؛ مع الطبري، ١ ، ١٧٩٤؛ وابن اسحق، ١٠٢٥ ، ١٠٥٦ .

٧) ابن الأثير، ٢ ، ٣١٧ .

٨) ابن الأثير، ٢ ، ٣٣٤ فما بعد.

٩) ابن سعد، ١/٢ ، ١٣٦؛ ابن عساكر، ٤٣٥ ـ ٤٣٩ .

١٠) الطبري، ١ ،١٨٧٢ ـ ١٨٧٣؛ ابن عساكر، ١ ، ٤٣٢ ـ ٤٣٣ . الحمقتان وآبل موضعان في جنوب الاردن.

١١) الطبري، ١ ، ١٨٧٤؛ الدياربكري، ٢ ، ٢٠١ ـ ٢٠٢ ، ٢٠٤ .

١٢) ابن عساكر، ١ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠ .

١٣) كايتاني، تاريخ، ١/٢ ، ٥٨٧ ـ ٥٨٨ .

١٤) انظر أيضاً، كايتاني، تاريخ، ١/٢ ، ٥٩٢ ـ ٥٩٩؛ فلهاوزن، تلخيصات، ٦ ، ٨ .

١٥) كايتاني، تاريخ، ٢/١ ، ٥٥٦ .

١٦) الطبري، ١ ، ١٨٧٠؛ كايتاني، تاريخ ، ٢/١ ، ٥٩٢ .

١٧) الطبري، ١ ، ١٨٧٤؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٤٤ .

١٨) الطبري، ١ ، ١٨٧٤؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٤٤ .

١٩) الطبري، ١ ، ١٨٧٨؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٤٥ .

٢٠) يرد هذا الخبر بلا اسناد في الدياربكري، ٢ ، ٢٠٢ - ٢٠٤ . ويذكره كايتاني، تاريخ، ٢/١ ، ٥٩٢ - ٥٩٣ ، بالاستناد إلى الواقدي، بناء على مخطوطة ابن حبيش.

٢١) الدياربكري، ٢ ، ٢٠٤؛ كايتاني، ٢/١ ، ٥٩٣ .

٢٢) الدياربكري، ٢ ،٢٠١ . وانظر أيضاً، البلاذري، فتوح، ١ ، ١١٣؛ المبرِّد، الكامل، ١ ، ٣٩٠ - ٣٩١؛ البيهقي، سنن، ٨ ، ١٧٦ .

٢٣) البلاذري، فتوح، ١ ، ١١٣ - ١١٤ .

٢٤) الطبري، ١ ، ١٨٧٦ ، ١٨٧٩؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٤٥ .

٢٥) الطبري، ١ ، ١٨٨٠ - ١٨٨١؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٤٦ .

٢٦) كايتاني، تاريخ، ٢/١ ، ٥٥٧ .

٢٧) البلاذري، فتوح، ١ ، ١١٤ - ١١٥؛ الطبري، ١ ، ١٨٨٦؛ البيهقي، سنن، ٨ ، ١٨٧؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٤٧؛ الدياربكري، ٢ ، ٢٠٧ .

٢٨) البلاذري، فتوح، ١ ، ١١٥ ، ١١٦؛ الطبري، ١ ، ١٨٨٩؛ العيني، ٨ ، ٢٤٤ - ٢٤٥؛ الدياربكري، ٢ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥؛ كايتاني، تاريخ، ٢/١ ، ٦١١ .

٢٩) الطبري، ١ ، ١٨٩٢ - ١٨٩٣؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٤٤ .

٣٠) الطبري، ١ ، ١٨٨٧؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٤٦ - ٣٤٧؛ الدياربكري، ٢ ، ٢٠٥؛ كايتاني، تاريخ، ٢/١ ، ٦١١ .

٣١) البلاذري، فتوح، ١ ، ١١٥؛ الطبري، ١ ، ١٨٩١ ، ١٨٩٦؛ الدياربكري، ٢ ، ٢٠٧ .

٣٢) الطبري، ١ ، ١٨٨٦ - ١٨٨٧؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٤٦ - ٣٤٧ .

٣٣) الطبري، ١ ، ١٨٨٨ .

٣٤) الطبري، ١ ، ١٨٩٣ .

٣٥) البلاذري، فتوح، ١ ، ١١٦ - ١١٧؛ الطبري، ١ ، ١٨٩٩ - ١٩٠٦؛ ابن الأثير، ٢؛ ٣٤٩ - ٣٥٢؛ وانظر أيضاً، كايتاني، تاريخ، ٢/١ ، ٦١٩ - ٦٢٥ .

٣٦) الدياربكري، ٢ ، ٢٠٨؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٤٩ - ٣٥٠؛ الطبري، ١ ، ١٨٩٩ -

١٩٠٦ .

٣٧) البلاذري، فتوح، ١ ، ١١٤ . وهذا الخبر عند البلاذري يبدو أنه مأخوذ من أعمال هشام بن الكلبي، وانظر الطبري، ١ ، ١٨٨٧ .

٣٨) الشافعي، الأم، ٨ ، ٢٥٦؛ الطبري، ١ ، ١٨٨٧؛ الدياربكري، ٢ ، ٢٠٥؛ كايتاني، تاريخ، ٢/١ ، ٦٠٠ .

٣٩) كايتاني، تاريخ، ٢/١ ، ٥٥٧ .

٤٠) البلاذري، فتوح، ١ ، ١١٧؛ الطبري، ١ ، ١٩٢٥ - ١٩٢٦؛ الأغاني، ١٥ ، ٢٣٩ - ٢٤٥؛ وثيمة، ١٢ ؛ البغداي، خزانة، ١ ، ٢٣٦؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٥٨ - ٣٥٩؛ الدياربكري، ٢ ، ٢٠٩ .

٤١) وثيمة، ١٢؛ الأغاني، ١٥ ، ٢٣٩ .

٤٢) الطبري، ١ ، ١٩٢٨؛ الدياربكري، ٢ ، ٢٠٩ .

٤٣) البلاذري، فتوح، ١ ، ١١٨؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٥٩ .

٤٤) راجع كايتاني، تاريخ، ٢/١ ، ٦٥٦ - ٦٥٨ .

٤٥) الموسوعة الاسلامية، مادة "سجاح"، فاتشا.

٤٦) الطبري، ١ ، ١٩٠٩ ، ١٩١١ .

٤٧) الطبري، ١ ، ١٩١٩؛ الدياربكري، ٢ ، ٢٠٢؛ العيني، ٨ ، ٢٤٤ .

٤٨) الطبري، ١ ، ١٩٠٩ - ١٩١٠ .

٤٩) الطبري، ١ ، ١٩٢٢؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٥٧؛ الدياربكري، ٢ ، ٢٠٩ .

٥٠) الدياربكري، ٢ ، ٢٠٩ .

٥١) الطبري، ١ ، ١٩٢٣؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٥٧ .

٥٢) الطبري، ١ ، ١٨٨٠ .

٥٣) البلاذري، فتوح، ١ ، ١١٤ - ١١٨ .

٥٤) الدياربكري، ٢ ، ٢٠٩ .

٥٥) الطبري، ١ ، ١٩٢٦ ، ١٩٢٨؛ وثيمة، ١٢ ، الأغاني، ١٥ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ؛ الدياربكري، ٢ ، ٢٠٩ .

٥٦) الطبري، ١ ، ١٩٢٨ - ١٩٢٩؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٥٩؛ الأغاني، ١٥ ، ٢٣٩؛ وثيمة، ١٢؛ البغدادي، خزانة، ١ ، ٢٣٨؛ الدياربكري، ٢ ، ٢٠٩ .

٥٧) البلاذري، فتوح، ١ ، ٦١١؛ الطبري، ١ ، ١٩٠٠ .

٥٨) انظر الحواشي، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ أعلاه.

٥٩) الدياربكري، ٢ ، ٢٠٤؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٥١ .

٦٠) الدياربكري، ٢ ، ٢٠٨ .

٦١) الطبري، ١ ، ١٨٨٠ .

٦٢) الطبري، ١ ، ١٨٩٩ .

٦٣) كايتاني، تاريخ، ٢/١ ، ٥٥٨ .

٦٤) اليعقوبي، ٢ ، ١٣٠؛ البلاذري، فتوح، ١ ، ١٠٦ ، ١٠٨؛ الطبري، ١ ، ١٩٤٢؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٦٣؛ الدياربكري، ٢ ، ٢١٢ .

٦٥) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٠٧؛ الطبري، ١ ، ١٩٤٣؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٦٤؛ الدياربكري، ٢ ، ٢١٥ - ٢١٧ .

٦٦) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٠٨؛ الطبري، ١ ، ١٩٥١؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٦٥؛ الدياربكري، ٢ ، ٢١٨ .

٦٧) الطبري، ١ ، ١٩٢٩؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٦ .

٦٨) اليعقوبي، ٢ ، ١٣٠ .

٦٩) الطبري، ١ ، ١٩٣١ .

٧٠) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٠٦ .

٧١) الدياربكري، ٢ ، ٢٠٩ .

٧٢) ابن حجر، اصابة، ٢ ، ٤٨٩؛ ابن عبد البر، استيعاب، ١٠٨٢ .

٧٣) الطبري، ١ ، ١٩٣٨ .

٧٤) الطبري، ١ ، ١٩٣٠؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٦٣؛ الدياربكري، ٢ ، ١٦٠ ، ٢٠٩ .

٧٥) الطبري، ١ ، ١٩٤٦ - ١٩٤٧؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٦٣؛ الدياربكري، ٢ ، ٢٠٩؛ ٢١٢ ، ٢١٥ .

٧٦) الدياربكري، ٢ ، ٢٠٩ .

٧٧) ابن الأثير، ٢ ، ٣٦٦ - ٣٦٧؛ الذهبي، تاريخ، ١ ، ٣٦٤ - ٣٧٢؛ كايتاني، تاريخ، ٢/٢ ، ٧٣٩ - ٧٥٤ .

٧٨) الطبري، ١ ، ١٩٤٦ - ١٩٤٧ ، ١٩٥١؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٦٥؛ الدياربكري، ٢ ، ٢١٩ .

٧٩) الدياربكري، ٢ ، ٢٠٩ .

٨٠) الدياربكري، ٢ ، ٢٠٩ .

٨١) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٠٧ .

٨٢) الطبري، ١ ، ١٩٥٥ .

٨٣) الدياربكري، ٢ ، ٢١٨ ، ٢١٩ .

٨٤) الدياربكري، ٢ ، ٢١٩؛ اليعقوبي، ٢ ، ١٣١ .

٨٥) الطبري، ١ ، ١٩٥٨ - ١٩٧٥؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٦٨ - ٣٧٢؛ وانظر أيضاً، كايتاني، تاريخ، ٢/٢ ، ٧٧٤ - ٧٧٦؛ فلهاوزن، تلخيصات، ٦ ، ٢٢ - ٢٤ .

٨٦) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٠٣؛ وانظر أيضاً، كايتاني، تاريخ، ٢/٢ ، ٧٦٢ - ٧٦٣ .

٨٧) البلاذري، فتوح، ١ ، ٩٩ - ١٠٣ .

٨٨) الطبري، ١ ، ١٩٥٩؛ كايتاني، تاريخ، ٢/٢ ، ٧٧١(حاشية١).

٨٩) الهيثمي (علي بن أبي بكر) "مجمع الزوائد"، ٦ ، ٢٢٠ - ٢٢١ .

٩٠) كايتاني، تاريخ، ٢/٢ ، ٧٧٢؛ فلهاوزن، تلخيصات، ٦ ، ٢٤ .

٩١) الطبري، ١ ،١٩٦١ - ١٩٧٥ .

٩٢) راجع أيضاً، ابن الأثير، ٢ ، ٣٦٨ - ٣٧١ .

٩٣) الطبري، ١ ، ١٩٧٦؛ كايتاني، تاريخ، ٢/١ ، ٥٦١ .

٩٤) الطبري، ١ ، ١٩٧٦ .

٩٥) البلاذري، فتوح، ١ ، ٩٢ - ٩٣؛ الطبري، ١ ، ١٩٧٧ - ١٩٨٠؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٧٢ - ٣٧٣؛ كايتاني، تاريخ ٢/٢ ، ٧٧٦ - ٧٨٧ .

٩٦) الطبري، ١ ، ١٩٧٧ .

٩٧) كايتاني، تاريخ، ٢/٢ ، ٧٧٦ .

٩٨) ابن حجر، اصابة، ٢ ، ٤٨٩؛ ابن عبد البر، استيعاب، ٣ ، ١٠٨٢ .

٩٩) كحّالة، معجم، ٩٨٤ .

١٠٠) الطبري، ١ ، ١٩٨٠ - ١٩٨١ .

١٠١) الطبري، ١ ، ٢٠٠١ .

١٠٢) الطبري، ١ ، ١٩٨٩؛ ابن الأثير، ٢ ، ٣٧٥ .

١٠٣) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٢٧ .

١٠٤) كايتاني، تاريخ، ٢/٢ ، ٧٩١ .

١٠٥) الطبري، ١ ، ١٩٩٠ - ١٩٩٣ .

١٠٦) الطبري، ١ ، ١٩٩٨ .

١٠٧) اليعقوبي، ٢ ، ١٣٢؛ البلاذري، فتوح، ١ ، ١٢٧؛ الطبري، ١ ، ١٩٩٨؛ ابن

الأثير، ٢ ، ٣٣٧؛ كايتاني، تاريخ، ٢/٢ ، ٧٨٩ .

١٠٨) الطبري، ١ ، ١٩٩٨؛ ابن الاثير، ٢ ، ٣٧٧ .

١٠٩) الطبري، ١ ، ١٩٠٣ ـ ١٩٠٤؛ البلاذري، فتوح، ١ ، ١٢٧؛ ابن الأثير، ٢،٣٥٠ ـ ٣٥١؛ كايتاني، تاريخ، ٢/٢ ، ٧٨٩ .

١١٠) راجع أيضاً، دي خويي، ٢٧؛ كايتاني، تاريخ، ٢/٢ ، ١١١٩ ـ ١١٣٥؛ فلهاوزن، تليخصيات، ٦ ، ٥٢ ـ ٦٨ .

١١١) الطبري، ١ ، ١٨٨٠ ـ ١٨٨١ ، ٢٠٨٠ .

١١٢) البلاذري، فتوح، ١ ، ١٢٨ .

١١٣) الطبري، ١ ، ٢٠٧٩؛ ابن عساكر، ١ ، ٤٤٩ .

١١٤) ابن عساكر، ٤٤٦ ـ ٤٤٨ .

١١٥) راجع دي خويي، ٢٥ .

١١٦) كايتاني، تاريخ، ٢/٢ ، ١١٢١ .

١١٧) كايتاني، تاريخ، ٢/٢ ، ١١١٥ .

١١٨) ابن عساكر، ٤٤١ .

١١٩) ابن عساكر، ٤٣٣ ـ ٤٤٥ .

١٢٠) ابن عساكر، ٤٤٦ .

١٢١) ابن عساكر، ٤٤٦ .

١٢٢) ابن عساكر ، ٤٤٨ .

١٢٣) ابن عساكر، ٤٦٢ .

١٢٤) ابن عساكر، ٤٦٣ .

١٢٥) ابن عساكر، ٤٥٣ .

١٢٦) ابن عساكر، ٤٥٣ ـ ٤٥٤ .

١٢٧) راجع كايتاني، تاريخ، ٢/٢ ، ١١١٩ ـ ١١٣٥ ، ١١٦١ ـ ١١٧٣ .

١٢٨) بلاذري، فتوح، ١ ، ١٣٠؛ ابن عساكر، ٤٧٨ ـ ٤٨٨؛ كايتاني، تاريخ، ٢/٢ ، ١١٧٦؛ دي خويي، ٣٠ ، ٣١ .

١٢٩) دي خويي، ٢٩ .

١٣٠) الموسوعة الاسلامية، مادة "عمرو بن العاص"، فنسنك.

١٣١) دي خويي، ٢٩ ـ ٣٠ .

١٣٢) اليعقوبي، ٢ ، ١٣٣ .
١٣٣) راجع أيضاً، كايتاني، تاريخ، ٢/٢ ، ١١٦٨ .
١٣٤) انظر بيكر، ٣٣٧ .

الفصل الخامس

نجاح أبي بكر

في خلافته التي دامت أكثر من عامين بقليل، استطاع أبو بكر الصديق، الخليفة الأول في دولة الإسلام، أن يحقق إنجازين هامين. الأول، هو بسط سيادة دولة المدينة على جميع العرب في الجزيرة، كما على جزء كبير من تلك القبائل العربية التي أقامت في الصحراء السورية. ففي خلافة أبي بكر، أصبحت الجزيرة العربية، لأول مرة في التاريخ، موحدة سياسياً. فعبر إخضاع جيوب المعارضة للإسلام، بقرار حازم من قادة جيوش المدينة، كرّس الخليفة نفسه القائد السياسي في الجزيرة بلا منازع. وبذلك، يكون إنجاز أبي بكر الأول هو تحقيق انتصار الإسلام على القبلية. أما الثاني، فهو تنظيم الاندفاعة الأولى لجيوش المسلمين ضد الامبراطوريتين العظميين في حينه، بيزنطة وفارس. واستطاعت جيوش المسلمين أن تتغلب عليهما في وقت قصير نسبيا.

وفي مسار تحقيق هذا النجاح، كان على أبي بكر أن يتغلب على عدد من المصاعب، الداخلية والخارجية. فداخلياً، بالمدينة، كان عليه أن يتغلب على معارضة الأنصار، دون أن يتسبب بحرب أهلية، وبالتالي إراقة دماء داخل الجماعة الإسلامية. لقد اعترض الأنصار على هيمنة المكيين في شؤون الدولة، وجهدوا في الحؤول

دون ذلك؛ لكنهم فشلوا في تأمين الخلافة لواحد من صفوفهم. وقد رأى المستشرق جولدتسيهر أن تشكل العصبية القبلية، بين القيسية واليمانية، جاء في سياق التنافس على مراكز القوة في الدولة الإسلامية، بين الأرستقراطية المكية والانصار. وهو يرى أن تفاخر الأنصار بأصولهم الجنوبية إنما كان لموازنة ادعاء قريش بالشرف والهيبة[1]. وهذا الصراع بين القيسيين الشماليين، والجنوبيين اليمانيين، استمر بآثاره السلبية حتى العصر الحديث.

لقد كان على أبي بكر أن ينفذ سياسته على الرغم من المعارضة القوية التي أبداها عدد من الصحابة البارزين. وكان الخليفة الثاني، عمر بن الخطاب، يقود هذه المجموعة. أما فيما يتعلق بماهية سياسة عمر، فالمصادر التقليدية لاتوفر الكثير من المعلومات. وما يمكن أن يستخلصه الباحث هو أن عمر دعا إلى سياسة أكثر ليناً تجاه أهل الردة. ومن المستبعد جداً أن يكون عمر يعارض نشر الدعوة الإسلامية، كما كان يراها. والأحداث اللاحقة، خاصة في خلافته، تبرهن على حماسه لنشرها. ولكن، يجوز أن يكون عمر اعترض على التبدل في السياسة تجاه القبائل، بعد فتح مكة. ولعله شعر بتعاظم تأثير الأرستقراطية المكية في سياسة المدينة، وعارض ذلك، انطلاقاً من شعور ديني عميق. ولعل ذلك أيضاً، يكمن وراء معارضة عمر لسياسة أبي بكر. فالخليفة الأول اقتفى أثر الرسول في سياسته، والواضح، انه كان يحظى بتأييد المكيين الكامل؛ بينما استمر عمر بالمعارضة. وإزاء تعاظم موقع تجار مكة في الجماعة الإسلامية، حاول عمر ومناصروه الحؤول دون هيمنتهم على المسرح السياسي في المدينة، وإبعادهم عن إدارة شؤون دولة الإسلام

كما يرغبون، وبالتالي تعزيز موقع المسلمين الأولين في هذه الدولة الناشئة.

أما خارج المدينة والحجاز، فقد كان على أبي بكر أن يواجه تلك الحركات المتعددة في الجزيرة العربية، المعروفة باسم "الردة". وهذه الحركات، سواء كانت مدفوعة بالعداء للمركزية، بالتطلع لإقامة حالة شبيهة بتلك التي أنشئت في المدينة، أو بالرغبة في الحفاظ على التراث والواقع القائم، فقد كانت جميعها مناوئة لسياسة المدينة في بسط سيادتها على العرب جميعاً. واهتمام المسلمين بالجبهة الخارجية، ودخولهم في حرب مع القبائل في الجزيرة، غطيا على خلافاتهم الداخلية، وحملاهم على رصّ صفوفهم حفاظاً على وجودهم. إلا أن هذه المشاحنات الداخلية ظلت كالجمر تحت الرماد حتى أيام عثمان بن عفان، عندما انفجرت في حرب أهلية. أما في البداية، فقد نجح أبو بكر في تحشيد طاقات المسلمين، وزجها في الصراع مع المناوئين لهم من العرب، وبالتالي إخضاعهم لسلطة المدينة.

وسياسة التوسع والانتشار، التي ورثها أبو بكر عن الرسول، دعت إليها أيضاً الأرستقراطية المكية، وأيدها حلفاؤهم من القبائل البدوية، وقد حققت نجاحاً في الجزيرة العربية والصحراء السورية كذلك. وقد طرحت نظريات متعددة لتفسير العوامل التي أسهمت في نجاح حركة الفتوح العربية[٢]. وكذلك الأمر بالنسبة إلى ماحققه الرسول في حياته، الأمر الذي تطرق إليه العديد من مؤرخي فجر الإسلام[٣]. ولكن، وفيما يتعلق بالخطوات الأولى

التوسعية التي اتخذها أبو بكر، فهناك عوامل أخرى محلية، لعبت الدور الأكثر أهمية.

إن دولة الإسلام الناشئة في المدينة، وليكون بمقدورها تحقيق ماتمّ لها، فلا بد لها من جسم كبير ومنظم نسبياً من المؤيدين المخلصين، القادرين على الحركة بسرعة، واستغلال الوضع القائم آنذاك بالجزيرة، لصالح تلك الدولة. وكما أشير أعلاه، فقد توفر لها هذا الجسم من صفوف المكيين والقبائل المتحالفة معهم. ومهمة اخضاع الجزيرة لسلطة الخليفة تيسَّرت بفضل الأوضاع التي كانت قائمة آنذاك في المناطق المختلفة من الجزيرة.

***

ففي نجد، معركتان حسمتا الوضع لصالح دولة المدينة. البزاخة انتهت إلى إخضاع أسد وغطفان لسلطة تلك الدولة الناشئة، وعقرباء كسرت شوكة مقاومة بني حنيفة لسيادة المدينة. ويلفت الانتباه أن المصادر الإسلامية تؤكد على أن القبائل في هاتين المعركتين قاتلت المسلمين بقيادة "نبيين كاذبين". ويبدو أن قيادة القبائل التقليدية بأساليبها المألوفة في إدارة شؤون قبائلها، سواء في السلم أو الحرب، ومن خلال التحالفات على أشكالها، لم تعد كفؤاً لقوة المسلمين المتصاعدة، بقيادتها الفاعلة، وعليه، سعت القبائل لتقليد النموذج الإسلامي. فبرز في صفوفها عدد من "الأنبياء" في هذه الفترة بالذات.

لقد تم كسب معركة البزاخة بقليل من الجهد. والقوات المتحالفة من أسد وغطفان، لم تمتلك القدرة الكافية لصد هجوم

المسلمين، خاصة بعد انسحاب طيّئ من التحالف. وفوق ذلك، فالقبائل المتحالفة ووجهت، لأول مرة في تاريخها، بنمط جديد من الحرب. فهذه لم تكن غزوة، من النمط الذي اعتادوا عليه، وبالتالي هيّأوا أنفسهم له، فتمحور نشاطهم العسكري حوله. هذه الحرب كانت تهدف إلى إخضاعهم الدائم. وحاملو لوائها كانوا أصحاب قضية، وبالتالي خططاً طويلة الأمد. وعدا ذلك، فالتحالف المناوئ للمدينة كان يشكو من نقطة ضعف أخرى، وهي غياب القيادة الكفؤة لإدارة الصراع.

وبالمقارنة مع الرسول، الذي وضع لجماعته نظاماً فاعلاً لإدارة حياتهم الدينية والسياسية، فإن طلحة، قائد التحالف في البزاخة، والذي تسميه المصادر الإسلامية "نبياً كاذباً"، لم يقدم لأتباعه شيئاً في مواجهة الدعوة الإسلامية الجذابة. وإذا كان طلحة ادَّعى النبوة أصلاً، فإننا، بغياب المعلومات، لانستطيع تكوين فكرة عن تعاليمه. ومن النتف الواردة في المصادر حول تنبؤاته، يبدو عرّافاً وليس نبياً. وإذا كان طلحة أراد ركوب موجة الحماس للأنبياء، التي اجتاحت الجزيرة آنذاك، فالأكيد أنه وصل متأخراً ليكون بمقدوره التأسيس لقيادة، وتحشيد الدعم والولاء، بما يؤهله للصمود في وجه الدعوة الإسلامية الجارفة. والتحالف الذي شكله على عجل، انهار في المواجهة الأولى مع جيش المسلمين، بقيادة خالد بن الوليد.

وسيرة "النبية الكاذبة"، العرافة سجاح، أكثر غموضاً وتشويهاً في المصادر من سيرة طلحة. لقد ظهرت في تلك الفترة في قبيلة تميم، الأمر الذي زاد من حدة الصراع بين الفئات المختلفة من تلك

القبيلة، وأخيراً جلبت الكارثة على أتباعها من بني يربوع. ويبدو أن مسيلمة رأى بالتحالف معها عبئاً، وليس ذخراً، ولذلك، أكد على إخراجها وأتباعها من منطقته، قبل المواجهة الحاسمة مع المسلمين. ومهما تكن رسالة سجاح "النبوية"، أو علاقتها بمسيلمة، فإنهما لم تكونا عوناً لتميم. فسريعاً ما انخرطت تميم في جيش المسلمين.

وفي معركة عقرباء، هزم بنو حنيفة على أيدي جيش يضم كتائب من جميع قبائل الحجاز ونجد تقريباً، إضافة إلى أجزاء من تميم. لقد صمد بنو حنيفة في وجه جيش المسلمين، وخاضوا معركة دامية، لم يشهد المسلمون مثيلاً لها على أرض الجزيرة، ولكنهم هزموا، بفضل الزخم والتفوق العددي عليهم، ودفعوا ثمناً باهظاً لتصميمهم على الوقوف في وجه انتشار الدعوة الإسلامية. ومن الأسباب التي أسهمت في هزيمة بني حنيفة، يبرز الإثنان التاليان: موت هوذة بن علي، ذائع الصيت، والذي كان "ملك" اليمامة سابقاً، وغياب الدعم الفارسي لعمالهم في تلك المنطقة. وقد أعقب موت هوذة شرخ في صفوف بني حنيفة، وانحازت جماعة منهم إلى جيش المسلمين. وليس أقلَّ أثراً في تحديد نتيجة المواجهة مع دولة الأسلام، كانت طبيعة حركة مسيلمة.

لقد حاول مسيلمة وضع نظام سياسي وديني قابل للحياة لأتباعه، لكن المصادر القائمة توفر القليل من المعلومات الموثوقة عن تفاصيل تعاليمه. ولعل "رسالته" كانت رد فعل على رسالة الإسلام(٤). ولعل حماس أتباعه في قتال المسلمين يمكن أن ينسب جزئياً إلى الجانب الديني من قيادته، إلا أن مناشدة حركته العصبية

الجهوية والقبلية هي التي جعلت أتباعه يتماسكون في مواجهة القوة الأكبر. ويبدو أن حركة مسيلمة كانت ترمي إلى تأسيس كيان مستقل في اليمامة، من النمط التقليدي. فحاول مقاومة الذوبان في حركة إسلامية تتجاوز الحدود القبلية، وبالتالي، مواجهة التحدي الإسلامي بخليط من النبوَّة والعصبية القبلية. لكن محاولة مسيلمة لم تنجح، وفشلها يشهد على قوة الدعوة الإسلامية، واستجابة مضمونها لاحتياجات سكان الجزيرة في حينه.

والشاطئ الشرقي من الجزيرة، في هذه الفترة، كان مأهولاً بقبائل عربية واقعة تحت حكم الفرس. وكان هؤلاء يعتبرون سكان البحرين وعمان منافسين لهم في تجارة الشرق؛ وعليه، وسع الفرس حكمهم على هذه الأراضي من أجل التحكم بنشاط سكانها التجاري[٥]. وفي ذروة ازدهارها، كانت الحيرة، وملوكها اللخمين، يسيطرون على هذه الكيانات في شرقي الجزيرة. وعندما سقطت الحيرة، وانتهت السلالة الملكية فيها، أصبح سادة هذه المناطق عمالاً للفرس مباشرة في مناطقهم، مما زاد في جاههم. ويورد ابن حبيب، في كتابه "المحبَّر"، الفقرة التالية حول سوق المُشقَّر في البحرين:

"ثمَّ يرتحلون منها (دومة الجندل) إلى المشقَّر بهجر، فتقوم سوقها أول يوم من جمادى الآخرة إلى آخر الشهر. فتوافي بها فارس يقطعون البحر إليها بيباعاتهم، ثمَّ تنقشع عنها إلى مثلها من قابل. وكانت عبد القيس وتميم جيرانها. وكان ملوكها من بني تميم، من بني عبد الله بن زيد، رهط المنذر بن ساوى، كانت ملوك فارس

تستعملهم عليها. بني نصر على الحيرة وبني المستكبر على عمان. وكانوا يصنعون فيها ويسيرون فيها بسيرة الملوك بدومة الجندل، وكانوا يعشرونهم. وكان من يؤمها من التجار يتخفَّرون بقريش، لأنها لاتؤتي إلا في بلاد مضر"[٦].

وفي فقرة أخرى عن عمان والمهرة، يقول ابن حبيب مايلي:

" ثمَّ سوق صُحار بعمان. وكانت تقوم أول يوم من رجب. فتقوم خمس ليال. وكان يعشرهم فيها الجلندى بن المستكبر. ثم سوق دَبّا، وهي إحدى فرضتي العرب. يأتيها تجار السند والهند والصين وأهل المشرق والمغرب. فيقوم سوقها آخر يوم من رجب. وكان بيعهم فيها المساومة. وكان الجلندى بن المستكبر يعشرهم فيها، وفي سوق صُحار. ويفعل في ذلك فعل الملوك بغيرها. ثمّ سوق الشِّحر، شحر مهرة. فتقوم السوق تحت ظل الجبل الذي عليه قبر هود عليه السلام. ولم تكن بها عشور، لأنها ليست بأرض مملكة، وكانت التجار تتخفر فيها ببني محارب بن هرب من مهرة. وكان قيامها للنصف من شعبان."[٧]

إن الفقرتين السابقتين من ابن حبيب تشيران بوضوح إلى المصالح الفارسية في أسواق الشاطئ الشرقي من الجزيرة. ولأنهم كانوا بحاجة ماسَّة إلى الأموال، لتغطية نفقات حربهم المكلفة مع البيزنطيين[٨]، فقد وسع الفرس حكمهم في هذه المنطقة، عبر تعيين سادة محليين عمالاً لهم على هذه الأسواق، من أجل إحكام السيطرة على التجارة هناك. وكانت المهمة الرئيسية لهؤلاء العمال في المراكز التجارية على ساحل الجزيرة الشرقي، هي جباية المكوس

من التجار الذين يؤمون تلك الأسواق للتجارة، وتوصيل الأموال إلى خزينة الامبراطورية. ومادامت الامبراطورية الفارسية قوية، وقادرة على تقديم الدعم النشط لعمالها، فإن أحداً لم ينازعهم السلطة، وخضعت القبائل لقيادتهم. ولكن، عندما فقد الفرس تلك القدرة، خاصة بعد الحرب التي امتدت بين عامي ٦٢٢-٦٢٨م، والتي هزمهم فيها هيركليوس، فقد ظلَّ عمالهم في الجزيرة وشأنهم. وعليه، كان طبيعياً أن يتحدى سادة محليون منافسون سلطة هؤلاء العمال. وفي الواقع، فقد كان هذا هو الحال في كل من البحرين وعمان. وقد سهل الصراع بين القادة المحليين احتلال تلك المناطق على جيش المسلمين. وحيث في كل من هذه الكيانات المحلية كانت فئتان تتصارعان على السلطة، وبالتالي السيطرة على الأسواق في المنطقة، فقد مكّن ذلك المسلمين من التدخل بقوة صغيرة، كانت كافية لخلخلة ميزان القوى الحساس، وتعديل الكفة لصالح الفئة التي تحالفت مع المدينة. ففي البحرين، كما في عمان، كانت أية فئة تميل للقبول بسيادة المدينة بحاجة إلى قوة خارجية صغيرة، لمساعدتها بالتغلب على الأخرى المنافسة. وتجدر الملاحظة أنه في حالتي، البحرين وعمان، دعم المسلمون عاملي الفرس السابقين. والغالب، أن هذين العاملين، انطلاقاً من علمهما بتدهور سلطتهما، توجها إلى المدينة في حالة يأس، وطلبا دعمها، بديلاً عن الإمبراطورية الفارسية المتهاوية.

والمهاجر بن أبي أمية فتح اليمن بدون قتال تقريباً. فبعد احتلال حبشي، تلاه احتلال فارسي معاكس، وإقامة حكم فارسي في اليمن، ومن ثمَّ تضعضع هذا الحكم في غياب الدعم من المركز،

عمّت الفوضى في الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة[٩]. وفيما القبائل منقسمة على نفسها، وحكم الأبناء محصور في العاصمة صنعاء، وبروز الأسود وسقوطه، وماترتب عليه؛ فقد لقي جيش المسلمين مقاومة طفيفة في السيطرة على الوضع في اليمن. وقد أرسى الرسول نفسه أسس التعامل مع اليمنيين، حيث أفاد من حالة التفتت القائمة بينهم. وقد أصابت هذه السياسة نجاحاً معيناً في حياة الرسول، لكن ثمارها اليانعة كانت من نصيب أبي بكر. وبتحشيده كل المناوئين لقيس بن مكشوح، حاكم صنعاء المهزوز في حينه، حول قائد جيش المسلمين الذي توجه إلى اليمن، ورفده بتعزيزات من القبائل الصديقة في طريقه إلى غايته، نجح الخليفة بإخضاع اليمن كلها لسيادة المدينة. لقد كانت قبائل اليمن تهاجر شمالاً قبل الإسلام بفترة طويلة، وحركة الإسلام التوسعية وفرت لهم مخرجاً لذلك الميل للهجرة والاستقرار في أمكنة أخرى. ولذلك، سارعت قبائل اليمن للانضمام إلى الجيوش الإسلامية التي توجهت لفتح سوريا.

وفي شمال شرق الجزيرة، على الحدود الفارسية، كان الوضع بين القبائل العربية يدعو إلى تدخل المدينة؛ لقد كان الباب مفتوحاً أمام التوغل الإسلامي في الصحراء السورية. وحول هذه الأوضاع، يقول م.جي. كستر، مايلي:

"شهد النصف الثاني من القرن السادس الميلادي تغيرات جذرية في العلاقات بين قبائل شمال شرق الجزيرة والحيرة. فهزيمة قوات الحيرة، التي شاركت بالغارات على القبائل، أو في المعارك بينها،

هزّت هيبة حكامها في نظر تلك القبائل. وامتيازات حراسة القوافل، التي منحت لبعض سادة القبائل، تسببت في إذكاء التنافس بينهم، وأدت إلى الصدامات بين القبائل. والقبائل التي لم تكن راضية ثارت على الحيرة. ووقعت غارات متواترة على قوافل الحكام، وأصبحت طرق التجارة غير آمنة؛ وأخذ حكام الحيرة يفقدون السيطرة على طرق التجارة، وتضاءلت هيبتهم. وضعف حكام الحيرة أصبح واضحاً؛ وجنود الحامية الفارسية الذين شاركوا في بعض المعارك إلى جانب القبائل الموالية هزموا"[١٠]

وكان الصراع بين القبائل العربية والفرس قد بدأ قبل توغل جيش المسلمين في تلك المنطقة بفترة طويلة. والمرحلة الأولى من هذا الصراع اتخذت شكل التحدي لسلطة ملوك الحيرة، الذين عملوا في خدمة ملوك فارس. وقبيلة يربوع، من تميم، حاربت قوات الحيرة وهزمتها في "يوم ذات كهف". وقد أجبر بنو يربوع ملك الحيرة أن يعيد لسيدهم موقعه السابق كنائب للملك[١١]. وتوالت غارات القبائل على القوافل الملكية، وبالتالي، ردود الفعل التأديبية الفارسية[١٢]. ورفض القبائل أداء "الإتاوة"، دفع ملوك الحيرة لإرسال حملات قمعية ضدها[١٣]. وفي كل هذه الحالات، خلال المرحلة الأولى من تدهور العلاقات بين القبائل والفرس، أو عمالهم في الحيرة، كان ملوك الحيرة يتمتعون بدعم السيد الإمبراطوري التام.

أما المرحلة الثانية من توتر العلاقات بين العرب والفرس، فقد بدأت عندما وقف ملك الحيرة إلى جانب القبائل المتمردة على

الشاهنشاه الفارسي. وقد انتهت هذه المرحلة بقتل النعمان، آخر ملوك اللخميين في الحيرة، على أيدي الفرس، وإيلائهم "الملك" لقبيلة أخرى في المنطقة الحدودية[١٤]. ومهما كانت من أسباب أخرى للقضاء على السلالة اللخمية[١٥]، فالواضح أن الضرائب الجديدة التي فرضها الفرس، كانت عاملاً رئيسياً في التململ داخل القبائل العربية، وقد وقع اللخميون بين مطرقة الفرس وسندان القبائل.

وفي سياق رسالة من الشاهنشاه الفارسي بارويز إلى ابنه شيرويه، الذي خلعه وتولى مكانه، يورد أبو حنيفة الدينوري في كتابه "الأخبار الطوال"، مايلي: أما فيما تتهمني من قتل النعمان بن المنذر، ونقل الملك من آل عمرو بن عدي إلى إياس بن قبيصة، فلأن النعمان وعائلته تواطؤوا مع العرب وأخبروهم بأن يتوقعوا انتقال الحكم من الفرس إلى العرب. وقد وقعت رسائل منه بهذا الخصوص في يدي، ولذلك قتلته وعينت بدله عربياً آخر، لايعي ذلك كله[١٦].

أما بالنسبة إلى السؤال: على ماذا تواطأ النعمان مع القبائل العربية؟ فالمصادر توفر القليل من المعلومات. وابن عبد ربّه، في فصل من كتابه "العقد الفريد"، يتحدث عن وفد من سادة القبائل، أرسله النعمان إلى بلاط فارس. ويدّعي كستر أن القصة مشكوك بصحتها[١٧]. وقد يكون محقّاً فيما يتعلق بالخطب المتضمنة في القصة. فهي تورد كنماذج من الخطابة البليغة، وقد تكون فيها صياغات أدبية، تعبر في رأي كاتبها عما كان يجب قوله في

موقف كهذا. ولكن، من المستبعد أن تكون القصة كلها مختلقة. وكما في كل الروايات عن "أيام العرب"، هناك جوهر من الحقيقة، حيكت حوله قصة، هكذا الأمر بالنسبة إلى هذه القصة أيضاً.

وبحسب رواية "العقد"، زار النعمان بلاط فارس، بينما كانت به وفود من بيزنطة، الهند، والصين. وتفاخر النعمان بمآثر العرب، فزجره ملك الفرس، وانتقص شأن العرب. فدافع النعمان عن خصال العرب ببلاغة فائقة، فعجب كسرى من فصاحته. ومن ضمن الأمور التي ذكرها النعمان في مديح العرب، "انفتهم من أداء الخراج والوطف بالعسف"[١٨]. وعندما عاد النعمان إلى الحيرة، كما تقول الرواية: "بعث إلى أكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة التميميين، وإلى الحارث بن عباد وقيس بن مسعود البكريين؛ وإلى خالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريين، وإلى عمرو بن الشريد السلمي، وعمرو بن معديكرب الزبيدي، والحارث بن ظالم المرّي. فلما قدموا عليه في الخورنق قال لهم: قد عرفتم هذه الأعاجم، وقرب جوار العرب منها. وقد سمعت من كسرى مقالات تخوفت أن يكون لها غور، أو يكون أنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خولاً كبعض طماطمته في تأديتهم الخراج إليه، كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله"[١٩]. والظاهر أن الخراج الذي ينوي ملك فارس فرضه على العرب هو جوهر المسألة. واقترح النعمان على هؤلاء السادة إرسال وفد منهم إلى بلاط كسرى، ففعلوا.

وفوق ذلك، فإن هذا الخطابات البليغة، التي يقال أنها ألقيت بين

يدي كسرى يجمعها موضوع عام واحد، هو رفض العرب أداء الضرائب، ومع أنه لايتم التصريح بذلك دائماً، فإن التلميح إليه وارد. ولهجة الخطابات تنطوي على التهديد - تهديد كِسرى - بالتمرد إن هو دفع "الأمر" إلى الحد الأقصى، و"الأمر" هو "الأتاوة"، والحد الأقصى هو "العسف" في جبايتها. ويتميز بحدته الخطاب المنسوب إلى حاجب بن زرارة، أحد سادة بني تميم، حيث أطلق تهديداً صريحاً في وجه كسرى[٢٠]. ولم يكن أقلَّ عنفاً خطاب الشاعر - الفارس - عامر بن الطفيل، سيِّد عامر بن صعصعة[٢١]. وفي تبادل حادٍّ بين كسرى وسيِّد شيبان، اتهم الأول الثاني بعدم الوفاء بالعهد الذي بينهما، حول ضمانة أرضٍ في سواد العراق[٢٢]. وهذه الحادثة، أي وصول وفد من سادة القبائل العربية إلى بلاط فارس، على خلفية الأوضاع التي كانت سائدة بين القبائل المقيمة على حدود الإمبراطورية، تشير إلى محاولة الفرس تشديد قبضتهم على تلك القبائل، وزيادة الأتاوات عليها. وهي كذلك، برهان على التململ في صفوف تلك القبائل، وعلى التذمر الذي وصل درجة تحدي سلطة السيِّد، وبالتالي، فهو ينذر بالمرحلة الثالثة من تدهور العلاقات بين الجانبين.

والمرحلة الثالثة من الصراع بدأت بهجوم القبائل على الحاميات الفارسية، وغاراتها على أراضي الإمبراطورية. وهذه الغارات كانت رداً على تصفية السلالة اللخمية من قبل ملك فارس، وكانت تقوم بها القبائل التي بقيت على ولائها لتلك السلالة الملكية العربية. وقد مهدت هذه المرحلة الطريق أمام نجاح الفتوح العربية للعراق. وعن هذه المرحلة، يقول الدينوري: عندما تولت بوران، ابنة كسرى بن

هرمز، الملك، ذاعت الأخبار بأن فارس بلا ملك، والفرس يحتمون على أعتاب امرأة. وثار رجلان من بكر بن وائل، أحدهما يسمى المثنى بن حارثة الشيباني، والآخر سويد بن قطبة العجلي. وقد تقدما بقواتهما، وعسكرا على حدود أرض الفرس، وراحا يغيران على أملاك "الدهاقين" (الإقطاعيين الفرس) ، وينهبان ماتصل إليه أيديهم. وعندما يطاردهما الفرس، يتوغلان في الصحراء، فلا يقدر على متابعتهما أحد. وكان المثنى يغير في منطقة الحيرة، وسويد في جوار البصرة (الأبلَّة). وكان ذلك في خلافة أبي بكر. ولذلك كتب المثنى إلى أبي بكر، يعلمه عن بأسه في أرض الفرس، ويجذب انتباه الخليفة إلى ضعف الفرس. وطلب المثنى مدداً من الخليفة، فأرسل خالد بن الوليد إلى العراق[٢٣].

وشيبان قبيلة المثنى، هي التي ألحقت الهزيمة المنكرة بالفرس في "يوم ذي قار"[٢٤]. وعليه، فإن اقتراح المثنى على الخليفة الانضمام إلى القبائل في هجماتها على حدود الفرس، فتح الباب واسعاً أمام المسلمين للتوغل في المنطقة، وأدى أخيراً إلى نجاحهم في فتحها[٢٥]. وهذه القبائل التي كانت ستواجه، عاجلاً أم آجلاً، عقاباً شديداً من الفرس، على تمردها عليهم، وجدت بدولة المدينة الناشئة حليفاً، هي في أمسِّ الحاجة إليه. وبالمقابل، وبالنسبة إلى المدينة، كان عرض التحالف هذا فرصة مواتية، لايمكن تفويتها، فتوجه خالد مباشرة إلى حدود العراق، ليضع هذا التحالف موضع التنفيذ.

وكان الوضع على حدود بيزنطة، يشبه إلى حد كبير الوضع

القائم بين القبائل على الجانب الفارسي. ولكن، وبينما لم تجر اتصالات بين الرسول والقبائل العربية على حدود فارس، فإنه في حياته، مهد الطريق أمام نجاح أبي بكر بين القبائل على حدود بيزنطة. فكما أشير أعلاه مراراً، تبنى الرسول وخليفته سياسة التوسع باتجاه سوريا. ومع ذلك، فإنه لأسباب تتعلق بالوضع في سوريا ذاتها، حققت سياسة أبي بكر نجاحاً على هذه الجبهة. وكما يقول غوبير، "ثلاثة خلقوا المناخ المناسب للغزو العربي؛ موريس، عبر تمزيقه مملكة غسان؛ فوكاس، عبر مبادرته إلى الحرب مع فارس؛ وهيركليوس، عبر قطعه الأتاوات عن العرب"[٢٦]. فبعد القضاء على مملكة غسان، في بداية الثمانينات من القرن السادي الميلادي، انقسمت القبائل التي كانت تخضع لها إلى مجموعات صغيرة كل منها بقيادة سيدها[٢٧]. وفوق ذلك، أساء هيركليوس معاملة هذه المجموعات، الامر الذي دفعها إلى التفاهم مع المسلمين. وكذلك، فالجيش البيزنطي في سوريا، كان منذ فترة طويلة عبارة عن قوة شرطة، تفتقد إلى التدريب والتسليح، نظراً لإهمال البيزنطيين أنفسهم، ولحسابات ملوكهم السياسية[٢٩]. وهذه العوامل مجتمعة سهلت على العرب فتح سوريا.

وبالنتيجة، فإن خليفة الإسلام الأول -أبا بكر- عبر تبني سياسة توسع نشطة وجريئة، تدعمه جماعة حازمة من المسلمين، الذين وحدتهم الديانة الجديدة، وحفزتهم التطلعات الكبيرة، أفاد من الأوضاع المواتية في المناطق المجاورة، وحقق نجاحاً باهراً.

حواشي الفصل الخامس

١) إغناز جولدتسيهر، "دراسات اسلامية" (بالإنجليزية)، ٩٠ - ٩١ .

٢) بوسكيه، المصدر السابق نفسه.

٣) وات، ١٤٢ ، ١٥٠ .

٤) الموسوعة الإسلامية، مادة "مسيلمة"، بوهل؛ فلهاوزن، تلخيصات، ٦ ، ١٧؛ وانظر أيضاً، ديل ايكلمان، "مجلة التاريخ الاقتصادي والسياسي للشرق"، ١٠ ، ١٧ - ٥٢ .

٥) عرفان قعوار (شهيد)، "العرب في معاهدة السلام، عام ٥٦١م"، "ارابكا" ٣ ، ١٩٥٧ ، ص ص١٨١ - ٢١٣ .

٦) ابن حبيب ، ٢٦٥ .

٧) ابن حبيب، ٢٦٥ - ٢٦٦ .

٨) عرفان قعوار، المصدر السابق، ١٩٣ .

٩) وات، ١١٨ .

١٠) م.جي. كستر، "مكة وتميم"، مجلة التاريخ الاقتصادي والسياسي للشرق"، ٢/٨ ، ١١٣ - ١١٤ .

١١) "نقائض جرير والفرزدق"، طبعة ليدن، ١ ، ٦٦ .

١٢) عبيد بن الأبرص وعامر بن الطفيل، "ديوان"، (تحرير تشارلز لايل، ١٩١٣)، ١١٧ - ١١٨ .

١٣) المبرِّد، ٢ ، ٨٣ .

١٤) لويس، ٣٣ .

١٥) راجع كستر، المصدر السابق، ١١٤ - ١١٥ .

١٦) أبو حنيفة، أحمد بن داوود الدينوري، "الأخبار الطوال"، ١٠٩ - ١١٩ .

١٧) كستر، المصدر السابق، ١١٤ .

١٨) ابن عبد ربه، عقد، ٢ ، ٧ - ٩ .

١٩) ابن عبد ربه، ٢ ، ١٠ .

٢٠) ابن عبد ربه، ٢ ، ١٢ .

٢١) ابن عبد ربه، ٢ ، ١٨ .

٢٢) ابن عبد ربه، ٢ ، ١٧ .

٢٣) الدينوري، ١١١ - ١١٢ .

٢٤) كارل بروكلمان، ٨؛ فلهاوزن، تلخيصات، ٦ ، ٣٧ - ٣٨ .

٢٥) انظر أيضاً لويس، ٥٣؛ كستر، ١١٥ - ١١٦ .

٢٦) ف.غويير، "مسألة الغسانيين عشية الإسلام"، (مؤتمر الدراسات البيزنطية، ١ ، ٦ ، ١٩٥٠) ص١١٨ .

٢٧) تيودور نولدكه، "أمراء غسان"، (ترجمة للعربية، جوزي وزريق، ١٩٣٣)، ص٣٣ .

٢٨) المصدر السابق؛ وانظر أيضاً، دي خويي، ٢٩؛ هـ. لامنس، "فتح العرب سوريا والجيش البيزنطي"، (المشرق، ٣٠)، ٣٣٨ - ٣٣٩ .

٢٩) غويير، المصدر السابق، ١١٧ .

ثبت المراجع

أ ـ المصادر العربية

١ ـ ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، (ت ١٢٥٧)، شرح نهج البلاغة، تحرير محمد أبو الفضل ابراهيم، ٢٠ مجلداً، القاهرة، ١٩٥٩ ـ ١٩٦٤ .

٢ ـ ابن الأثير، عز الدين، (١١٦٠ ـ ١٢٣٣)، الكامل في التاريخ، ١٢ مجلداً، طبعة تورنبرغ، بيروت، ١٩٦٥ .

٣ ـ ابن اسحق، محمد، (ت ٧٦٨)، (عبد الملك بن هشام، ت٨٣٤)، سيرة النبي، تحرير محمد عبد الحميد، ٤ مجلدات، القاهرة، ١٩٦٣ .

٤ ـ ابن حبيب، محمد، (ت ٨٦٠)، المحبّر، تحرير السة ليختنستاتر، حيدراباد، ١٩٤٢ .

٥ ـ ابن حجر، العسقلاني، أحمد بن علي، (١٣٧٢ ـ ١٤٤٩)، الاصابة في تمييز الصحابة، ٤ مجلدات، القاهرة، ١٩٣٩ .

٦ ـ ابن حنبل، أحمد بن محمد، (٧٨٠ ـ ٨٥٥)، المسند، تحرير أحمد محمد شاكر، ١٥ مجلداً، القاهرة، ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ .

٧ ـ ابن سعد، محمد، (ت ٨٤٥)، الطبقات الكبرى، تحرير ادوارد ساخاو، ليدن، ١٩٠٤ ـ ١٩٤٠ .

٨ ـ ابن سيد الناس، محمد بن محمد، (١٢٦٣ ـ ١٣٣٤)، عيون الأثر في فنون المغازي والسير، مجلدان، القاهرة، ١٩٣٧ .

٩ ـ ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، (٩٧٨ ـ ١٠٧١)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٤ مجلدات، تحرير علي محمد البجاوي، القاهرة، ١٩٦٠ .

١٠ ـ ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد،الاندلسي (٨٦٠ ـ ٩٤٠)، كتاب العقد الفريد، تحرير أحمد أمين، أحمد الزين، ابراهيم الأبياري، ٣ مجلدات، القاهرة، ١٩٤٠ ـ ١٩٤٢ .

١١ ـ ابن عساكر، علي بن الحسن، (١١٠٦ ـ ١١٧٦)، تاريخ مدينة دمشق، تحرير صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٥١ .

١٢ ـ ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الدينوري، (٨٢٨ ـ ٨٨٩؟)، كتاب الامامة والسياسة، تحرير محمد محمود الرافعي، القاهرة ١٩٥٧ .

١٣ ـ ـــــ، المعارف، تحرير ثروة عكاشة، القاهرة، ١٩٦٠

١٤ ـ ابن كثير، اسماعيل بن عمر، (١٣٠١ ـ ١٣٧٣)، البداية والنهاية في التاريخ، ١٤ مجلداً، القاهرة، ١٩٣٢ ـ ١٩٣٩ .

١٥ ـ ابو عبيد القاسم بن سلام، (٧٧٠ ـ ٨٣٧)، كتاب الأموال، القاهرة، ١٩٣٤ .

١٦ ـ أبو يوسف، الكوفي، يعقوب بن ابراهيم، (٧٣١ ـ ٧٩٨)، كتاب الخراج، القاهرة، ١٩٣٣ .

١٧ ـ الأصبهاني، أبو الفرج، علي بن الحسين، (٨٩٧ ـ ٩٦٧)، كتاب الأغاني، ٢٥ مجلداً، بيروت، ١٩٦٤ .

١٨ ـ البغدادي، عبد القادر بن عمر، (١٦٢١ ـ ١٦٨٢)، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، مجلدان، القاهرة، ١٩٢٩ .

١٩ ـ البغدادي، عبد القادر بن طاهر، (ت ١٠٣٧)، الفرق بين الفرق، تحرير محمد عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥٩ .

٢٠ ـ البغوي، الحسين بن مسعود، (ت ١١١٧ أو ١١٢٢)، معالم التنزيل (حاشية تفسير الخازن)، ٧ مجلدات، القاهرة، ١٩٦١ .

٢١ ـ البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر، (ت ٨٩٢)، أنساب الاشراف، المجلد الأول، تحرير محمد حميد الله، القاهرة، ١٩٥٩ .

٢٢ ـ ـــــ، فتوح البلدان، تحرير صلاح الدين المنجد، ٣ مجلدات، القاهرة، ١٩٥٦ ـ ١٩٦٠ .

٢٣ ـ البيهقي، أحمد بن الحسين، (٩٩٤ ـ ١٠٦٦)، السنن الكبرى، ١٠ مجلدات، حيدر اباد، ١٩٢٥ ـ ١٩٣٧ .

٢٤ ـ الجاحظ، عمر بن بحر، (ت ٨٦٩)، العثمانية، تحرير عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ١٩٥٥ .

٢٥ ـ حسان بن ثابت، (ت ٦٧٤)، شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، القاهرة، ١٩٦٣ .

٢٦ ـ الحلبي، على بن ابراهيم، (١٥٦٧ ـ ١٦٣٥)، إنسان العيون (السيرة الحلبية)، القاهرة، ١٩٦٤ .

٢٧ ـ الديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن (ث في القرن السادس عشر)، تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس ،مجلدان،القاهرة، ١٨٦٦ .

٢٨ ـ الدينوري، ابو حنيفة احمد بن داوود، (ت ٨٩٥)، الاخبار الطوال، تحرير عبد المنعم عامر، القاهرة، ١٩٦٠ .

٢٩ ـ الذهبي، محمد بن أحمد، (١٢٧٤ ـ ١٣٤٨)، العبر في خبر من غبر، ٤ مجلدات، الكويت، ١٩٦٠ .

٣٠ ـ ـــــ، سير أعلام النبلاء، ٣ مجلدات، القاهرة، ١٩٥٠ ـ؟

٣١ ـ ـــــ، تاريخ الاسلام، ٦ مجلدات، ١٩٤٨ (؟).

٣٢ ـ الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، (١١٤٩ ـ ١٢١٠) التفسير الكبير، ٣٢ مجلداً، القاهرة، ١٩٦١ .

٣٣ ـ السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد، (١١١٤ ـ ١١٨٤)، الروض الأنف، القاهرة.

٣٤ ـ الشيباني، محمد بن الحسن، (٧٥٠ ـ ٨٠٤)، كتاب السير الكبير، تحرير محمد أبو زهرة ومصطفى زيد، القاهرة، ١٩٥٨ .

٣٥ ـ الطبري، محمد بن جرير، (٨٣٨ ـ ٩٢٣)، تاريخ الرسل والملوك، ١٥ مجلداً، تحرير م. جي، دي خويي، ليدن، ١٨٧٩ ـ ١٩٠١ .

٣٦ ـ عبيد بن الأبرص وعامر بن الطفيل، ديوان، تحرير سير تشارلز لايل، ١٩١٣ .

٣٧ ـ العيني، محمود بن أحمد، (١٣٦٠ ـ ١٤٥١)، عمدة القاري، شرح صحيح البخاري، ٢٥ مجلداً، القاهرة، ١٩٢٩ .

٣٨ ـ المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، (٨٢٦ ـ ٨٩٨) الكامل، تحرير محمد أبو الفضل ابراهيم والسيد شحاتة، ٤ مجلدات، القاهرة، ١٩٥٦ .

٣٩ ـ المسعودي، علي بن الحسين، (ت ٩٥٦؟)، كتاب التنبيه والاشراف، القاهرة، ١٩٣٨ .

٤٠ ـ المفضل الضبي، (ت ٧٨٤)، المفضليات، تحرير لايل، اكسفورد، ١٩١٨ ـ ١٩٢١

٤١ ـ المقريزي، أحمد بن علي، (١٣٦٤ ـ ١٤٤٢)، كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، القاهرة، ١٩٣٧ .

٤٢ ـ نقائض جرير والفرزدق، تحرير بيفن، ليدن، ١٩٠٥ ـ ١٩١٢ .

٤٣ ـ النونجتي، أبو محمد الحسن بن موسى، (ت ٩٢٢)، فرق الشيعة، النجف، ١٩٥٩

٤٤ ـ النويري، أحمد بن عبد الوهاب، (ت ١٣٣٢)، نهاية الارب في فنون الأدب، ١٨ مجلداً، القاهرة، ١٩٢٣ ـ ١٩٥٥ .

٤٥ ـ الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، (١٣٣٤ ـ ١٤٠٥)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ١٠ مجلدات القاهرة، ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤ .

٤٦ ـ الواقدي، محمد بن عمر، (٧٤٧ ـ ٨٢٣)، كتاب المغازي، ٣ مجلدات، تحرير مارسدن جونز، اكسفورد، ١٩٦٦ .

٤٧ ـ وثيمة بن موسى بن الفرات، أبو يزيد، الفارسي، الفصوي، (ت ٨٥١)، كتاب الردة، ولهلم هويزباك، مينتس، ١٩٥١ .

٤٨ ـ يحيى بن آدم، (ت ٨١٨)، كتاب الخراج، القاهرة، ١٩٢٩ .

٤٩ ـ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، (ت ٨٩٧)، تاريخ اليعقوبي، مجلدان، بيروت، ١٩٦٠ .

ب ـ الدراسات بالعربية

١ ـ أحمد صالح العلي، محاضرات في تاريخ العرب، بغداد، ١٩٦٤ .

٢ ـ ــــ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، بغداد، ١٩٥٣ .

٣ ـ ثيودور نولدكه، أمراء بني غسان، (ترجمة جوزي وزريق)، بيروت، ١٩٣٣ .

٤ ـ جوزيف هوروفتس، المغازي الأولى ومؤلفوها، ترجمة حسين نصار، القاهرة، ١٩٤٩

٥ ـ شكري فيصل، حركات الفتح الاسلامي في القرن الأول، القاهرة، ١٩٥٦ .

٦ . طه حسين، الفتنة الكبرى، القاهرة، ١٩٦١ .

٧ ـ عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، بيروت، ١٩٦٠ .

٨ ـ ــــ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام، بيروت، ١٩٦١ .

٩ ـ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، مجلدان، القاهرة، ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ .

١٠ ـ عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب، دمشق، ١٩٤٩ .

١١ ـ محمد حسين هيكل، حياة محمد، القاهرة، ١٩٦٣ .

١٢ ـ محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة،القاهرة، ١٩٥٦ .

١٣ ـ محمد الخضري، إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، القاهرة، ١٩٦٠ .

١٤ ـ ــــ، محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية، مجلدان، القاهرة، ١٩٥٦ .

١٥ ـ ــــ، نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين، القاهرة، ١٩٦٣ .

١٦ ـ هنري لامنس، "فتح العرب سورية والجيش البيزنطي"، المشرق، ٣٠؛ ص ص ٣٣٧ ـ ٣٤٦ .

١٧ ـ يوليوس فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية، ترجمة محمد أبو ريدة، القاهرة، ١٩٥٨ .

جـ - الدراسات باللغات الأجنبية

1 - **Arafat, Walid**, "An interpretation of the different accounts of the visit of the Tamim delegation to the Prophet in A.H.9," B.S.O.A.S., 17 (1995), pp. 416-425.

2 - **Becker, Carl H.** "The expansion of the Saracens," The Cambridge Medieval History, Vol. II, New York, 1913.

3 - **Blachere, Regis**, Le probleme de Mahomet, Paris, 1952.

4 - **Bousquet, G.H.**, "Observations sur la nature et les causes de la conquete arabe," Studia Islamica, 6, (1956), pp. 37-52.

5 - ..... "Quelques remarques critiques et sociologiques sur la conquete arabe et les theories emises a ce sujet," Stud. Orientalist. Levi della Vida, I, (1965), pp. 52-60.

6 - **Brockelmann**, Carl, History of the Islamic Peoples, tr. J. Carmichael and M. Perlmann, New York, 1960.

7 - **Caetani, Leone**, Annali dell Islam, 10 Vols., Milano, 1905-26.

8 - ...., Chronographia Islamica, Paris, 1912.

9 - ...., Studi di Storia Orientale, Vol. 3, Milano, 1911-14.

10 - **Canard, Marius**, "L'Expansion Arabe: Le probleme militaire," L'Occident et l'Islam Nell'Alto Medioevo, (centro Italiano di Studi Sull'Alto Medioevo, Settimane di Studi Dell... XII), Spoleto, 1965, Vol. I, pp. 37-63.

11 - **Eickelman, Dale**. "Musaylima," Journal of the Economic and Social History of the Orient (JESHO) X,pp. 17-52.

12 - **Gaudefroy - Demombynes, Maurice**, Mahomet, Paris, 1957.

13 - **Gibb, Sir Hamilton Alexander Rosskeen**, Studies on the Civilization of Islam, Boston, 1962.

14 - **Goeje, Michael Jan de**, Memoir sur la conquete de la Syrie, Leiden, 1990.

15 - **Goubert, P.**, "Le probleme Ghassanid a la veille d'Islam," Congres des Etudes Byzantines, Vol. I, Act VI, 1950, pp. 103-118.

16 - **Hamidullah, Muhammad**, "Les Ahabish' de la Mecque," Stud. Orientalist. Levi della Vida, I, (1956), pp. 434-447.

17 - ...., Corpus des traites et lettres diplomatiques de l'Islam a l'epoque du prophete et des kalifes orthodox, Paris, 1935.

18 - ...., Documents sur la diplomatie Musulmane a l'epoque du prophete et des Kalifes orthodox, Paris, 1936.

19 - ...., Al-ilaf, ou les rapports economico - diplomatiques de la Mecque pre-islamique," Melange L. Massignon, II, (1957), pp. 293-311.

20 - ...., Le prophete de l'Islam, 2 Vols., Paris, 1959.

21 - **Hitti, Philip Khuri**, History of the Arabs, 6th Ed., New York, 1056.

22 - **Hottinger, Arnold**, The Arabs, University of California Press, 1963.

23 - **Hurgronje, C. Snouck**, Selected Works, tr. and ed. by J. Schacht and Bousquet, Leiden, 1957.

24 - **Kawar, Irfan**, "The Arabs in the peace treaty of A.D. 561," Arabica 3, (1957), pp. 181-213.

25 - **Kister, M.J.**, "Mecca and Tamim, aspects of their relation," Journal of Economic and Social History of the Orient, Vol., VIII, Part II, 1965, pp. 113-63.

26 - **Lammens, Henri**, "Le triumvirat: Abou Bakr, 'Omar et Abou 'Obeida," Melanges Universite Saint-Joseph (MUSJ), 4, (1910), pp. 113-144.

27 - **Laoust, Henri,** Les Schismes dans l'Islam, Paris, 1965.

28 - **Lewis, Bernard,** The Arabs in History, London, 1958.

29 - ...., ed., Historians of the Middle East (with Holt), London. 1962.

30 - **Muir, Sir William,** The Caliphate, Its Rise, Decline, and Fall, (new edition revised by T.H.Weir), Edinburgh, 1924.

31 - ...., The Life of Mohammed, (a new edition revised by T.H. Weir), 2 Vols., Edinburgh, 1912.

32 - **Pareja, F.M.,** Islamologia, Orbis Catholicus, Roma, 1951.

33 - **Rosenthal, Franz,** A History of Muslim Historiography, Leiden, 1952.

34 - **Sauvaget, J.,** Introduction to the History of the Muslim East, Los Angeles, 1965.

35 - **Tyan, Emil,** Institution du Droit Public Musulman, Paris, 1954.

36 - **Watt, W. Montgomery,** Muhammad at Medina, Oxford, 1956.

37 - **Wellhausen, Julius,** Skizzen und Vorarbeiten, 6 Vols., Berlin, 1884-1899.

هذا الكتاب

هو تعريب لاطروحة الدكتوراة في التاريخ ، قدمها المؤلف في جامعة برنستون الولايات المتحدة (١٩٦٨) ، وكانت قد نشرت بالانجليزية (١٩٧٢) . وقد ارتأى مؤخراً تعريبها. خاصة وانها تعالج قضية هامة في تاريخ فجر الاسلام، تختلف الروايات بشأنها في المصادر الاولية المتعددة، كما يتعارض المؤرخون المعاصرون في تحديد طبيعتها ومداها. والكتاب يعرض اشكالية " الردَّة" ، ويحاول من خلال دراسة متأنية للمصادر الكثيرة تحقيق المعلومات الواردة فيها ، ومقارنتها بدقة ، بهدف تحديد طبيعة " حروب الردَّة" ، تسلسل احداثها، وعلاقتها بحركة الفتوح العربية، وبالتالي فهو دراسة نقدية للمصادر ، تعتمد المنهج البنائي في تحقيق المعلومات التاريخية من الروايات المختلفة .